



الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

الإنكشارية والقولوغلية في مناطق المغرب العربي (الجزائر، ليبيا، تونس)

(1518 م – 1711 م)

رسالة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد الطالب

إبراهيم حسين عبد الله علي

إشراف

أ. د. محمود علي عامر

دمشق 2011 - 2012

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي
الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا
فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة: 11)

بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى روح المصطفى وخاتم الأنبياء، النبي الأمي

- روح أمي الطاهرة

- زوجتي الغالية وأبنائي الأحباء

- حملة العلم ورواده الكرام

- كل من وقف معي ولو بالكلمة الطيبة

إليهم جميعاً أقدم جهدي هذا

تواضعاً ومحبة

المحتويات

الصفحة

المقدمة.....	7
تمهيد تاريخي	
- أوضاع مناطق المغرب العربي قبيل السيطرة العثمانية.....	18
الفصل الأول	
السيطرة العثمانية على مناطق المغرب العربي	
أولاً : السيطرة العثمانية على إيالة الجزائر	33
آ - مظاهر الحياة العامة في إيالة الجزائر 1518-1711م	35
1- النظام الإداري العثماني في إيالة الجزائر.....	35
آ - عهد البكريكي (أمير الأمراء) 1518-1587م	35
ب - عهد الباشوات 1587-1659م	38
ج- عهد الأغوات 1659-1672م	40
د - عهد الدايات 1672-1830م	42
2- اقتصاد إيالة الجزائر ومواردها المالية	44
3- مظاهر الحياة الثقافية في إيالة الجزائر.....	48
ثانياً : السيطرة العثمانية على إيالة طرابلس الغرب	50
آ - مظاهر الحياة العامة في إيالة طرابلس الغرب 1551-1711م	52
1 - النظام الإداري في إيالة طرابلس الغرب	52
2 - اقتصاد إيالة طرابلس الغرب ومواردها المالية.....	58
3 - مظاهر الحياة الثقافية في إيالة طرابلس	62
ثالثاً - السيطرة العثمانية على إيالة تونس	65
1- النظام الإداري في إيالة تونس	67
2- اقتصاد إيالة تونس ومواردها المالية	73
3- مظاهر الحياة الثقافية في إيالة تونس	78
- استنتاج الفصل الأول	81

الفصل الثاني

نشأة إنكشارية مناطق المغرب العرب وقولوغليتها

84	أولاً: الإنكشارية.....
93	1- نشأة الإنكشارية في الجزائر
99	2 - نشأة الإنكشارية في طرابلس الغرب
105	3- نشأة الإنكشارية في تونس
109	ثانياً: القولوغلية
115	1 - نشأة القولوغلية في الجزائر
119	2 - نشأة القولوغلية في طرابلس الغرب
123	3 - نشأة القولوغلية في تونس
127	- استنتاج الفصل الثاني

الفصل الثالث

الأوضاع الإدارية والاجتماعية لإنكشارية

مناطق المغرب العربي وقولوغليتها

130	1- الأوضاع الإدارية
130	أ - تقسيماتهم الإدارية
137	ب - تكناتهم
144	ج- مهامهم
153	2- الأوضاع الاجتماعية
153	أ - ظاهرة زواجهم
159	ب - حياتهم اليومية (الأكل، اللباس، النشاط الحرفي)
165	ج- علاقاتهم بالسكان المحليين
171	- استنتاج الفصل الثالث

الفصل الرابع

ثورات وتمردات الإنكشارية والقولوغلية

في مناطق المغرب العربي

أولاً - الإنكشارية	174
أ - ثورات الإنكشارية وتمرداتها في إيالة الجزائر	175
ب - ثورات الإنكشارية وتمرداتها في إيالة طرابلس الغرب	185
ج - ثورات الإنكشارية وتمرداتها في إيالة تونس	191
ثانياً - القولوغلية	197
أ - ثورات القولوغلية وتمرداتها في إيالة الجزائر	197
ب - ثورات القولوغلية وتمرداتها في إيالة طرابلس الغرب	203
ج - ثورات القولوغلية وتمرداتها في إيالة تونس	208
- استنتاج الفصل الرابع	213
- الخاتمة	216
- الملاحق	221
المصادر والمراجع	290

مُتَكَلِّمَةٌ

عُد القرن السادس عشر الميلادي بحق قرن الصراعات الدينية، وكان المغرب العربي ميدان ذاك الصراع المحموم الذي قاده الإسبان عليه بدافع الانتقام من العرب الذين حكموا شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال) لقرون زمنية، لكن سوء طالع العرب وتجاهلهم للواقع وانغماسهم باللهو والمجون أسفر عن تفرقهم الذي ختم بخروجهم من تلك المناطق غير مأسوف عليهم.

استغل الإسبان توافر النظم الإدارية والقضائية التي تؤكد على قيام الدولة، فشنوا حملات حاكمة على مناطق المغرب العربي بدءاً من الجزائر فتونس ثم طرابلس الغرب حاملين معهم ظاهرة الكراهية وسواد الانتقام، وبهذا تكون مناطق المغرب العربي موضع انتقام الإسبان.

تقدم الإسبان إلى مناطق المغرب العربي وسكانه في غفلة من أمرهم، مما عرضهم إلى ظلم إسباني شديد حتم عليهم المقاومة ومواجهة الأحقاد الإسبانية بعزيمة، وقد دُهِش الإسبان من صلابتها وشراستها، مما اضطرهم إلى إعادة حساباتهم خوفاً من زيادة في خسائرهم المادية والبشرية.

تفاوت الصراع ما بين مسيحيي الإسبان وما بين مسلمي الشمال الأفريقي، وكان لآل بربروس الفضل الأكبر في الاستتجاد بالأتراك بغية خلق توازن دولي ما بين القوة الإسلامية المتجسدة بالقوة العثمانية الناشئة وما بين الشراسة المسيحية المتجسدة بالإسبان المدعومة من الكنيسة.

لم يتأخر العثمانيون عن تقديم دعمهم العسكري والمادي لآل بربروس الذين تمكنوا من إلحاق الهزائم بالإسبان، وبما أن الإسبان اصطدموا بمقاومة آل بربروس العنيفة اضطروا إلى التخلي عن طرابلس الغرب لفرسان القديس يوحنا الذين طردهم سليمان القانوني من جزيرة رودس سنة 1523 م وبذلك يكونون قد تعرضوا للطرد من مناطق سكناهم لثلاث

مرات من القدس سنة 1187م إلى عكا ثم طردهم منها سنة 1191م فاستقروا في رودس.
إزاء هذا التشدد الذي واجهه الفرسان تألم البابا لمصائبهم، فسارع إمبراطور الإمبراطورية الهابسبورغية شارل الخامس (شارلكان) ومنحهم طرابلس الغرب كمركز عسكري سنة 1530م، وعلى الفور لبوا الدعوة وأقاموا مركزهم العسكري فيها، وباشروا بممارسة الظلم والقهر فاستتجد سكان طرابلس الغرب بالسلطان العثماني سليمان القانوني (1520-1566م) الذي لبي نداء الليبيين (سكان طرابلس الغرب).

إن احتلال الإسبان لتونس وخضوع واليها آنذاك الوالي حسن الحفصي 1535م لإرادة الإسبان أخر مسألة طردهم منها. لذلك تزايدت أعمال الإسبان الوحشية ضد التونسيين، وعلى الفور كلف السلطات سليم الثاني (1566-1574م) حملة ضخمة لطرد الإسبان من تونس، وقد تمكن قائد الحملة سنان باشا من طردهم من تونس سنة 1574م لكنه توفي قبل أن يشهد نتائج حملته هذه.

وهكذا فإن الدولة العثمانية عهدت إلى ولايتها العسكريين إدارة مناطق المغرب العربي وتحت إمرتهم عناصر من الإنكشارية، وقد تمكنت الإنكشارية من طرد الإسبان من تلك المناطق وظلت خصماً عنيداً للدول المسيحية عامة والإسبان خاصة، وبما أنهم استقروا في تلك الولايات التي سمّتها المصادر العثمانية بأوجاق الغرب، فقد تزوجت العناصر العسكرية (الإنكشارية)⁽¹⁾ من النساء المحليات وأنجبن جيلاً جديداً أطلق عليه اسم القولوغلوية⁽²⁾، وقد شاركت القولوغلوية الإنكشارية إدارة تلك الولايات وأسهمت هي الأخرى في الفوضى أسوة بالإنكشارية.

إن أهمية البحث تكمن في أنه يعالج موضوعاً جديداً في أهدافه ومضامينه، لأن هاتين

(1) ينجري، مصطلح عثماني عرّبه المختصون بالإنكشارية أي الجندي الجديد، وقد حققت قوات الإنكشارية للدولة العثمانية انتصارات باهرة حولتها من دولة إلى إمبراطورية امتلكت أربعاً وثلاثين ولاية شرقاً وثلاثاً وعشرين ولاية غرباً.

(2) القولوغلوية، وهي لفظة مؤلفة من قول تعني عبد وأوغلو تعني ابن أي أولاد العبيد ولم يكن للقولوغلوية أية امتيازات سوى إعفائها من الضرائب. للمزيد:

Midhat sert oğlu, Resimli osmanli tarihi, Ankara, 1958, S. 225.

القوتين لم تكونا على مستوى واحد من الجاهزية القتالية، كما أنهما لم يكونا بالقوة نفسها من ناحية اهتمام السلاطين، وإذا كانت القولوجية هم أبناء الإنكشارية، فإنها تمكنت من البروز على ساحة الولايات مع مطلع القرن الثامن عشر كقوة ضاربة قادرة على ضبط الأمن وتوطيده، لكنها لم تكن مؤهلة للتصدي للأعداء الخارجيين من أوروبيين وإسبان.

لم تعرف المصطلحات العثمانية مصطلح القولوجية إلا في مناطق المغرب العربي، ولم تذكر المصادر أن الإنكشارية المركزية أنجبت جيلاً كهذا، لأن إنكشارية المركز ذابوا في النسيج المحلي، وغدوا مع مرور الزمن يكوّنون الشعب العثماني (التركي الحالي) في حين لم تقبل أية ولاية ذوبان الإنكشارية في البوتقة المحلية كما حدث في مركز الدولة المناطق التابعة لها، غير أن القولوجية ذابت وأصبحت جزءاً من النسيج المحلي في الولايات العربية خاصة.

إذا كانت الإنكشارية قد عجزت عن الذوبان في المجتمع الموجود فيه، فإن القولوجية لا تحتاج إلى جهد للذوبان في مجتمعها، لأنها بالأصل هي محلية، قبلها الأهالي في حين رفضها النظام العثماني، ولهذا نرى أن الإنكشارية لم تتمكن من استلام إدارة سميت باسمها، أما القولوجية فقد تولت الإدارة في ولاياتها تحت مسميات عدة مثل عصر الدايات وعصر الأغوات في الجزائر وعصر البايات في الولايات الأخرى وهي مصطلحات اعتمدت في مناطق المغرب العربي، هذا الاختلاف في المضمون والهدف هو الذي منح البحث أهمية أسهمت في كشف مضامين أحداثه.

أما أهداف البحث فهي كشف نقاط الوفاق والاختلاف لهاتين القوتين اللتين تخضعان لسلطان واحد وإدارة واحدة، لكن الاهتمام من قبل هذا السلطان وتلك الإدارة مختلفان اختلافاً كبيراً، من حيث التنظيم ومن حيث المكانة الحربية والأهمية العسكرية والرواتب والتسليح والمهام.

إن المنظومة العسكرية العثمانية لم تعترف البتة بالقولوجية، علماً بأن الدولة العثمانية منحت قيادتها إدارة بعض الولايات على سبيل المثال لا الحصر الجزائر التي كلف حسن

باشا ابن خير الدين برياروس بإدارتها لثلاث مرات، وعلى الرغم من مكانة والده لدى الإدارة العثمانية، فإنها كانت حذرة منه، وكانت تتقبل أية شكوى تقدمها الإنكشارية بحقه، ولم نعثر على ما يدل أن السلطان العثماني استجاب لشكوى واحدة للقولوغلية إلا ما ندر.

من هذا المنطلق تجسدت في البحث أهمية معالجته والتطرق إليه، والفرمانات العثمانية الموجهة إلى ولاية الشمال الأفريقي تؤكد أن السلطان كان يطلب من واليه ضبط الإنكشارية إذا تجاوزت حدودها وطرده القولوغلية إذا أساءت إلى أمن الولاية.

لبحث هذا، فهناك إشكاليات عدة يمكن استعراضها من خلال التساؤلات التي يحتم على لبحث الإجابة عنها.

ما هي الفروق بين الإنكشارية والقولوغلية؟ ولماذا كلفت القولوغلية بحماية القلاع وأُعفيت فقط من الضرائب. وبتعبير أكثر وضوحاً لماذا كلفت القولوغلية بحراسة الإنكشارية الموجودة في القلاع.

من مارس العنف ضد الأهالي أكثر الإنكشارية أم القولوغلية؟ ولماذا لم يعهد للقولوغلية بجمع الضرائب؟ ولماذا لم تكلف بمهام سوية أو بمهمة ضبط الأمن أو محاربة الخارجين عن الطاعة ؟

لقد تم إزالة الإنكشارية من الدولة العثمانية وولاياتها في الواقعة الخيرية سنة 1826م حيث قام السلطان محمود الثاني 1808-1839م بإبادة، واضطرت الدولة العثمانية على إثرها على الاعتماد على القولوغلية، لماذا لم يذكر اسمها في الفرمانات السلطانية الموجهة إلى ولاية تونس وطرابلس الغرب، وظل اسم الإنكشارية متداولاً، هذه التساؤلات بمجملها تكون إشكالية البحث المعد للإجابة عنها.

إن الطروحات المتصارعة تحتم على الباحث اعتماد المنهج الاستقرائي حيناً، والمنهج المقارن حيناً آخر، وهنا تكمن صعوبة خروج الباحث من التناقض المفروض عليه أثناء قراءة الإنكشارية بمعزل عن القولوغلية، وقراءة القولوغلية بمعزل عن الاعتراف بها من قبل الإدارة العثمانية التي اعتمدت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على ضبط الأمن في ولايتي تونس وطرابلس الغرب ورفضت الاعتراف بها كتابياً في الفرمانات الصادرة إليها،

وظل مصطلح الإنكشارية ساري المفعول رغم إزالتها من الحياة الإدارية والعسكرية للدولة العثمانية ولم يتم العثور البتة على بحث يعالج القوى العسكرية العثمانية في ولايات الشمال الأفريقي (المغرب العربي أو أوجاق الغرب) سواء الإنكشارية بمفردها أو القولوغلية بمفردها، ولا حتى أي بحث بهذه الشمولية، أما من ناحية دراسة القوى العسكرية في الولايات كل بمفردها فهناك دراسات كثيرة وجادة ويصعب استعراضها لكثرتها، والأفضل ذكر مؤلف قريب من البحث وهو للمؤلف عزيز سامح التر، المترجم الجزء الأول من قبل الحاج عبد السلام أدهم، والجزء الثاني والثالث من قبل محمود عامر، والكتاب معنون الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية.

ومن المؤلفات التي عالجت أوضاع الإنكشارية ضمن مضمون أو مفهوم الإدارة العثمانية سواء مصادر أو مراجع أبرزها تاريخ جودت وتاريخ صولاق زاده وأحمد رفيق، وهناك التقييمات السنوية لولايتي تونس وولاية طرابلس الغرب، فالجزائر احتلتها فرنسا قبل صدور ما يسمى بالتقويمات السنوية (السالنامات العثمانية). وهناك أيضاً وثائق تاريخ ليبيا الحديث ترجمة الحاج عبد السلام أدهم وأحمد صدقي الدجاني.

ومن المؤلفات التي تناولت ولاية تونس، كتاب لمحمد فارس ولعبد الجليل التميمي، وهناك مؤلفات محمود ناجي تاريخ طرابلس الغرب وأحمد النائب المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، وحسن الفقيه اليوميات الليبية، وتعدّ الجزائر من أكثر ولايات الشمال الأفريقي دراسة لأوضاعها خلال الفترة العثمانية، هذه المؤلفات على كثرتها كانت عوناً، لكنها لم تكن مكتملة لبعدها عن قراءة الوثائق العثمانية وما دونه المؤرخون العثمانيون عن واقع الصراع ونضالات آل برياروس التي شكلت نصف القوة العثمانية في مناطق المغرب العربي آنذاك، وتعدّ ولاية طرابلس الغرب من أكثر ولايات المغرب العربي وضوحاً لإحداثها ولإدارتها، وقد أسهمت الظروف في ترتيب أمورها الإدارية وتطوراتها الشاملة لمختلف مؤسساتها. في حين غدت تونس في ظل الأسرة الحسينية شبه مستقلة عن الدولة العثمانية، وكانت سباقة على الدولة العثمانية في مسألة الإصلاحات التي فرضت على الدولة العثمانية من عل.

هكذا وعلى ضوء هذه المفارقات الإدارية في الولايات الثلاث، فإن رؤية واقع الإنكشارية والقولوغلية في تلك الولايات يحتم اعتماد المنهج الاستقرائي ثم المنهج المقارن بهدف الخروج بنتائج علمية، ولكي يغدو المنهج العلمي واضحاً لا بد من الاطلاع على فرمانات السلطانية التي وجهت إلى ولاية تلك الولايات.

يشك كثيراً في المدونات الأجنبية المعربة وغير المعربة، لأن الكتاب الأجانب يصعب عليهم كثيراً أن يذكروا محاسن الإنكشارية والقولوغلية والبحث عماده الاطلاع أو قراءة واقع الإنكشارية والقولوغلية بصدق ليتمكن من أن يعتمد منهجاً علمياً، لكي يخرج بنتائج إيجابية أو سلبية .

لقد واجه الباحث صعوبات جمّة أبرزها:

- 1- الافتقار العلمي الكامل لواقع الإنكشارية من حيث: هل هي جزء من إنكشارية استانبول أم أنها جمعت من مناطق الأناضول ومنحت صلاحية وامتيازات الإنكشارية. وهل كان تسليحها كتسليح إنكشارية إستانبول؟
 - 2- هل راعى آغا الإنكشارية حقوقها أم ألزمها بما هو واجب عليها.
 - 3- القانون العثماني ألزم آغا الإنكشارية باستبدالها كل ستة أشهر بعدما أجاز لها أحقية الزواج، ولكن لم يلتزم السلاطين ولا ولاتهم به.
 - 4- طالما تبدل كل ستة أشهر، فمن غير المعقول أن تتزوج من النساء المحليات وتترك أولادها في الولاية التي كانت تخدم فيها.
- ما ينطبق على الإنكشارية ينطبق على القولوغلية من حيث نقص المعلومات والبحث عن حياتها ومميزاتها وحقوقها وواجباتها، ولماذا سميت بالقولوغلية (أولاد العبيد) أليس هذا احتقاراً لها.

بعد هذا النقص في المعلومات فإن انغماس الباحث في المقارنة ما بين الإنكشارية وواقعها في الولايات الثلاث ثم مقارنة القولوغلية، وبعدها إجراء مقارنة ما بين الإنكشارية والقولوغلية في الولايات الثلاث قد يحقق نقطة إيجابية في البحث.

بقي على الباحث إيضاح اعتماده لمصطلح ولاية طرابلس الغرب وتجاهله لمصطلح ليبيا.

في حقيقة الأمر المصادر العثمانية لا تعرف اسم ليبيا الذي اعتمد سنة 1912م إثر وروده في منشور كارلو كانيجا (C. Canera) قائد الحملة الإيطالية على ليبيا. ولهذا اضطررنا إلى اعتماد مصطلح طرابلس الغرب.

قسم البحث إلى مقدمة وتمهيد تاريخي وأربعة فصول وخاتمة.

في التمهيد التاريخي تم استعراض أوضاع مناطق المغرب العربي قبيل السيطرة العثمانية عليه، وركز البحث على الدراسة بشكل خاص على ولاية طرابلس الغرب وعلى ولاية تونس وولاية الجزائر موضحاً التوجه الإسباني المدفوع إلى تلك المناطق بتأثيرات دينية طابعها الانتقام وسياسية محاولة إحياء حروب صليبية ناجحة بدلاً من الحروب الصليبية الفاشلة سابقاً، واقتصادية استلاب خيرات تلك المناطق ومحاولة الإسبان تغطية النقص الاقتصادي الذي تفاقمت آثاره إثر طرد العرب من إسبانيا، وبعدها توسع البحث في استعراض الحملات الحربية الإسبانية على مناطق المغرب العربي، وتصدي الأهالي لهم ولا سيما في الجزائر بقيادة آل برباروس، في حين تكفل العثمانيون في طرد فرسان القديس يوحنا⁽¹⁾ من طرابلس الغرب سنة 1551م، ومن تونس سنة 1574م، وبقيت وهران بيدهم حتى العقد الأخير من القرن السادس عشر، وهكذا ترك الإسبان في مناطق المغرب العربي

(1) منظمة الفرسان القديس يوحنا أو رودس أو مالطه، منظمة القديس يوحنا نشأت في جنوب سورية في حوران كمنظمة خيرية تقدم المساعدات للمرضى والجرحى، ومع قدوم الصليبيين تحولت إلى منظمة صليبية حاكمة على الإسلام والمسلمين، وقد عمد صلاح الدين الأيوبي بعد انتصاره في معركة حطين سنة 1187م إلى طردهم من القدس إلى عكا، وفي عكا مارسوا أعمالاً مشينة ضد المسلمين وسفنهم فطردهم من عكا سنة 1191م فاستولوا على جزيرة رودس وظلوا فيها حتى سنة 1523م حين طردهم السلطان سليمان القانوني منها، فساحوا ضائعين، وقد تألم البابا لمصائبهم، فسارع كارل الخامس شارلكان (إمبراطور الإمبراطورية الهابسبورغية) على منحهم طرابلس الغرب مركزاً عسكرياً ومالطه مركزاً روحياً، وحينما طردوا من طرابلس سنة 1551م تجمعوا في مالطه واتخذوها عشاً لهم إلى أن هدمه نابليون بونابرت أثناء قدومه إلى مصر وبلاد الشام سنة 1798م.

شهداء عرباً أحراراً، في حين تمكن العرب من دفن حقدهم في مياه البحر المتوسط وحملوهم هدية لن ينسوها، أن العرب أمة قادرة على مقاومة الغزاة وطردهم إذا أرادوا...؟!؟

أما الفصل الأول فهو معنون: السيطرة العثمانية على مناطق المغرب العربي، فقد تطرق إلى كيفية تمكن العثمانيين من السيطرة على إيالة الجزائر سنة 1518م وباعتراف آل بربروس بالحماية العثمانية لهم. كما تطرق إلى استتجاد الطرابلسيين بالعثمانيين سنة 1544م لإنقاذهم من ظلم الفرسان الذين مارسوا وحشية منقطعة النظير ضد الأهالي. كما عمد البحث إلى دراسة سيطرة العثمانيين على تونس سنة 1574م والهدف من هذه الدراسة قراءة عدد الإنكشارية التي أبقاها العثمانيون في كل ولاية، وما هي الصلاحية التي منحت لها، بالطبع لم يعرف القرن السادس عشر ولا السابع عشر ما يسمى بالقولوغلية لأن نظام الإنكشارية كان يحرم الزواج عليهم مضافاً إلى أن الدولة العثمانية لم تكن لتسمح للإنكشارية بالتمادي، وبما أن نظام الإنكشارية بدأ ينهار يوماً بعد يوم. وأن الفساد تفشى أكثر، فقد غدت الأمور بيد الإنكشارية، لدرجة أن السلطان الحاكم لم يكن ليصل العرش إلا تحت سيوف الإنكشارية.

أما الفصل الثاني: فهو بعنوان نشأة الإنكشارية في مناطق المغرب العربي ونشأة القولوغلية. وقد تطرق البحث في هذا الفصل إلى الإنكشارية نشأتها وماهيتها وكيف توطدت ولاية الجزائر والمهام القتالية والأمنية التي قامت بها أو كلفت بها في الجزائر ثم نشأة الإنكشارية في طرابلس الغرب والمهام التي كلفت بها ثم نشأتها في ولاية تونس، كما تطرق إلى القولوغلية ومضمونها ونشأتها في الجزائر، وهل يعدّ تولي حسن باشا ولاية الجزائر سنة 1544م بداية بروز القولوغلية على الساحة المغربية، أم بعد سنة 1705م و 1711م بتولي الأسرتين الحسينية والقرمانلية في كل من تونس وطرابلس الغرب.

تتفاوت الآراء بشأن بروز القولوغلية كقوة في النظم العثمانية وبخاصة في ولايات الشمال الأفريقي، فجودت باشا يعدّ سنة القضاء على الإنكشارية سنة 1826م بروز القولوغلية في حين يعدّ أحمد رفيق بداية ظهور القولوغلية حيث تجسد فعلياً منذ منتصف

القرن الثامن عشر ويرجح سنة 1705م واستلام الحسينيين السلطة في تونس بداية لهذا الظهور، ويرد هذا الظهور إلى ثورة العساكر ثم ثورة الأمراء وتزايد النفوذ المحلي.

ما يهم في البحث نشأة القولوغلية وإيجاد توافق تاريخي على ظهور القولوغلية كقوة وسطية تجمع ما بين الإنكشارية والأهالي، ولكن الإنكشارية لم تعترف بالقولوغلية، ولهذا ثارت في الجزائر محتجة على معاملة الإنكشارية لها.

تفيد المصادر التي اعتمد الباحث عليها أن ثورة الإنكشارية كانت نتيجة لسوء المعاملة ولعدم تقدير ولاية الأمر لجهودها، فلولا جهودها لما تمكن العثمانيون وولاتهم في السيطرة على مناطق الشمال الأفريقي، ويرد رجال البحر (القباطنة) أن سيطرة العثمانيين على مناطق الشمال الأفريقي ما كتب له النجاح لولا القوة البحرية المتجسدة في آل برباروس ورفاقهم القباطنة.

أما الفصل الثالث: فهو بعنوان الأوضاع الإدارية والاجتماعية لإنكشارية مناطق المغرب العربي وقولوغليتها، فقد تطرق الفصل إلى التقسيمات الإدارية وجزئياتها مثال تقسيم الإنكشارية، ثكناتها، مهامهم، ثم الأوضاع الاجتماعية، فساد نظام الإنكشارية والتخلي عن العزوبة وإمكانية الزواج وزواج الإنكشارية في الولايات من النساء المحليات والأوضاع الأسرية للإنكشاريين المتزوجين، وأوضاعهم اليومية وعلاقاتهم بالسكان المحليين، وموقف السكان من أبناء أخواتهم أو أبناء بناتهم، وهل شعر المحليون بالأمان بعدما كبر وشب أبناء الإنكشارية، أم أن هؤلاء الأبناء الذين سموا بأولاد العبيد تعالوا على أحوالهم من السكان المحليين، تساؤلات مثيرة قد لا يتمكن الباحث من الإجابة عنها، لأن واقع الولاية كان محمومًا والقولوغلية اضطهدت من الإنكشارية، وحينما تولت زمام الأمور مارست هي الأخرى الظلم والقهر.

أما الفصل الرابع: فهو بعنوان ثورات وتمردات الإنكشارية والقولوغلية في مناطق

المغرب، فهو فصل يحدد فيه فرض تلك القوى العسكرية التي اعتمد عليها العثمانيون نفوذها وهيمنتها، وقد يتمكن البحث من إجراء استعراض لثورات الإنكشارية والقولوغلية وأسباب تزايد خروجهم عن القانون الذي يحتم عليهم تأمين الأهالي والمحافظة على سلامتهم، لكن الواقع الدراسي أكد أن ثورات الإنكشارية كانت لأسباب سيادية وليس لأنهم مضطهدون كما تشيع بعض المصادر الأجنبية وليس بسبب بنيتهم الأساسية، صحيح أن القوى العسكرية بكل أصنافها وأطيافها فوضوية إذا كان قائدها ضعيفاً ومرتبشياً ويبحث عن مصالحه الخاصة، أما إذا كان مستقيماً وشجاعاً فهي منضبطة ونظامية ولا تجرؤ على ممارسة أي عمل غير نظامي، بعكس القولوغلية، فالقولوغلية لم تضع النظام ولا تربت عليه، تعلمته كيفياً، لأنها لم تدرب، فالقانون الذي يخول السماح لأبناء الإنكشارية في السلك، أضر كثيراً بالنظام، ومما زاد من فوضى القولوغلية أنها كانت محتقرة جداً من قبل الإنكشارية، مضافاً إليه التدخلات الأوروبية التي ما انقطعت يوماً عن إثارة الفتن بين أهالي سكان المغرب العربي.

وفي **الخاتمة** تكفل الباحث باستعراض أبرز النقاط التي توصل إليها مدعومة بحقائق لا يمكن التغاضي عنها. وإذا كان الباحث بمجمله يعالج اضطرابات واسعة النطاق شملت أقصى مدن الولاية وأدناها.

وفي الختام قد لا يكون الكلام يوازي جهد الأستاذ المشرف، أو أن قلبي ليس بقادر على إيفائه حقه، فالأستاذ الدكتور محمود عامر عاملني كمواطن سوري وكليبي شقيق له وكابن حرص دوماً على إعدادي بشكل يؤهلني لإيفاء بلدي وأبناء بلدي حقهم عليّ، ولهذا فإنني أتوجه بالشكر الجزيل لشخصه متمنياً له الصحة والعافية، كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى دكاترة القسم ورئيسه، وإلى عميد كلية الآداب وكل من قدم لي معلومة.

والله ولي النصر والتوفيق.

تمهيد تاريخي

أوضاع مناطق المغرب العربي

قبيل السيطرة العثمانية

أوضاع مناطق المغرب العربي قبيل السيطرة العثمانية

من المعروف أن الفتح الإسلامي لبلدان المغرب العربي في القرن السابع الميلادي، قد حقق الوحدة السياسية لهذه المنطقة لأول مرة في تاريخها⁽¹⁾، إلا أنها شهدت بعد ذلك تفككاً وانحلالاً، بدأت ملامحه تظهر مع نهاية القرن الثالث عشر، حينما سقطت دولة الموحدين سنة 1261م التي كانت تبسط نفوذها على هذه المناطق، وحلت محلها ثلاث دول هي: دولة بني حفص بتونس (وطرابلس والشرق الجزائري)، ودولة بني زيان (بالوسط والغرب من أرض الجزائر)، ودولة بني مرين (بالمغرب الأقصى)⁽²⁾.

ازدادت معاناة هذه المنطقة نتيجة انتشار الفوضى السياسية، ولاسيما بعدما انقسمت هذه الممالك إلى قبائل وإمارات صغيرة متناحرة فيما بينها، خاصة في المغرب الأوسط إذ انحصرت سلطة الزيانيين في تلمسان، أما بقية البلاد الوسطى والجنوبية فكانت مقر إمارات عديدة تشمل مدينة الجزائر، وسلطنة كوكو التي حكمها ابن القاضي. لقد اشتد النزاع بين سلطان كوكو وقلعة بني عباس وإمارات أخرى واهية، اعتقدت أنها تقسم الرقعة الوسطى من المنطقة لكنها لا تدين - رغم صغرها - بالولاء لأحد⁽³⁾.

(1) محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، مكتبة دار الشرق، بيروت، ط: 2، ص 5.

(2) أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1972م، دار البصائر للنشر، الجزائر، ط: 1، 2007م، ص 57.

(3) المرجع السابق، ص 83.

ولم تكن أوضاع المغرب الأدنى بأحسن من حظ جيرانه، فقد استطاع الشيخ سيدي منصور بعد أن أصبحت له الكلمة العليا أن يستقل بحكومة طرابلس، ويخلصها من سيطرة الحفصيين بعدما ضعفت سلطتهم وانهارت مملكتهم⁽¹⁾.

وليس من عرضنا هنا تتبع المراحل التي مر بها هذا التحول السياسي في مناطق المغرب العربي وحسبنا أن نشير إلى أن الحالة البائسة لتلك المناطق سهلت مهمة الأسبان، لتحقيق أطماعهم في هذه المناطق التي يسودها الانشقاق الداخلي الذي يعدّ من أول العوامل التي مهدت الطريق لتحول أسبانيا من حرب الاسترداد^(*) إلى مرحلة الهجوم الاستعماري الشرس، الذي استمر طيلة ثلاثة قرون على بلاد المغرب، مكتسباً صبغة صليبية دينية. رغم قساوتها غير أنها وحدت سكان المغرب العربي وحثمت عليهم مواجهة أعدائهم.

ويفسر الكثير من المؤرخين توجه الأسبان بمشروعهم الصليبي إلى مناطق المغرب العربي في نهاية القرن الخامس عشر، لعدة أسباب أهمها:

1 - أسباب دينية:

يرى بعضهم أن الدافع الديني من أكبر الدوافع التي دفعت إسبانيا للهجوم على مسلمي المغرب العربي، لمحو إسلامهم وطمس عروبتهم وإخضاعهم للحكم المسيحي.

وقد تميزت إسبانيا عن بقية الدول الأوروبية الأخرى في القرن السادس عشر بتزعمها للحركة الجديدة الهادفة إلى القضاء على الإسلام والمسلمين، بحجة أن الممالك الأيبيرية لها دور كبير في تاريخ الحروب ضد المسلمين لاسترجاع مناطقهم⁽²⁾. هذه الجرأة زادت حماسهم

(1) محمود علي عامر، محمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى . ليبيا)، منشورات كلية الآداب، جامعة دمشق، ط: 4، 2007م، ص147.

(*) حرب الاسترداد reconquista : وهي تسمية تتطوي على التحدي والمغالطة لأن الأسبان لم يسبق لهم الاستيلاء على أقاليم شمال أفريقيا. للمزيد انظر: عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، القاهرة، ج: 2، ط: 2، 1986م، ص901.

الروحي الصليبي، وانطلاقاً منه قام مسيحيو الأسبان بحملة تبشيرية من أجل توحيد البلدان المسيحية لشن حرب لا رحمة فيها ولا هوادة ضد المسلمين⁽¹⁾ على الرغم من احترامهم للمسيحية واعترافهم بها - على كون أن محاربتهم وملاحقتهم أينما ذهبوا ما هي إلا استكمالاً للرسالة المقدسة التي تلقوها إزاء العرب عن أسلافهم الصليبيين⁽²⁾.

وقد شجعت البابوية والكنيسة في روما القيام بهذه الحرب، ودعت إلى تضافر الجهود الصليبية، والتعاون من أجل نجاحها، وقد لعب القساوسة والرهبان دوراً كبيراً في حشد الطاقات، وجمع الأموال بمقادير طائلة⁽³⁾؛ لكي يزودوا الجيوش المسيحية بالمال والعتاد لإنجاز تلك المهمة.

ولا ننسى ما أوصت به الملكة إيزابيلا قبل وفاتها سنة 1504م لابنتها جوانا وزوجها فيليب على تحقيق أغلى أمانيتها وهي التعاون مع الكنيسة لمواصلة الزحف حتى يدين لهم شمال أفريقيا وتنتشر المسيحية بين سكانه⁽⁴⁾.

2 - أسباب سياسية:

إن المخطط السياسي في حقيقة أمره هو إحياء للحروب الصليبية، تلك الحروب التي تمثل أحد مظاهر الصراع بين الشرق والغرب في العصور الوسطى⁽¹⁾، فبعدما تمكن ملوك

(2) محمد عبد الفتاح الويشي، السياسة الإسبانية تجاه الجزائر في الفترة من عام 1516-1571، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، 1996، ص44.

(1) حكمة ياسين، الغزو الإسباني للجزائر في القرن السادس عشر، مجلة الأصالة تصدر عن وزارة التعليم والشؤون الدينية بالجزائر، السنة الثالثة، العدد 15.14، مطبعة البعث، 1943م، ص242.

(2) الويشي (رسالة ماجستير) مرجع سابق، ص 49.

(3) المدني، حرب الثلاثمائة عام، مرجع سابق، ص 72 .

(4) شوقي الجمل، المغرب العربي الكبير من الفتح الإسلامي إلى الوقت الحاضر ليبيا - تونس - المغرب الأقصى (مراكش)، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، 2007م، ص76.

إسبانيا من توحيد دولتهم وامتلكوا زمام الأمور فيها بدؤوا يتطلعون لفرض سيطرتهم على أمريكا ومعظم بلدان أوروبا، كما توجهت أنظارهم إلى الشواطئ الشمالية الغربية للبحر المتوسط محاولين بسط نفوذهم هناك بغية إعادة أمجاد وممتلكات الإمبراطورية القديمة، وفي الوقت ذاته يتمكنون من القضاء على القرصنة الإسلامية التي نشأت على ضفافه⁽²⁾.

إن تطلعاتهم الاستعمارية قد تحول دون وصول العثمانيين إلى غرب البحر المتوسط، حيث سيطرت الإمبراطورية العثمانية على معظم شرق أوروبا والشرق الإسلامي، وأصبحت أعظم قوة هناك معادية لإسبانيا، وأن وجودهم في غرب المتوسط يعطي المساندة والعون لسكان المغرب العربي، الذين تحمسوا لفكرة الجهاد الهادفة لاسترداد الأندلس، لذلك أسرع إسبانيا لاحتلال المغرب العربي وإبعاد الخطر الإسلامي عنهم.

3- أسباب اقتصادية:

يتفق معظم المؤرخين على تعرض الاقتصاد الإسباني للانحيار في بداية العصور الحديثة، وعانت إسبانيا أزمة اقتصادية خانقة تفاقمت بعد صدور قرار طرد المسلمين من بلاد الأندلس، سنة 1503م⁽³⁾ إلى مناطق المغرب العربي كونهم كانوا يشكلون القوى العاملة الأساسية في مجال الزراعة والصناعة، والتجارة التي سادها الكساد في إسبانيا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد حمل هؤلاء المهاجرون المسلمون روح النضال ضد الأسبان فنظموا عمليات جهادية بحرية استهدفت سواحل إسبانيا، بدافع الانتقام والتي أثرت على

(1) الويشي، المرجع السابق، ص 65.

(2) المدني، حرب الثلاثمائة عام، مرجع سابق ص 79.

(2) خليفة محمد الدويبي، الأوضاع العسكرية في طرابلس الغرب قبيل الاحتلال الإيطالي 1881-1911م، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1999م، ص 17.

انتعاش اقتصادهم، فلم يستطع سكان الموانئ الإسبانية قيامهم بأعمال التبادل التجاري مع الخارج، أو حتى زراعة أراضيهم في الداخل⁽¹⁾.

ومن الطبيعي أن يحدث خلل في نظام عملية جباية الضرائب وتوقف دفعها لخزينة دولتهم، الأمر الذي دفع السلطات الإسبانية للتدخل وحل هذه المشاكل الاقتصادية، ورأت أن حلها يكمن باحتلال المغرب العربي، واستغلال ثرواته اللامحدودة التي كانت تسيل لعاب الملوك والأمراء الأسبانيين أولاً، وللد من نشاط الموانئ والمراكز التجارية المنافسة لها على سواحل البحر المتوسط لكي تضمن لنفسها الاستقرار الاقتصادي ثانياً.

اجتمعت كل المسببات الدينية والسياسية والاقتصادية، وكونت دافعاً قوياً لتوجيه أسطولها للهجوم على المرسى الكبير سنة 1505م. وقبل الشروع في عملية الغزو كلفت الملكة ايزابيلا اثنين من الجواسيس وهما ليزكانو ولورنزو دي زافرا بمهمة استطلاعية سرية في بلاد المغرب وأقام هذا الأخير لمدة سنة في مملكة تلمسان، وهو متتكر في زي تاجر مغربي⁽²⁾.

وقدم كلاهما معلومات عن الوضع، وجاء في تقريرهما أن المنطقة تعاني من اضطرابات سياسية لدرجة يمكن الاستيلاء عليها بكل سهولة ويسر⁽³⁾.

(1) عقيل لطف الله نمير، تاريخ الجزائر الحديث، منشورات كلية الآداب جامعة دمشق، 2007. 2008م، ص36.

(2) صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514 - 1830، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2007م، ص26.

(3) نمير، مرجع سابق، ص37.

(*) معاهدة تورديسيلاس: عقدت هذه المعاهدة بين إسبانيا والبرتغال سنة 1494م نتيجة لتعارض مصالحهما، وقد عرفت في التاريخ بهذا الاسم. نصت هذه المعاهدة على تقسيم العالم إلى شطرين حيث ابتدعوا خط طول وهمي يمر بجزر أزور في المحيط الأطلسي، وكان نصيب البرتغال المناطق الواقعة غرب هذا الخط، وتحصلت إسبانيا على المناطق الواقعة شرق هذا الخط.

هذا من جهة ومن جهة أخرى أنهى الأسبان خلافهم مع البرتغال، بخصوص مدينة مليلة بموجب معاهدة تورديسيلاس^(*) 1494م، التي عقدت برعاية البابا فكانت تقضي أن يكون ما هو واقع شرق خط مليلة - على اعتباره الحد الفاصل بين المجالين . ملكاً لإسبانيا تفعل ما تشاء في مجالها الممتد من مليلة إلى طرابلس الغرب، في حين اقتصر المجال البرتغالي على سواحل المغرب الأقصى⁽¹⁾.

وعقب وفاة الملكة ايزبيلا ملكة قشتالة انطلق داعي المسيحية الأول الكريدينال خمينس (Ximenes) منفذاً لوصيتها، واختار ميناء المرسى الكبير لنزول أولى الحملات الإسبانية، الذي مثل له اختياره لبعدين: الأول الرد على الغارة الأخيرة التي قام بها بحارة المرسى الكبير على شاطئ بلنسيا الإسباني⁽²⁾، أما الثاني موقعه الإستراتيجي المهم في سهولة الوثب للمناطق الأخرى، وخاصةً وهران التي لا تبعد عنه إلا ثمانية كيلو مترات فقط، كما أنه أكثر ضماناً لراحة السفن إذ يصفه الحسن بن الوزان فيقول: «إذ تستطيع مئة سفينة ومركب أن ترسو فيه بكل راحة في مأمن من كل عاصفة أو أية زوبعة»⁽³⁾.

وفي سنة 1505م أقلعت الحملة من مالقة باتجاه الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط، وعين دون رايموند قرطبة قائداً عاماً للحملة التي قوامها خمسة آلاف رجل، وقد اعترضت الحملة رياح معاكسة فتأخر وصولها، لذلك غادر المقاتلون الأهالي الذين جاؤوا للدفاع عن

(1) دلندة الأرقش وآخرون، المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، مركز النشر الجامعي، تونس، 2003م، ص 10 .

(2) صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر - الجزائر، تونس، المغرب الأقصى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط: 1993، 6م، ص16.

(3) ابن الوزان الزياني، وصف أفريقيا، ت: عبد الرحمن حميدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005م، ص400.

المرسى فتفرقوا ورجع أكثرهم إلى دياره بعد أن ملوا الانتظار، وهكذا لم يجد الأسبان سوى عدد قليل من المقاتلين لمواجهتهم⁽¹⁾.

واستمرت المعركة غير المتكافئة، ونتيجةً لقلّة العدد والأسلحة التقليدية لأهالي هذه المنطقة وعدم وجود الحصون المضادة للأسلحة النارية الإسبانية، إضافةً إلى خبرة الأسبان واستعداداتهم القوية، وحسن التخطيط من قبل قياداتهم تمكن الأسبان من تحقيق النصر، ودخلوا المدينة وقتلوا معظم سكانها⁽²⁾.

وبمجرد تمركز الأسبان بالمرسى الكبير اتخذوا إجراءات عاجلة لتنظيم إدارتها فتم تعيين القائد فرديناندر حاكماً على المدينة وتحويل مسجدّها إلى كنيسة، كما تم افتتاح سوق تجارية بالقرب من المدينة، لتزويد حاميتها بما تحتاجه من المواد الغذائية⁽³⁾.

كانت إسبانيا تسير لتنفيذ مخططها الاستعماري بخطى ثابتة ومرسومة على سواحل المغرب العربي، فما كادت تثبت أقدامها في المرسى الكبير حتى وجهت أنظارها إلى وهران، فانطلقت حملتهم من مرسى قرطاجة الإسبانية المؤلفة من خمسة عشر ألف جندي يقودهم بدرو نافارا (Pedro Novaro) إلى المرسى الكبير وانضمت إليهم قوات الحملة الإسبانية هناك⁽⁴⁾.

اتجه الجميع صوب وهران وبادروها بالقصف المكثف حتى سقطت المدينة، ولا أمل لأهلها في المقاومة خاصة بعدما نظم الخائن اليهودي أسطورا عملية فتح باب المدينة

(1) عباد، مرجع سابق، ص 28.

(2) عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في شمال أفريقيا، ت: محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1988م، ص 17.

(3) المدني، حرب الثلاثمائة عام، مرجع سابق، ص 91.

(4) عباد، مرجع سابق، ص 30.

ليتمكن الأسبان من دخولها وقتل أربعة آلاف من سكانها وأسر ما يزيد عن ثمانية آلاف آخرين⁽¹⁾.

وبأشر على الفور الكاردينال أخمينس بتحويل المسجدين الرئيسيين إلى كنيستين وأنشأ ديرين لتتصير المسلمين كما أنشأ مستشفى لعلاج جراحهم⁽²⁾.

وبنفس الحماس والجهد بذل الكاردينال أخمينس حملة أخرى موجهة ضد بجاية مكونة من عشرة آلاف جندي على متن عشرين سفينة، بقيادة بيدرو نافارا سنة 1510م، وعلى الرغم من استبسال أهلها في الدفاع عنها إلا أنها سقطت هي الأخرى، وذبح فيها أربعة آلاف ومئة مسلم، وانتهكت المدينة تخريباً وسلماً⁽³⁾.

احتقل الأسبان بالنصر على بجاية، وعمت الفرحة أرجاء البلاد، وأقيمت في كنائس البلاد المسيحية كافة صلاة الشكر للرب على منحه النصر لجيوشهم⁽⁴⁾. وعلى العكس من ذلك بعد هذه النكبة ما حدث في مدن بلاد المغرب الذي سادها نوع من الهلع في القلوب، وكما فعل ملك تلمسان بعد نكبة وهران، فعل السلطان الحفصي أبو عبد الله بتونس بعد نكسة بجاية باعترافه بنوع من التبعية لإسبانيا⁽⁵⁾ لضمان بقائه وحياة أتباعه.

ولم تمض أيام كثيرة حتى غادر مدينة الجزائر وفد يمثل أعيانها يرأسه شيخها سالم التومي متجهاً إلى إسبانيا، ليعلنوا استسلام مدينتهم والتزامها بدفع الضريبة، وبإطلاق سراح من بأيديهم من أسرى المسيحيين⁽⁶⁾، وذلك مقابل ألا يتعرض الأسبان لمدينتهم.

(1) سجلات الديوان الهمايوني، مهمة دفترى رقم 11، ص 24.

(2) عباد، المرجع السابق، ص 30.

(3) المدني، المرجع السابق، ص 111.

(4) المدني، حرب الثلاثمائة عام، ص 114.

(5) ميرفت سرداح، الجهاد العثماني لإتقاذ المغرب العربي من الهجمة الصليبية الأسبانية 1518.

1578م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس، 2000م، ص 40.

(6) سجلات الديوان الهمايوني، كدان كلان دفترى (صادر وارد رقم 17).

وعلى درب مدينة الجزائر سارت مدن دلس وتتس ومستغانم باعترافاتها بالتبعية لإسبانيا⁽¹⁾، وبذلك تمكنت إسبانيا من السيطرة على الساحل الشمالي للمغرب العربي، ولم تقف عند هذا الحد، بل تابعت هجماتها على الساحل الشرقي فكانت طرابلس الغرب الخطوة التالية بعد بجاية وما حولها من مدن ساحلية، فقد جهزت لها حملة عسكرية ضخمة مؤلفة من ثمانية ألف مقاتل، يقودهم بدرو نافارا الذي توجه في بادئ الأمر إلى فافينيانا التابعة لإيطاليا؛ لينتظر السفن الحربية القادمة إليه من نابولي وصقلية لتشاركه هذه الحملة، وبعد عودته من فافينيانا ووصوله جزيرة غوزو التابعة لمالطا انضم لأسطوله أيضاً بعض المالطيين بصفتهم مرشدين وعدد من السفن المالطية المسلحة تسليحاً جيداً، وبهذا بلغ عدد سفن هذه الحملة مئة وعشرين قطعة بحرية من كل الأحجام والأنواع⁽²⁾.

وبعد خمسة أيام من موعد إقلاعها من مالطا، وصلت ميناء طرابلس الغرب وأخذت المدافع تقذف حممها الشديدة، التي مكنتهم من اختراق أسوار المدينة على الرغم من تدافع أهلها للدفاع عنها، إلا أنها سقطت هي الأخرى بأيدي الأسبان الذين قتلوا ستة آلاف شهيد⁽³⁾ من أبنائها وأسروا شيخها عبد الله بن شرف وعمدوا إلى نهبها⁽⁴⁾ وكانت رغبتهم في الانتقام تدفعهم إلى ارتكاب هذه الأعمال الوحشية من قتل، ونصب، وتخريب ما كان سبق أن ارتكبه في غيرها.

من طرابلس الغرب بدأ الأسبان استعداداتهم للتوجه إلى جربة، فصار إليها القائد بدرو نافارا باثني عشر ألف جندي سنة 1510م كما التحقت به من جربة هناك حامية أخرى تتألف من ثلاثة آلاف مقاتل على متن سبع عشرة سفينة إسبانية⁽⁵⁾ وما حدث لم يكن متوقعاً

(1) الجمل، مرجع سابق، ص 82.

(2) إتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ت: خليفة محمد التليسي، توزيع الدار العربية للكتاب، طرابلس ليبيا 1991م، ص 169-170.

(3) المدني، حرب الثلاثمائة عام، مرجع سابق، ص 131.

(4) عامر، فارس، مرجع سابق، ص 150.

(5) روسي، مرجع سابق، ص 178.

لهم بعد وصولهم إليها فصدموهم بمقاومة عنيفة إذ دارت الدائرة عليهم فلم يستطيعوا الثبات أمام أبطال جربة وشيخهم يحي السيموني الذين أحسنوا التنظيم والتخطيط والقيادة .

ونتيجةً للهزيمة النكراء التي لحقت ببدر و نافارا رفقة جيشه الضخم اضطر للانسحاب والعودة إلى مركزهم بطرابلس بعد أن أقاموا بها سبعة أيام⁽¹⁾.

كما فشل الأسبان في احتلال جزيرة قرقة الواقعة على الساحل الشرقي التونسي عندما هاجمها بدر و نافارا بخمسمئة من صفوة الجيش، إلا أنه فشل في اقتحامها نتيجةً لاستعداد أهلها، وتنظيمهم للصفوف فأهكت قواته عن آخرها، وعاد منهزماً سنة 1511م إلى بجاية⁽²⁾، وبذلك انحصر نفوذ إسبانيا في المناطق التي احتلوها سابقاً، كما فشل مخطط فرديناند من أجل الهجوم على مصر وبالتالي بيت المقدس كخطوة ثانية، بعد احتلال طرابلس الغرب التي توقفت عندها آخر مرحلة للمد الإسباني.

عمل الإسبان على إدارة المناطق التي خضعت لهم من مليلة غرباً إلى طرابلس الغرب شرقاً بنظام إداري تمثل في القائد العسكري وهو المسؤول مباشرة أمام الملك الإسباني أو الإمبراطور ويسانده كل من:

- القاضي وهو أشبه بمعاون الحاكم.

- المستشارون: ويقدمون المشورة في المشكلات المدنية والعسكرية والاقتصادية⁽³⁾.

- الموظف المالي: وهو مسؤول مسؤولية تامة عن المالية ومراجعتها.

والى جانب هؤلاء المسؤولين الإداريين، كان لكل مستعمرة أسطولها وجنودها الذين كانوا كموظفي إسبانيا يتقاضون مرتباتهم في أغلب الأحيان مواداً عينية بأسعار دون سعر

(1) محمد أبو رأس الجري، مؤنس الأحبة في أخبار جربة، حققه ومهد له علي المرزوقي، قدم له حسن عبد الوهاب، تونس المطبعة الرسمية، 1960م، ص108.

(2) المدني، المرجع السابق، ص 132.

(3) سرداح، الجهاد العثماني لإنقاذ المغرب العربي، مرجع سابق، ص 45.

السوق، وكان عليهم أن يتولوا مبادلتها مع الأهالي من أجل الحصول على النقود⁽¹⁾ التي كانت تتداول في بلاد المغرب آنذاك، ومن المؤكد أن العملة الإسبانية كانت الأكثر انتشاراً هناك من العملات الأوروبية الأخرى⁽²⁾، ويفسر ذلك إلى ما جلبه الأندلسيون من المسلمين واليهود كميات كبيرة من العملة الإسبانية إلى سواحل بلاد المغرب، كما كانت القوات الإسبانية تستبدل تلك العملات مقابل المواد الغذائية التي تحصل عليها من الأهالي.

واتخذ الأسبان مدينة وهران مركز النشاط الإسباني في المغرب العربي، ومقراً للحاكم العام الكونت ألكوديت المحرك والمنفذ للسياسة الإسبانية في المنطقة⁽³⁾. ووصل عدد أفراد الحامية الأسبان المقيمين بها إلى ألف وخمسمئة رجل من مشاة وفرسان⁽⁴⁾، ويضاف إلى هؤلاء الجنود المعروفين باسم المغطيس^(*)، وهم فرق عسكرية من الأهالي تتكون أساساً من الفرسان شكلها الأسبان منذ احتلالهم للمرسى الكبير، ووهران وقد ظل هؤلاء الجنود أوفياء للإسبان⁽⁵⁾.

اهتم الإسبان بتحسين المناطق التي احتلوها من أجل تعزيز قواتهم واتخاذها مراكز للانطلاق لتنفيذ حملاتهم، وكان أشدها وأضخمها تحصين المرسى الكبير ووهران فنصبوا في المرسى الكبير سبعة وعشرين مدفعاً من البرونز ومدافع أخرى من الحديد، وفي وهران نصبوا ثمانية مدافع من البرونز وواحداً وثلاثين مدفعاً من الحديد وأسوار منيعة، كما شيّدوا العديد من الأبراج كان أحسنها برج روز الكزار (البرج الأحمر) وهو من الأبراج القديمة، إلا

(1) المدني، مرجع سابق، ص 125.

(2) عباد، مرجع سابق، ص 345.

(3) الويشي، مرجع سابق، ص 25.

(4) عباد، المرجع السابق، ص 305. 306.

(*) المغطيس: كلمة إسبانية mogatezes وتعني هذه الكلمة المعتمدين.

(5) عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، مرجع سابق، ص 306.

أن الأسبان أعادوا بناءه ووضعوا فيه اثني عشر مدفعاً من البرونز وسبع عشر مدفعاً من الحديد وراجمتين⁽¹⁾.

كما أنشؤوا على إحدى الجزر المقابلة لمدينة الجزائر حصن البنيون (Penon)، ووضعوا فيه مئتي جندي، وشحنوه بالسلاح⁽²⁾، واستطاعوا من خلاله ترقب حركة أهالي المنطقة ورصد السفن القادمة إليها⁽³⁾.

وبنفس الاهتمام لتحسين طرابلس الغرب بنوا حولها أسواراً جديدة بلا أبراج أحيطت بخنادق ضيقة⁽⁴⁾، كما بذلوا جهوداً معمارية لإعادة بناء القلعة ودعموها بعدة حصون أهمها: حصن القديسة باربا - القديس يعقوب - القديس يوحنا - القديس أنطوان⁽⁵⁾. أما في بجاية فقد قام الأسبان بتخريب المدينة ومعالمها من أجل إقامة أسوار جديدة وإنشاء بجاية إسبانية صغيرة⁽⁶⁾.

وقد رابطت في هذه القلاع حاميات إسبانية، ومنعوا المسلمين من دخولها، وتأمّنت مراقبة المداخل القريبة لها، وطرق مواصلاتها بمساعدة الأهالي رعايا الأسبان، وأكثرهم من القبائل البدوية التي ترتبط بمعاهدات، أو اتفاقيات تعرف بتصريحات الأمان وهي تجدد كل سنة⁽⁷⁾. ورغم ما وفرته هذه القبائل المتعاونة إلا أن هذه المستعمرات كانت تواجهها عدة

(1) المرجع السابق، ص 304 - 305.

(2) الجمل، مرجع سابق، ص 82.

(3) سرداح، مرجع سابق، ص 46.

(4) خليفة محمد التليسي، حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ط: 2، 1985م، ص 72.

(5) شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ت: محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط: 3، 1994م، ص 78.

(6) سرداح، المرجع السابق، ص 46.

(7) عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، مرجع سابق، ص 310.

(*) وهي عبارة عن كمية من القمح يحدد مقدارها الحاكم بعدما يستدعي الشخصيات الكبيرة من رؤساء ومشايخ وغيرهم في كل شهر يونيو من كل سنة، ويقدر هؤلاء مردودية المحاصيل في مختلف

مشكلات أهمها عداة السكان المسلمين المستمر لها، وخاصةً مسلمي إسبانيا الذين نزحوا من شبه الجزيرة إلى هذه المناطق. وعلى الصعيد الاقتصادي احتكر الأسبان التجارة في المناطق التي احتلوها، وفرضوا على مسلميها أداء ضريبة سميت الرومية^(*).

وهكذا بدا للأسبان أنهم أقاموا سيادتهم بهذه الأعمال على هذه المناطق. ولكن لسوء حظهم تزامنت فترة وجودهم في سواحل المغرب مع انتقال القراصنة من المشرق إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وكان عروج من أكبر هؤلاء القراصنة، ومن بعده أخوه خير الدين الذي ربط معظم مناطق المغرب بالإمبراطورية العثمانية التي حدثت من توسعاتهم وأقلقت وجودهم وهددت مراكزهم بل وأنهت وجودها من المغرب العربي.

وهكذا انتهت المرحلة الأولى من مراحل الصراع التي كانت عبارة عن هجومات للإسبانيين على هذه المناطق، واستمرت حتى سنة 1518م حين جاء الإخوان عروج وخير الدين وبدأا يقومان بالغزو والرد على تلك الهجمات ومحاولة إنقاذ هذه المدن الإسلامية إلى أن مد هذا الأخير يده للسلطان العثماني سليم الأول (1512. 1520م) وألحق الجزائر بالدولة العثمانية⁽¹⁾ وغدت الولاية الأولى في مناطق المغرب العربي.

وابتداءً من هذا الحدث الذي يكتسب أهمية عظيمة بدأ الصراع يأخذ صبغة أخرى وأسلوباً آخر في القتال، فكان الهجوم الأسباني على مدينة الجزائر سنة 1519م فقتل وأسر عدد كبير منهم وتحطم أسطولهم⁽²⁾ وخابت آمالهم وآمال العالم المسيحي على حد سواء.

وتلتها معركة تونس سنة 1534م حيث استطاع الأسطول الإسباني احتلالها، وقتل عدد كبير من أهلها، غير أن آمالهم خابت أيضاً هذه المرة في القضاء على الغزو البحري⁽¹⁾.

المناطق وبناءً على هذا التقرير يحدد الحاكم مقدار ضريبة الرومية. للمزيد انظر: المدني، مرجع سابق، ص 417. 418.

(1) الجمل، مرجع سابق، ص 95.

(2) المدني، حرب الثلاثمائة عام، مرجع سابق، ص 191.

وتميزت سنة 1551م بتوسع النفوذ العثماني في بلاد المغرب، فأدخلت طرابلس الغرب إلى حظيرتها وغدت إيالة عثمانية⁽²⁾.

وجاءت سنة 1571م التي وقعت فيها معركة لبانتو البحرية حيث هُزم فيها العثمانيون، وسارعت إسبانيا للاستيلاء على تونس من جديد، وتسنى لها ذلك في معركة تونس سنة 1573م، غير أن الدولة العثمانية لم تسكت على هذا الاحتلال فتحرّكت بسرعة لاستردادها وبالفعل تمكنت من إدخالها الدائرة العثمانية سنة 1574م⁽³⁾.

ومن هذا التاريخ تخلت إسبانيا نهائياً عن أطماعها في تونس لنتهي مراحل الصراع العربي الإسباني في القرن السادس عشر، كما أن تاريخ هذه السنة يمثل إكمال حلقة النفوذ العثماني على أقطار المغرب العربي الثلاث (الجزائر - ليبيا - تونس) وغدت إيالات عثمانية أطلقوا عليها أوجاق^(*) الغرب وظلت تعرف بهذا الاسم طوال خضوعها للسيطرة العثمانية⁽⁴⁾.

(¹) ياسين، مرجع سابق، ص 249.

(²) محمود علي عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر، منشورات كلية الآداب - دمشق، 2005-2006م، ص 20.

(³) عباد، مرجع سابق، ص 96.

(*) أوجاق: مصطلح أطلق على فرق الإنكشارية العثمانية المتمركزة في مناطق المغرب العربي، وكلمة أوجاق تعني الموقد. انظر: محمود علي عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، دار الرحاب للنشر والتوزيع، دمشق، 2001م، ص 275.

(⁴) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عامر، مرجع سابق، ص 15.

الفصل الأول

السيطرة العثمانية

على مناطق المغرب العربي

أولاً : السيطرة العثمانية على إيالة الجزائر .

آ - مظاهر الحياة العامة في إيالة الجزائر 1518-1711م.

1- النظام الإداري العثماني في إيالة الجزائر:

آ - عهد البكريكي (أمير الأمراء) 1518-1587م .

ب - عهد الباشوات 1587-1659م .

جـ - عهد الأغوات 1659-1672م .

د - عهد الدايات 1672-1830م .

2- اقتصاد إيالة الجزائر ومواردها المالية .

3- مظاهر الحياة الثقافية في إيالة الجزائر .

ثانياً : السيطرة العثمانية على إيالة طرابلس الغرب:

آ - مظاهر الحياة العامة في إيالة طرابلس الغرب 1551-1711م.

1 - النظام الإداري في إيالة طرابلس الغرب :

2 - اقتصاد إيالة طرابلس الغرب ومواردها المالية .

3 - مظاهر الحياة الثقافية في إيالة طرابلس .

ثالثاً : السيطرة العثمانية على إيالة تونس:

1 - النظام الإداري في إيالة تونس :

2 - اقتصاد إيالة تونس ومواردها المالية .

3 - مظاهر الحياة الثقافية في إيالة تونس .

- استنتاج الفصل الأول .

أولاً - السيطرة العثمانية على إيالة الجزائر:

استشهد عروج وجميع جنوده الأقوياء الذين كانوا معه في حصار مدينة تلمسان سنة 1518م⁽¹⁾، وكان خير الدين بربروسا (Barberousse) الذي اكتسب شهرة فائقة لمهارته وشجاعته نائباً لأخيه عروج في الجزائر، الذي اعتقد أن الأسباب ومن معهم من الأهالي سيواصلون زحفهم إلى الجزائر، ولم يكن لديه ما يكفي من إمكانيات لمواجهةهم، الأمر الذي دفعه ومن دون تردد إلى الاستنجاد بالإمبراطورية العثمانية، وهي وقتذاك أكبر قوة إسلامية لها من ماضيها القريب في خدمة الإسلام، فأرسل خير الدين وفداً بعد أن أبهر شيوخ الجزائر وأعيانها باقتراحه إلى السلطان سليم الأول (1512 - 1520م) برئاسة الحاج حسين الكاهية أحد عبيد المقام العالي ورفيقه الوفي، محملاً بالهدايا⁽²⁾ يعرض عليه خضوعه ومطالبته بربط مصير الجزائر السياسي بالدولة العثمانية، وتقديم المساعدة العسكرية، فقد سر السلطان العثماني سليم الأول بإعلان خير الدين بتبعيته له، وعلى الفور أرسل إلى خير الدين فرماناً سلطانياً منحه لقب باشا وعينه حاكماً عثمانياً على الجزائر برتبة (بكلريكي)، كما لبي السلطان سليم الأول استغاثة خير الدين لحاجته للرجال والسلاح ومن ثم أرسل إليه ألفي جندي بمدافعهم وذخائرهم وعدداً آخر من المتطوعين⁽³⁾.

ولم تكن تلك المساعدات العسكرية هي آخر ما يقدمه السلطان سليم الأول من عون لخير الدين، وإنما واصل بتوجيه الرسائل إلى حكام بقية المناطق الأفريقية يحذروهم من

(1) عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة محمود عامر، بيروت، دار النهضة 1989م، ص 80-81.

(2) كان خير الدين قد أرسل مصلح الدين كممثلاً له لمقابلة السلطان سليم الأول في القاهرة في 3 شباط 1517م، وبعد استشهاد أخيه عروج، أرسل وفداً إلى استانبول يعرض عليه ثانية مراسيم العبودية. للمزيد: غزوات خير الدين، مخطوط، مكتبة السليمانية.

(3) سجلات الديوان الهمايوني، فرمان رقم (2) لسنة 1518/924.

مضايقه واليه خير الدين، ويدعوهم للانضمام إلى أحضان الإمبراطورية العثمانية، كما حذرهم من التعامل مع الأسباب الذين باسروا سياسة الانتقام تجاه المسلمين⁽¹⁾.

وهكذا ومن دون تخطيط رسمي مسبق اتسعت أرجاء الإمبراطورية العثمانية إلى غربي المتوسط، وأصبح العثمانيون مباشرة في مواجهة الأسباب يزاحمونهم في بحرهم وينتزعون منهم سواحل المغرب العربي بداية بالجزائر. على الرغم من محاولات الأسباب المستمرة لزعزعة استقرارهم في الجزائر عن طريق مساندة المنافسين لخير الدين، لكن محاولاتهم باءت بالفشل. ناهيك عن المؤامرات الداخلية التي دبرت ضد خير الدين والعثمانيين وبخاصة عندما سعى سلطان تونس إلى عقد محالفة مع سلطان تلمسان ضد خير الدين والوجود العثماني في الجزائر، غير أن هذا التحالف لم يستمر طويلاً ولم يحقق الأمان، حيث استطاع البطل خير الدين هزيمة منافسيه وتوطيد نفوذه في غرب الجزائر، وما أن تمكن من تأمين الجهة الغربية حتى ظهرت المشكلات في الجهة الشرقية حيث حاول الحفصيون إثارة المشكلات ضده ولكنه تمكن من تأديبهم.

وبعد أن أنهى خير الدين هذه المشكلات اتجهت أنظاره إلى الحامية العسكرية المتمركزة بحصن بينون في الجزائر، فأصدر أمر اقتحامها سنة 1529م⁽²⁾ وحقق انتصاراً خلص به الإيالات من الخطر الإسباني، وفتح به عهداً جديداً برزت فيه ملامح الجزائر الحديثة وبرز أيضاً أوجاق الجزائر وذلك بعد تأسيسه ميناء خاص بسفن بحارته⁽³⁾.

(1) عامر، فارس، مرجع سابق، ص 147.

(2) إن إزالة قلعة بنون، منح سفن المجاهدين الأمن، لأن خير الدين نقل حجارة القلعة إلى إنشاء ميناء لسفن بحارته، للمزيد (مخطوط الغزوات لخير الدين)، مصدر سابق.

(3) إثر تحطم القلعة غدا خير الدين سيد الجزائر، جلال توفيق قره صابان (المغرب العربي وخير الدين) استانبول 1967م، ص 150.

آ - مظاهر الحياة العامة في إيالة الجزائر 1518-1711م:

1- النظام الإداري العثماني في إيالة الجزائر:

أسس العثمانيون في إيالة الجزائر نظاماً إدارياً متميزاً بالنسبة للنظم الإدارية التي شهدتها المنطقة بالسابق، والذي يعد جزءاً أساسياً من أنظمة الحكم العثماني التي أديرت بها الولايات العثمانية المختلفة، ومرت الإدارة العثمانية في إيالة الجزائر بعدة مراحل إدارية هي:

أ - عهد البكربكي (أمير الأمراء) 1518-1587م:

كان خير الدين أول من عينته الدولة العثمانية ممثلاً لها في الجزائر الوليدة كان ذلك سنة 1518م، فأظهر كفاءته ومقدرته في الميدان السياسي والعسكري وتمكن من تنظيم شؤونها الداخلية، فنظم موارد الخزينة من ضرائب، كما أنشأ مجلسين استشاريين هما مجلس الشورى والديوان وهذا الأخير كان ينعقد ثلاث مرات في الأسبوع⁽¹⁾.

وفي أواخر سنة 1534م توجه خير الدين إلى استانبول للالتحاق بالأسطول العثماني ليتولى قيادته بعد أن عين خادمه الأول حسن أغا وكيلاً له على الجزائر⁽²⁾، وقد عمل حسن أغا على تعزيز نفوذه جنوباً بعد أن نجح في إخضاع القبائل هناك، وعمل على توطيد الأمن فسارع الأهالي إلى الالتفاف حوله^(*).

والى جانب ذلك فقد قام بتجهيز أسطول مؤلف من ثلاثين سفينة وياشر بقصف السواحل الإسبانية⁽³⁾، واستطاع أن يتوغل في جهات الساحل الأسباني الجنوبي وغنم العديد من المتاع والأسرى بفضل شجاعته وجراته. كل ذلك دفع الإمبراطور شارل

(1) جودت باشا أحمد، تاريخ جودت، استانبول 1309هـ ج3 ص 358.

(2) التر، مصدر سابق، ص 154 (الفرمان السلطاني وجه إلى خير الدين سنة 1533م) للمزيد انظر الملحق رقم (1).

(*) لقد وصفت التقارير الإسبانية حالة الجزائر آنذاك بالتوتر والاضطراب.

(3) أرشيف رئاسة الوزراء، مهمة دفترى، رقم 14 ص 11.

الخامس(شارلكان) إلى محاولة الاستيلاء على الجزائر، فقد أعد سنة 1541م حملة كبيرة لذلك، وما أن علم حسن أغا باستعدادات الحملة حتى قام بدعم تحصينات المدينة وأخذ يستعد لمواجهة هذه الحملة حتى تمكن من هزيمتهم، مما دفع السلطان العثماني سليمان القانوني إلى إرسال رسالة خطية إلى حسن أغا وقفطاناً فخماً ولقب باشا⁽¹⁾.

وبعد وفاة حسن أغا في سنة 1544م تولى حكم الجزائر حسن بن خير الدين بربروسا الذي سار على نهج سابقه في توجيه جهودهم لتحسين إيالة الجزائر، ثم هاجم تلمسان ومستغانم فاستولى عليهما. كما هاجم الأسبان في وهران لكنه لم ينجح في الاستيلاء عليها⁽²⁾. كما عمل على تحسين الإيالة وتنظيم شؤونها الإدارية والعسكرية وركز اهتمامه على تدريب الجيش وإعداده وإنشاء الثكنات العسكرية وتأمين الخدمات الصحية وبناء المستشفيات والحمامات العامة، ثم اهتم بعد ذلك بمسألة استعادة تلمسان ومستغانم وتسنى له ذلك، كما أخذ يستعد للاستيلاء على وهران إلا أن وصول خبر وفاة والده خير الدين حال دون ذلك، لأنه سارع بالحضور فوراً إلى استانبول تنفيذاً لما جاء في فرمان سنة 1551م⁽³⁾.

وقد ترك على الجزائر خليفته سعيد صفا الذي تولى المسؤولية إلى أواخر سنة 1552م، وظل حاكماً لإيالات الجزائر إلى أن جاء صالح ريس وهو قرصان عربي مشهور من مدينة الإسكندرية⁽⁴⁾، وعين سنة 1552م بكلركي لإيالات الجزائر فعمل على تأمينها من الداخل ونجح في إنهاء حكم الأسرة الزيانية في تلمسان وأصبحت جزءاً من إيالة الجزائر العثمانية سنة 1554م، وكذلك الأمر بالنسبة لبجاية سنة 1555م، كما كان ينوي التوجه إلى

(1) هامر، تحفة الكبار، (د. ت) ص 157.

(2) سجلات الديوان الهمايوني، فرمان رقم (41) تاريخ 984هـ/1541م.

(3) Ismail Hakki Uzun çarşıli cezayir o çağı, İstanbul 1969, s. 75.

(4) غرامونت، التاريخ العثماني، استانبول 1932، ص 257.

وهران لكن الموت لم يمهل طويلاً إثر انتشار وباء الطاعون فتوفي به سنة 1556م قبل أن يحقق ما وطد العزم على تنفيذه⁽¹⁾.

وبعد وفاته شهدت الجزائر أوضاعاً مضطربة استغلها السعديون للاستيلاء على تلمسان، غير أنهم فشلوا في ذلك. ومن أجل إعادة الأمن والاستقرار عين حسن بن خير الدين بكركي للمرة الثانية سنة 1557م وباشر فور وصوله مطاردة جيش السعديين المحاصر لتلمسان، كما هزم الأسبان في مستغانم ومزغان سنة 1558م⁽²⁾.

وبعد تتحية حسن باشا عين مكانه محمد باشا بن صالح الذي عمل على تحصين مدينة الجزائر من الناحية الغربية وتمكن من إخماد ثورة قسنطينة وكانت سبباً في عزله نتيجةً للمذابح التي ارتكبها بحق أهلها⁽³⁾.

وقد عين قلع علي في منصبه والذي يعدّ من خيرة الأمراء الذين تولوا إمارة الجزائر، فقد وجه اهتمامه إلى الأسطول أكثر من غيره، فعمل على تطبيق القانون وفرض النظام، كما قام بترميم القلاع والحصون المهتمة⁽⁴⁾، وتمكن من استعادة تونس إلى فلك السياسة العثمانية ووضع بها حامية تتألف من ثلاثة آلاف جندي تركي، ووضع القائد رمضان عليها للقيادة والإشراف⁽⁵⁾.

وبوفاة قلع علي سنة 1587م انتهى عهد إمارة الأمراء، وتخلت الدولة العثمانية عن هذا المنصب لندرة رجال على قدر كبير من المسؤولية فضلاً عن كثرة تعداد مراكز القرار بالنسبة لإدارة الأوجاق، ولعل أيضاً هذا المنصب جاء مع ركود التوسعات حيث أصبحت إيالتي الجزائر وطرابلس وتونس تتبع السلطان مباشرة.

(1) Celel sapan, Cezayir durmn, Istanbul 1981. s. 49.

(2) عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1541-1830م، مرجع سابق، ص 26.

(3) عقيل لطف نمير، تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص 87.

(4) التر، مصدر سابق، ص 255.

(5) جودت، مصدر سابق، ج2، ص 180.

وخلاصة القول فإن فترة عهد البكريكي (بك البكوات) 1518-1587م في إيالة الجزائر تميزت بالهدوء، وفيها حققت الدولة العثمانية أقصى توسعاتها كما تميزت بمتانة الروابط بين الولاية وأوجاقها، رغم ما امتاز به هؤلاء الولاة في عهد البيكركي من قوة الشخصية، وقدراتٍ حربية بارزة فكانوا أحسن المدافعين عن النفوذ العثماني وأحسن ممثلين للسلطان. ولكن اتخاذهم لبعض القرارات الخاصة بشؤون إيالة الجزائر وكأنها مستقلة تماماً عن إدارة الأستانة كان سبباً في تزايد مخاوف السلطات العثمانية من محاولة الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية؛ غير أن وفاة آخر رجال البحر (قلج علي) سهل على الدولة العثمانية إسناد الولاية إلى باشوات ترسلهم من قبلها⁽¹⁾.

ب - عهد الباشوات 1587-1659م:

بعدما ألغت الدولة العثمانية منصب البكريكي (أمير الأمراء) لجأت إلى تعيين باشوات يتم إرسالهم من إستانبول يديرون الإيالة لمدة ثلاث سنوات. ويكون الباشا وكيلاً للسلطان في الإيالة وله مطلق التصرف، وذلك لبعد الإيالات عن العاصمة إستانبول⁽²⁾. وكان أول الباشوات الحاكمين في إيالة الجزائر هو دالي^(*) أحمد الذي شهد عهده العديد من الحملات البحرية، حيث ضرب شواطئ نابولي وصقلية وكورسيكا وإسبانيا وكان ذلك في سنة 1588م، غير أن عهده لم يدم طويلاً فقتل سنة 1589م في طرابلس الغرب عندما أرسله السلطان للقضاء على الاضطرابات التي نشبت هناك⁽³⁾.

(1) أرشيف رئاسة الوزراء، مجلس والا، رقم 87، ص 14.

(2) سجلات الديوان الهمايوني، فرمان 97 لسنة 996 لسنة 1578م.

(*) (دالي أحمد، تعني أحمد المجنون).

(3) سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، الرياض 2000م، ص 115،

وقد خلفه خضر باشا الذي دام عهده ثلاث سنوات تميزت بتوسع عمليات القرصنة، الأمر الذي أدى إلى ازدهار إيالة الجزائر بسبب الغنائم والأموال الكثيرة، كما تميزت تلك السنوات بتمرد أمير بني عباس على السلطة العثمانية⁽¹⁾.

وفي سنة 1592م عين شعبان باشا والياً على الإيالة واستمر حتى سنة 1595م ثم أعيد خضر باشا في هذه السنة والياً على الجزائر للمرة الثانية؛ لكي يحد من سلطة الإنكشارية⁽²⁾ ولكنه فشل في هذه المهمة، كما فشل مصطفى باشا الذي عين بعده، وكذلك الأمر بالنسبة لحسن بوريشة الذي عين سنة 1599م. واستمر توالي الباشوات من بعده، كما استمرت الاضطرابات إلى عهد أحمد علي باشا الذي استطاع خلال فترة حكمه 1645-1647م أن يعيد النظام لإيالة الجزائر، إلا أن حكمه انتهى بخسارة كبيرة تكبدها الأسطول الجزائري سنة 1647م أمام فرسان مالطا والبنديقية عندما كان عائداً عبر السواحل الإيطالية⁽³⁾. وفي سنة 1647م عين يوسف باشا الذي أعاد بناء الأسطول المخرب وأن يقود حملة سنة 1649م إلى الجنوب الشرقي، ليعيد نفوذ العثمانيين إلى واحتي تقرت وورقله⁽⁴⁾.

وبعد انتهاء عهد يوسف باشا عين محمد باشا سنة 1651م على إيالة الجزائر، وتمكن من مواجهة الفرنسيين ووباء الطاعون الذي انتشر آنذاك⁽⁵⁾.

وبحلول سنة 1656م وصل إلى الجزائر إبراهيم باشا حاملاً فرمان تعيينه وتزامنت فترة عهده مع زيادة الاضطرابات التي كانت تعيشها السلطة العثمانية في الإيالة، فقد وصل الأمر إلى تمرد الإنكشارية سنة 1659م ضده بقيادة خليل الذي جمع الديوان وأعلن نهاية

(1) المجلة الإسبانية، لسنة 1878م ص 103-104.

(2) سيأتي تعريف الإنكشارية فيما بعد، وقد أقر إنشاءها نظام الدفشمه.

(3) التر، مصدر سابق، ص 125.

(4) إسماعيل حقي أوزون تشارشلي (أوجاق الجزائر) غير مترجم، أنقرة 1987، ص 98.

(5) التر، مصدر سابق، ص 126.

نظام الباشوات، لكنه سمح للباشا بالبقاء في إيالة الجزائر، وبهذا الانقلاب استولت الإنكشارية على الحكم بصفة مباشرة⁽¹⁾.

وخلاصة القول فإن فترة الباشوات في إيالة الجزائر التي استمرت من 1587-1659م، كانت فترة صراع بين قوى ثلاثة هي الباشا ممثل السلطان، والإنكشارية وطائفة الرياس (رجال البحر)، وهذه الأخيرة ساندتها الإنكشارية من أجل الحصول على الغنائم مما أضعف من سلطة الباشا في الإيالة. وقد زاد الأمر سوءاً ضعف الدولة العثمانية، مما أثر على مركز ممثليها في الجزائر خاصة أن الدولة جرت على التغيير المستمر للباشوات وتعيينهم لمدة ثلاث سنوات، الأمر الذي أدى إلى انتشار الرشوة في عهدهم إذ كانوا يشترون هذا المنصب بالمال، ومن يحالفه الحظ يكون همه الأكبر جمع الثروات خلال فترة حكمه القصيرة دون الاهتمام بشؤون البلاد.

ومع بداية سنة 1659م جُرد الباشا من سلطاته الحقيقية وتولى هذه السلطات الآغوات ولم يصبح للباشا من السلطة سوى اللقب الشرفي فقط.

ج - عهد الآغوات: 1659-1671م:

يعد خليل آغا أول من جلس على كرسي الأغوية في الإيالة سنة 1660م، واستطاع أن يهزم الفرنسيين ويطردهم من جيجل⁽²⁾ ولكنه لم يدم طويلاً فتم اغتياله من قبل الإنكشارية في السنة نفسها، وكذلك الأمر بالنسبة لرمضان آغا الذي عيّن سنة 1661م فلم يستمر أكثر من شهرين حتى قتل هو الآخر من طرف الذين رفعوه إلى سدة الحكم⁽³⁾.

وجاء من بعده شعبان آغا الذي تصدى للعديد من الهجمات الفرنسية على إيالة الجزائر، إلا أن نهايته كانت مأساوية فتم شنقه لاعتدائه على إبراهيم آغا. واستمر توالي

(1) عباد، مرجع سابق، ص 127.

(2) أوغست كور، منشآت السلاطين، استانبول 1954م، ص 257.

(3) عباد، مرجع سابق، ص 128.

الأغوات على إيالة الجزائر من بعده، فخلفه الأغا إسماعيل سنة 1662م وبقي على رأس السلطة إلى غاية سنة 1665م⁽¹⁾.

ثم يأتي دور آخر الأغوات في الجزائر وهو الحاج علي آغا الذي استجاب لمطالب فرنسا الكثيرة فنار عليه الجنود لضعفه وقتلوه سنة 1671م⁽²⁾.

وهكذا انتهى عهد الأغوات الذي استمر اثني عشرة سنة فقط 1659-1671م كان كله عهد صراعات ومنافسات فيما بين الأغوات أنفسهم للوصول إلى المناصب العليا، وكانت النهاية قتل أكثرهم عن طريق المؤامرات أو الاغتيال⁽³⁾.

لقد خاب الظن بالأغوات لأنهم عجزوا عن توطيد الأمن وضبط العساكر، كما كانوا أكثر من غيرهم مطية لفرنسا، ولهذا سئمتهم العساكر وسارعت للتخلص منهم⁽⁴⁾.

كما يمكن القول بأن عهد الأغوات تميز بكثرة الاعتداءات الخارجية من قبل الدول الأوروبية وقام الأغوات بمواجهتها تارة بالحروب، ويعقد الهدنة معها تارة أخرى، هذا على المستوى الخارجي، أما على المستوى الداخلي فقد تميز باختلال الأوضاع الأمنية وانعدام الاستقرار، ولم يعد بمقدور ديوان الإنكشارية تحريك ساكن إزاء تلك الفوضى و تعيين آغا يفرض كلمته لينهي ذلك التدهور، الأمر الذي دفع طائفة الرياس إلى التدخل فألغت نظام الأغوات لنتخب إحدى زعاماتها تتولى الحكم لقبت بالداي⁽⁵⁾.

(1) تشارشلي (أوجاق الجزائر) مرجع سابق، ص 205.

(2) يوسف فهمي الجزائري، الجزائر أرض البطولات، تقديم محمد ثابت، الإسكندرية (د.ت) ص 363.

(3) جودت، تاريخ جودت، مصدر سابق، ج6، ص 370.

(4) تقرير صالح الرئيس إلى الباب العالي بتاريخ 1672 وقد أشار إلى ضعف الأغوات.

(5) لفظة داي، لفظة تركية تعني الخال شقيق الأم، وقد تفردت أوجاقات الفرق بهذه المصطلحات مثل (بي، داي، آغا، وما شابهها).

د - عهد الدايات 1671-1711م : (لقد استمر عهد الدايات حتى سنة 1830م)

انتخب الحاج محمد الطريقي سنة 1671م كأول داي على الجزائر، وشهدت فترة حكمه التي استمرت إحدى عشرة سنة العديد من الهجمات الإنجليزية على الإيالة، كما تعرضت البلاد في عهده إلى وباء الطاعون خلال سنوات 1671-1675-1678م، وانتشر أكثر سنة 1678م حيث أتى على كل الجيش الجزائري الذي كان يحاصر الأسبان في وهران في السنة نفسها. أما عن القرصنة فنشطت في عهده وهاجم الرياس سواحل إيطاليا وإسبانيا، بل وصلوا في سنة 1673م إلى سواحل البرتغال⁽¹⁾.

وأعقب الحاج محمد الطريقي على الجزائر صهره الداي بابا حسن سنة 1682م، والواقع قد تولى السلطة الفعلية منذ بداية عهد الحاج محمد الطريقي سنة 1671م حيث شاركه الحكم، وكان يقوم بإدارة معظم الأعمال باسم حاميه⁽²⁾.

وقد شهد عهده القصير تدهور العلاقات مع فرنسا التي تعددت هجماتها على الجزائر، وعندما عجز الداي بابا^(*) حسن عن المقاومة، مال إلى الخضوع لشروط الفرنسيين فانقلب عليه الداي الجديد حسين ميزومورتو وقتله سنة 1683م⁽³⁾.

دام عهد حسين ميزومورتو ثلاث سنوات، ابتداءً بانقلاب ناجح مكنه من الجلوس على كرسي الحكم، ثم تخلى عن منصبه لإبراهيم خوجة الذي قاد حملة نحو وهران سنة 1688م، وكانت محاولة قوية لاقتحام المدينة إلا أن جهوده باءت بالفشل⁽¹⁾.

(1) للاطلاع على نشاطات البحارة المغاربة، راجع مقدمة من فهرس الأوراق الرسمية لإيرلنده، لسنة 1652، في مكتبة باريس الرسمية.

(2) الجزائري، مرجع سابق، ص 364.

(*) لفظة بابا أطلقت على قائد الحملة البحرية، وقد استخدمت بكثرة في عهد آل برباروس.

(3) عمار بن خروف، علاقات الجزائر مع تونس في عهد الدايات 1671-1830م، رسالة دكتوراه غير منشورة 1996م، ص 49.

وفي سنة 1689م فر إلى تونس بسبب الخلاف الذي نشب بين الداوي والإنكشارية، وبعد رحيله انتخب المتمرّدون شعبان خوجة سنة 1689م داياً عليهم واستطاع أن يحقق نصراً سنة 1692م، على حملة مولاي إسماعيل الذي هاجم الحدود الغربية الجزائرية إلا أن نهايته كانت مأساوية، فقد قام الجند بقتله سنة 1695م⁽²⁾.

وخلفه الداوي أحمد سنة 1695م وقد مكث في الحكم ثلاث سنوات، شهدت انتشار وباء الطاعون الذي أتى على آلاف الأشخاص، ثم اعتلى سدة الحكم الداوي حسن شاوش سنة 1698م، وقد قضى عهده في مواجهة التونسيين، وانتهى عهده بالتخلي عن المنصب سنة 1700م، والمغادرة إلى طرابلس ومنها إلى إستانبول⁽³⁾، وانتخب مكانه الداوي مصطفى الذي حاول النهوض باقتصاد الإيالة، فهاجم تونس لكي ينهب أرزاقها الفياضة إلا أن سياسته لم تجده نفعاً، ففشلت حملته وقبل رجوعه إلى الجزائر عين الداوي حسن باشا مكانه، فاجبر على اللجوء إلى المناطق البعيدة، إلا أن الإنكشارية لحقوا به وحاصروه في بلدة القال، وبعد التعذيب قاموا بقتله سنة 1705م⁽⁴⁾.

وتواصل توافد الدايات على إيالة من بعده، فجاء الداوي حسن سنة 1705م وقد تحسنت العلاقات الجزائرية مع تونس وفرنسا، ومالت إلى السلام طيلة عهده، وكذلك في عهد محمد بكداش سنة 1707. 1710م فقد تميزت بالسلام مع تونس والمغرب⁽⁵⁾.

فاز الداوي إبراهيم بثقة الديوان سنة 1710م إلا أن فترة استلامه للإدارة لا تذكر قياساً بعهود الدايات السابقة، ثم عين الداوي علي شاوش في السنة نفسها، وشهد عهده تطورات جديدة على السلطة فقام بعمليات تصفية وتأديب في صفوف الإنكشارية وأقام ديواناً مالياً

(1) عباد، مرجع سابق، ص 145.

(2) التر، الأتراك العثمانيون، مصدر سابق، ص 431.

(3) صولاق باشا زاده، تاريخ صولاق، استانبول 1311هـ، ج 1، ص 135.

(4) التر، الأتراك العثمانيون، مصدر سابق، ص 449.

(5) جودت باشا، مصدر سابق، ج 5، ص 417، انظر الملحق رقم (3).

له، وشجع الأهالي على القيام بالنشاط البحري وأنهى وجود الباشا، ممثل السلطان في الجزائر التي أصبحت مستقلة عن الإمبراطورية العثمانية، وبالتالي تقبلت السلطات في إستانبول هذا الأمر، وتوقفت عن إرسال باشوات يمثلونها في الإيالة وتولى تلك المهمة الداي الذي أصبح يجمع بين وظيفتي الداي والباشا منذ هذا العهد⁽¹⁾.

وخلاصة القول فقد وصل إلى سدّة الحكم في الجزائر في الربع الأول من عهد الدايات، أي في الفترة 1671 - 1711م أحد عشر داياً لم تعرف إيالة الجزائر في عهدهم القطيعة مع الدولة العثمانية التي كانت ترسل الباشوات إلى الجزائر إلى غاية 1711م. وكانوا جميعهم يستجيبون لدعوات السلاطين لهم بالمشاركة في حروبه البحرية، كما تعددت الثورات والمؤامرات والانقلابات وتقشي الوباء الذي كان يظهر من حين إلى آخر في الجزائر طيلة هذه الفترة.

2 - اقتصاد إيالة الجزائر ومواردها المالية:

تمثل النشاط الاقتصادي والحياة الاقتصادية في الجزائر في عدة جوانب هي:

الجانب الأول: الضرائب: لقد نظمت الشؤون العامة للإيالة وحددت مواردها وسبل إنفاق الأموال فيها فكانت مداخل خزينتها من الضرائب وأغلبها تجبى من مناطق الأرياف، والزكاة التي كانت تؤخذ على الماشية والحبوب⁽²⁾، والحكر وهو كراء أراضي المخازن مقابل منافع عينية أو نقدية، والعشر وهو أخذ عشر محاصيل الفلاحين، والغرامة وتؤخذ من المناطق الخارجة عن مناطق السلطة الفعلية للبايلك، واللزمة وتؤخذ من قبائل الرعية الخاضعة للسلطة الحاكمة⁽³⁾، والجزية وتؤخذ من مراسيم وسفن الدول الأوروبية، وما يقوم به

(1) جلال قره صابان، ليبيا، أنقرة 1956، ص 275.

(2) سجلات الديوان الهمايوني في مجلس والا، رقم 178، ص 15-20.

(3) خير فارس، مرجع سابق، ص 230.

الولاية ورؤساء القبائل والعشائر من دفع العوائد، والخمس من المغنم البحرية المختلفة، وتعد العمود الفقري لدعم خزينة الإيالة⁽¹⁾.

وحول النظام الضريبي في الجزائر فقد كان محدداً من قبل الدولة العثمانية وتتميز بخروج مفرزة عسكرية في كل سنة تتجول في القرى والمناطق بهدف جمع الضرائب المقررة عليهم، وعلى الأهالي تقديم الطعام لهذه المفرزة، وما تحتاجه من مصاريف طيلة أيام استقرارها بمناطقهم⁽²⁾.

مارس العثمانيون القسوة على الأهالي في جمع الضرائب، ولا يتنازلون أبداً عن مقدار الضرائب المفروضة مهما كانت الأسباب، هذا بالإضافة إلى قيام رجال المفرزة في كثير من الأحيان بتحصيل أكثر مما هو مطلوب، الأمر الذي يثير لدى الأهالي ردود فعل عنيفة تصل إلى الاشتباكات كما حدث في عهد صالح ريس سنة 1552م عندما قمع أهالي مدينتي تقرت وورقلة لرفضهما دفع الضرائب المتفق عليها، والتي كان مقدارها بالنسبة لضريبة ورقلة 30 عبداً كل سنة وضريبة تقرت 15 زنجية⁽³⁾.

الجانب الثاني: فيتمثل بما يقوم به الأهالي من أعمال الزراعة والصناعة والتجارة. مارس الأهالي في الجزائر الزراعة ويقدر بعض المؤرخين نسبة اعتماد سكان الأرياف على الزراعة تصل إلى أكثر من 90%. وتشير إحصائية أخرى إلى عدد المزارع في نهاية القرن السادس عشر في الساحل وامتية بلغت حوالي 2500 مزرعة⁽⁴⁾. وما يلاحظ في تلك الفترة هو اختفاء الأراضي الخراجية التي ظهرت في الجزائر، منذ العصور الوسطى وأصبحت ملكية الأراضي مقسمة إلى عدة أنواع أهمها أراضي البيلك، وهي التي أصبحت ملكاً للدولة مثل المصادرة وامتلاك ما لا وارث له. وأراضي العزل وأراضي القبيلة.

(1) سجلات الديوان الهمايوني، مالية مدور دفترى نمرة 79، ص 14.

(2) أرجمند غول، النظام الضرائبي في الدولة العثمانية وولاياتها، أنقرة 1984م، ص 157.

(3) عباد، مرجع سابق، ص 74.

(4) غول، النظام الضرائبي، مرجع سابق، ص 160.

واستغل سكان المناطق الجبلية وسكان السهول القريبة من المدن زراعة الخضر والفواكه عامة وأشجار الزيتون والتين، أما عن الحبوب فقد استغل أهالي السهول العليا زراعته في المنطقة الواقعة بين سطيف وقالمة وكانت ناحية وادي زناتي أخصبها حيث اشتهرت بزراعته منذ العهد الروماني⁽¹⁾.

أما عن الصناعة فقد مارس الأهالي صناعة الدباغة، والسروج، والنسيج حيث كانت تضم الجزائر خلال القرن السادس عشر حوالي 3000 عامل نسيج، وبخاصة صناعة الجلود ودباغتها، وقد اشتهر أهالي قسنطينة بهذه الصناعة وكذلك بالطرارز المحلي حيث كانت دونوش قسنطينة من أغنى دنوش الجزائر. أما صناعة الأسلحة فقد اشتهرت عائلات تركية وأندلسية بصناعة البنادق في منطقة بني راشد منذ القرن السادس عشر⁽²⁾، كما اهتم أهالي المناطق الجبلية بصناعة الأدوات الفلاحية والعربات والخناجر⁽³⁾.

وبالنسبة للتجارة فقد تميزت في بداية العهد العثماني في إيالة الجزائر بتدهور الحركة التجارية التي حركتها المدن الإيطالية والإسبانية على السواحل الجزائرية ويعود السبب في ذلك إلى السيطرة الإسبانية على بعض المواقع في ساحل الجهة الغربية، وسيطرة العثمانيين على باقي البلاد والنشاط المتزايد والقرصنة، بل تدهورت أمور التجارة حتى داخل البلاد، وذلك لانشغال سكانها بأعمال الجهاد والحروب البحرية⁽⁴⁾. وكانت الجزائر أقل نصيباً في التجارة بالمقارنة مع مناطق المغرب العربي الأخرى، وخاصة التجارة الداخلية، على الرغم من وجود أسواق داخلية كانت في قلب مدينة الجزائر آنذاك، لبيع وشراء الأقمشة

(1) ساحل أوغلو، واردات وصادرات مناطق المغرب العربي، ترجمة محمود عامر، دمشق 1988م، ص 154.

(2) نمير، مرجع سابق، ص 204.

(3) عباد، مرجع سابق، ص 337.

(4) عبد العزيز الغيلاني ومحمد الهادي لعروق، مدينة قسنطينة دراسة التطور التاريخي والبيئة الجغرافية، الجزائر 1984م.

والصناعات والعبيد ومغانم الحروب البحرية. كما خيم الكساد على حركة التجارة الخارجية مقارنةً بما كانت عليه قبل مطلع القرن السادس عشر⁽¹⁾.

ولا يعني ذلك الانقطاع التجاري التام مع أوروبا، بل كانت هناك معاهدات وامتيازات وقعت بين سليمان قانوني وملك فرنسا مثلاً سنة 1535م فتحصلت فرنسا على امتيازات خاصة على الشواطئ الجزائرية الشرقية، تتعلق بالتجارة واحتكار صيد المرجان وتولت ذلك شركة ميرسيلية أطلق عليها اسم شركة المرجان نظراً للدور الذي أداه المرجان في التجارة العالمية⁽²⁾.

الجانب الثالث: غنائم الجهاد والحروب البحرية: كانت الجزائر أكثر إيلات الغرب نصيباً في تحصيل هذه الغنائم، لأنها كانت من أوائل المراكز للحروب البحرية في بجاية وجيجل والجزائر، ولم يقتصر نشاط رجالها البحري على البحر المتوسط بل وصلت مراكبهم إلى المحيط الأطلنطي شمالاً مهددة شواطئ إنجلترا وإيرلندة، ومما ساعدهم على الوصول إلى تلك المناطق البعيدة هو تخليهم منذ أوائل القرن السابع عشر عن قواربهم الشراعية ذات المجاديف، وصنعوا أنواعاً جديدة ذات الأشعة والصواري التي لا تحتاج إلى عدد كبير من المجدفين فمكنتهم من السير في البحر لفترة طويلة دون توقف وبكل سهولة، فكانوا يعودون محملين بالأسرى والغنائم الهائلة التي حققت لهم أرباحاً بالغة واستفادت منها خزينة دولتهم التي كانت تنال من هذه الغنائم حصةً تتراوح ما بين السبع أو العشر⁽³⁾. كما تتحصل الخزينة أيضاً على نسبة 12% من السفن التي يحتجزها هؤلاء الرجال في الموانئ الجزائرية، ناهيك عن حصتها من الأموال التي يدفعها الأوروبيون مقابل افتداء أسراهم، وتكون الفدية كبيرة إذا كان من بين هؤلاء الأسرى شخصيات هامة، كما فعل فلاماني في سنة 1631م

(1) عباد، المرجع السابق، ص 18.

(3) Halil paşa cezayir Osmanli devletinde Ahvali, Ankara 1986. s. 492.

(3) أوغلو، واردات وصادرات، مرجع سابق، ص 375.

عندما انطلق من الجزائر وهاجم مدن إنجلترا وإيرلندا وأسر ما يزيد عن 200 رجل وامرأة وطفل واسترقهم⁽¹⁾.

وطبيعي أن تؤدي تلك الأعمال إلى زيادة أعداد السفن فبلغت في سنة 1580م 35 سفينة كبيرة و25 سفينة صغيرة⁽²⁾، وكان لمدينة وهران وحدها في بداية القرن السادس عشر 12 سفينة متطورة سريعة الحركة، استطاع من خلالها بحارة وهران تحقيق أرباح مالية أسهمت بتأمين دخل جيد لخزينة الأوجاق⁽³⁾.

- مظاهر الحياة الثقافية في إيالة الجزائر:

لم يكن القرن الخامس عشر الميلادي قرن إبداع في مجال الثقافة والعلم في الجزائر؛ بل في كافة بلاد المغرب العربي، وإنما كان عصر انحطاط وخمول فكري تعود أسبابه إلى الفوضى السياسية، التي انتهت بالاحتلال الإسباني لهذه المناطق، وتوجه علماءها وطلابها للمشاركة في حركة الجهاد⁽⁴⁾. وبدخول العثمانيين في القرن السادس عشر الميلادي انتعشت في إيالات المغرب الحركة الثقافية والتعليمية على الرغم من أن السلطات العثمانية عدت مسألة التعليم خارج مسؤولياتها فتركها للأفراد والهيئات والجماعات⁽⁵⁾.

وتعدّ الكتاتيب من أقدم المراكز التعليمية تمثل أولى درجات السلم التعليمي الديني، وكانت لها أهمية بالغة في نشر التعليم داخل الجزائر، فهي الأكثر انتشاراً من الزوايا والمدارس، وخاصةً في الأرياف والبوادي ممكّنة الصبيان من تعليم مبادئ القراءة والكتابة، وتعليم القرآن الكريم والأحاديث النبوية، فالكتاتيب في بداية أمرها كانت مجاورة للمسجد أو

(1) غول، مرجع سابق، ص 417.

(2) التر، مصدر سابق، ص .

(3) أوغلو، المرجع السابق، ص 380.

(5) Yavuz Bahadiroğlu, Osmanlı padisahlari Ankara, 1968. S. 602.

(1) Reşad Ekrem Koçu, Yeniceriler, Ankara, 1982. S. 159.

ملحقة به وأبوابها دائماً مفتوحة تستقبل الصبية في سن تتراوح بين الخمس والست سنوات⁽¹⁾. كما انتشر التعليم عن طريق الزوايا، ومن أهم الزوايا في الجزائر زوايا الطرق كالطيبية والتيجانية⁽²⁾، وزاوية سيدي عبد الرحمن (الرحمانية) وتقع في حي باب الوادي، وزاوية عبد القادر وتقع خارج باب عزون، وزاوية دادة والي⁽³⁾.

والى جانب الكتاتيب والزوايا فقد بنى العثمانيون بعض المدارس، كما أسس بنو زيان في عاصمتهم (تلمسان) خمس مدارس تلقى فيها الدروس، ويقيم فيها الطلاب، ويعكف عليها الكثير من العلماء، ومنهم أحمد المقرئ التلمساني صاحب نفح الطيب وأزهار الرياض كما أسس الأندلسيون، الذين نزحوا في القرن السادس عشر إلى المغرب العربي بما فيها الجزائر، العديد من المدارس على غرار مدرسة غرناطة الشهيرة.

ومن أشهر علماء الجزائر في تلك الفترة محمد بن علي الخروبي ومن مؤلفاته الدرة الشريفة في الكلام على أصول الطريقة، توفي سنة 1556م وعلي بن يحي الجاديري كان يلقي دروسه بجامع أجادير في تلمسان، وتوفي سنة 1565م⁽⁴⁾، ويحي الأوراسي الذي كان عالماً دينياً وله مؤلفات عديدة في النحو والفقه والبيان، وتولى التدريس ثم الإفتاء بمدينة قسنطينة، كما عرفت إيالة الجزائر بدورها توافد العلماء العثمانيين منذ مطلع القرن السادس عشر لاسيما من القضاة الذين يتم تعيينهم بصفة رسمية من قبل السلطان العثماني نذكر الشيخ فتح الله الذي وصل إلى الجزائر واستقر في القسنطينة وأصبح فيها خطيباً ومفتياً⁽⁵⁾.

(2) Yılmaz Öztüna, Büyük Türkiye Tarih, Ankara 1976, S. 287.

(2) أحمد جودت باشا، مصدر سابق، ج5، ص 480.

(3) المصدر السابق، ج5، ص 485.

(4) الجمل، مرجع سابق، ص 127.

(5) روسي، ليبيا منذ الفتح العربي، مرجع سابق، ص 196.

ثانياً: السيطرة العثمانية على إيالة طرابلس الغرب:

وقعت طرابلس كغيرها من أقطار المغرب العربي تحت الاحتلال الإسباني منذ سنة 1510م، وظلوا يحكمونها قرابة عشرين عاماً، واجهتهم مقاومة شديدة من الأهالي مستعينين بالمجاهدين العثمانيين الذين نشئوا في خدمة الأساطيل العثمانية، ثم راحوا يكوّنون أساطيل صغيرة تعمل لحسابهم الخاص، وتجاهد ضد السفن الأوروبية، ولذا فقد كان هؤلاء المغامرون أمثال عروج وخير الدين يعدّون في نظر المسلمين أبطالاً وطنيين وفي نظر خصومهم قراصنة بحار.

وعلى الرغم من هذه المساندة إلا أن إمكاناتهم الحربية وجهودهم البشرية بمفردهم حالت دون ذلك، خاصةً بعد أن قام فرسان مالطا - الذين حصلوا على طرابلس كهدية من الملك الإسباني شارلكان سنة 1530م - تحصينات ضخمة للمدينة وقلعتها لمواجهة أي هجوم محتمل، هذا بالإضافة إلى تحالف الحسن الحفصي حاكم تونس مع الأسبان الذي أبدى عدة محاولات لدعمهم لاحتلال تاجوراء⁽¹⁾، الأمر الذي دفعهم إلى الاستجداد بالسلطة العثمانية كما فعل أهالي تونس فيما بعد، فأرسلوا وفداً من تاجوراء متجهاً إلى إستانبول طالبين من السلطان سليمان القانوني 1520م - 1566م المساعدة والعون لتخليص بلادهم من أيادي الفرسان الذين عاملوهم أسوأ معاملة وأذاقوهم العذاب ألواناً، ومعلنين له الولاء والانضواء تحت السيادة العثمانية⁽²⁾.

وقد وافق السلطان على طلبهم فأرسل قوة على رأسها مراد أغا، فلجأت القوة إلى تاجوراء كونها العاصمة الحرة للإقليم آنذاك، وعلى الفور قام مراد أغا بتحصينها وأخذ يشن

(1) الجمل، مرجع سابق، ص 128.

(2) شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، مرجع سابق، ص 127.

هجمات متفرقة على الفرسان. كما بدأ يزحف باتجاه القلعة وبتضييق الحصار عليها بمساعدة خير الدين⁽¹⁾.

وعقب وفاة خير الدين تولى قيادة الأسطول العثماني الرئيس طرغوت باشا الذي كان يحب طرابلس ويحترق شوقاً للانتقام من فرسان مالطا، واستطاع إقناع السلطان العثماني بفكرة ضم طرابلس لمملكه، وما يترتب عليها من أهمية عسكرية واقتصادية تحقق له إمبراطورية واسعة الأرجاء، ونتيجةً لذلك أرسل السلطان على الفور حملة إلى طرابلس سنة 1551م، مكونة من 112 سفينة، و52 مركباً خفيف، ومعه 8000 جندي، و600 فارس بخيولهم، وما يلزمها من المعدات كان سنان باشا هو القائد العام لها، وإلى جانبه الرئيس طرغوت باشا الذي كلف بقيادة بعض السفن الأخرى.

وقد قام سنان باشا والرئيس طرغوت بإنزال جنودهم على اليابسة بتاجوراء، وقبل أن يباشر الهجوم تفاوضوا مع حاكم طرابلس من أجل الاستسلام مع الأمان، ولكنه رفض التسليم وقرر الدفاع عنها⁽²⁾.

ومن دون تردد أو خوف باشر سنان باشا بمحاصرة المدينة وقصف القلعة قصفاً شديداً، ولم تستطع قوات الفرسان الصمود أمام قوات سنان باشا، فألقوا بسلاحهم معلنين استسلامهم، وفتحت القلعة أبوابها للعثمانيين وتم جلاء الفرسان عن طرابلس بسفن فرنسية إلى مالطا⁽³⁾.

وقبل أن يرحل سنان باشا بأسطوله إلى إستانبول كرس جهده لوضع أمور إيالة

(1) روسي، مرجع سابق، ص 196.

(2) الجمل، مرجع سابق، ص 128.

(3) محمود ناجي، طرابلس الغرب تاريخي، استانبول 1928م، ص 75.

طرابلس الغرب في نصابها الصحيح، فعيّن الموظفين وأصلح شؤون الإدارة وعيّن مراد أغا والياً على طرابلس، ثم اتجه سنان باشا بالأسطول إلى إستانبول⁽¹⁾.

آ - مظاهر الحياة العامة في إيالة طرابلس 1551 - 1711م:

1- النظام الإداري العثماني في إيالة طرابلس:

لقد اعتاد أغلب المؤرخين على تقسيم مرحلة الإدارة العثمانية لإيالة طرابلس إلى مرحلتين:

أ - المرحلة الأولى: تمتد من سنة 1551 إلى 1711م (وهي فترة قيد الدراسة).

ب - المرحلة الثانية: تمتد من سنة 1835 إلى 1911م.

وبين الفترتين 1711 إلى 1835م (ما يقارب من قرن وربع) كانت السلطة في يد الأسرة القرمانلية وظلت تتوارث الحكم طوال هذه الفترة⁽²⁾.

وخلال المرحلة الإدارية الأولى 1551 إلى 1711م مرت أيضاً إيالة طرابلس الغرب بمرحلتين إداريتين مختلفتين وهما:

1- عهد البكربكي 1551 - 1606م:

لم يختلف النظام الإداري العثماني في طرابلس في هذه الفترة عن غيرها من الولايات العثمانية التي تميزت بالهدوء، والاستقرار نتيجة لتعيين ولاية أقوىاء اتصفوا بالشجاعة والإقدام

(1) الجمل، مرجع سابق، ص 128.

(2) أحمد رفيق، عثمانلي بويوك تاريخي، استانبول 1318هـ، ج1، ص 187.

كان أغلبهم من رجال البحر، استطاعوا فرض نفوذ الدولة العثمانية في إيالة طرابلس بل في إيالات الغرب الثلاثة⁽¹⁾.

فكان أولهم في طرابلس مراد آغا، انصب اهتمامه بالناحية الدفاعية للمدينة وترميم قلعتها التي تعرضت للدمار جراء الحرب أيام الحكم النصراني⁽²⁾، كما قام بتنشيط الحياة العامة حيث شجع الأهالي على التجارة والصناعة والزراعة في البلاد، وحول الكنيسة فيها إلى مسجد، وأخذت الحياة تدب في جميع مرافقها⁽³⁾.

ومن أبرز الأحداث التي وقعت في عهد مراد آغا محاولة فرسان مالطا استعادة طرابلس سنة 1552م، ولكنه استطاع أن يفشل جميع مخططاتهم ويستمر في حكمها حتى وفاته سنة 1555م⁽⁴⁾. وعقب وفاة مراد آغا تم تعيين طرغوت باشا بكركي على طرابلس، الذي اهتم أيضاً بتحسين المدينة التي أحبها، وعمل على تحسين أوضاعها الاقتصادية والعسكرية، كما أنشأ داراً للبارود جنوب القلعة، وبنى مسجده المشهور الذي يعد من أكبر مساجد المدينة آنذاك⁽⁵⁾.

وقد شهد عهده العديد من الثورات الداخلية، وبفضل شجاعته تمكن من إخمادها حيث سار على رأس قوة من الإنكشارية إلى سكان غريان، الذين أعلنوا العصيان فأخمد ثورتهم وفرض عليهم أداء الخراج ثم توجه إلى سكان ترهونة وأخضعها ثم أخضع سكان بني وليد، ومنها توجه إلى تاورغاء ثم عاد إلى مصراته ومنها براً إلى تاجوراء فطرابلس⁽⁶⁾.

(1) الطاهر الزاوي، ولاية طرابلس الغرب منذ بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي، بيروت 1970م، ص 157.

(2) صولاق زاده، مصدر سابق، ج3، ص 350.

(3) إسماعيل حقي أوزون تشارشلي، مرجع سابق، ص 557.

(4) أحمد بك النائب الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، طرابلس 1963، ص 210.

(5) سجلات الديوان الهامبوني، كدان كلان دفترى رقم 217، ص 9.

(6) فيرو، مرجع سابق، ص 127.

وفي أيامه أرسلت الدولة العثمانية حملة بحرية سنة 1556م، إلى مالطا التي كانت تهدد النفوذ العثماني في مناطق المغرب العربي، غير أن متانة حصونها واستماتة مقاتليها حالت دون ذلك، وزادت من مدة الحصار الأمر الذي أدى إلى استدعاء طرغوت باشا من طرابلس فذهب إليهم، واستشهد هناك سنة 1556م، وجيء بجثمانه إلى طرابلس ودفن بمسجده⁽¹⁾.

أرسل السلطان العثماني والياً محله يدعى يحيى باشا الذي بدأ بتأديب الإنكشارية، الذين تمادوا وتطاولوا على الأهالي، الأمر الذي مكنه من تهدئة الأحوال في الإيالات، إلا أنه لم يعمر طويلاً وانتهت فترة حكمه سنة 1566م⁽²⁾.

وجاءت ولاية قلع علي الذي اقتدى بخطى سلفه في العمل على استتباب الأمن في إيالة طرابلس كخطوة أولى أساسية، وكانت خطوته الثانية بذل الجهد، لزيادة تحسين المدينة وتقوية دفاعاتها، وإعادة بناء الأسطول وتشجيع الأهالي للقيام بالأعمال البحرية، كما عمل على تجديد دار البارود وتطوير الإيالة ما أمكنه من جهد على الرغم من أن فترة إقامته وتعيينه فيها كانت قصيرة الأمد، لأنه توجه إلى الجزائر لتولي قيادتها سنة 1568م بموجب فرمان سلطاني⁽³⁾ اعترافاً بخدماته.

استمرت رغبة الدولة العثمانية في الحفاظ على طرابلس بإرسال ولاية وفيالق الإنكشارية؛ لتعزيز الحامية العثمانية لمنع أي هجوم قد يقع عليه من جانب الأسبان أو فرسان مالطا، غير أن ولاية هذه الفترة كانوا أقل شأناً من الولاية العظام الذين سبقوهم، فكان أولهم جعفر باشا 1568-1582م. ثم رمضان باشا ومصطفى باشا وحسين باشا وإبراهيم باشا وإسكندر باشا وكان آخرهم سليم باشا 1606-1607م⁽⁴⁾.

(1) جودت، مصدر سابق، ج6، ص 480.

(2) تشارشلي، مرجع سابق، ص 590.

(3) الأنصاري، مصدر سابق، ص 218.

(4) مهمة دفترى، دفتر رقم 10، ص 62.

وخلاصة القول أدير طرابلس الغرب في فترة البكركي من قبل أحد عشر والياً منهم من كان عسكرياً بارزاً برزت شخصيته القوية على الإيالة، فتمكن من تأديب الإنكشارية وألزمها بالنظام، وعمل على إدارة البلاد إدارة جيدة حتى عمها الهدوء والاستقرار، ومنهم من كان أقل حماساً وجهداً في إدارة الإيالة وجردته الإنكشارية من أي سلطة فعلية، كثرت في عهدهم الاضطرابات والفتن والتنافس على الحكم وزادوا من استنزاف الضرائب فأرهبوا البلاد والعباد، حيث أن جميع الأموال الضريبية التي يدفعونها تذهب إلى خزينة الحكومة دون أدنى مقابل يخدم مصالحهم، لذلك ظهر من رفض الطاعة في وجه جامع الضرائب أمثال يحيى السويدي في منطقة تاجوراء سنة 1587م . 1588م.

2 - عهد الدايات 1606 - 1711م:

تميزت هذه الفترة بتولي الإنكشاريين إدارة إيالة طرابلس من خلال ديوانهم بعد ما وضعوا نظاماً وقواعد ضابطة ينتخب من خلالها الداوي لمدة ستة أشهر وكان من أولى دايات تلك المرحلة سليمان داي الذي عارض الالتزام بقرارات الديوان ونظمه لذلك أرغم تحت ضغط الإنكشارية على التنازل عن منصبه، ولم تتح له الفرصة لتقديم أي عمل لإيالة طرابلس⁽¹⁾.

وفي عام 1611م فاز الداوي صفر بثقة الديوان فكانت مهمته الأولى زيادة غنائم الأعمال البحرية، فشجع الأهالي على القيام بها وهياً سفناً كبيرة لهذه الغاية، وبنى مأوى أو سجنًا للأعداد المتزايدة من الأسرى الأوروبيين، وقام بترميم وإصلاح المسجد الأعظم (جامع الناقة)، إلا أن نهايته كانت الإعدام لقاء ما ارتكبه من جرائم وشنق على باب القلعة⁽²⁾.

وبعد إعدام صفر داي أتى دور حامد باشا سنة 1615م ليتولى منصب الداوي في إيالة طرابلس، ولكنه ما لبث أن عزل في سنة 1617م وعُين سليمان باشا على الإيالة، الذي

(1) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقية، مصدر سابق، ص 86.

(2) مهمة دفتري، نمرة 18، ص 145

استطاع أن يعيد الهدوء والانتعاش للإيالة، وخلفه الداوي مصطفى باشا الذي بدأ بداية حسنة، ولكنه سرعان ما سعى لجمع مال الدولة والغنائم لصالحه دون الاهتمام بمصير الرعية، الأمر الذي أوصله في النهاية إلى الإعدام سنة 1630م بأمر من الصدر الأعظم⁽¹⁾.

وانتخب الوالي قاسم باشا داياً جديداً في إيالة طرابلس بعد إعدام الداوي مصطفى باشا، ومع حلول سنة 1631م تسلم رمضان داي الحكم ولكنه كان ضعيف الشكيمة عجز عن إصلاح الإيالة وقمع التمردات، فعادت الفوضى أدراجها إلى إيالة طرابلس من جديد⁽²⁾.

غير أن إيالة طرابلس لم تخل تماماً في هذه الفترة من بعض الدايات الأقوياء الصالحين فكان من أبرزهم محمد باشا الصاقللي 1632م المعروف بشجاعته وقوة عزمته، وشخصيته التي مكنته من ضبط الأمور وتسييرها بشكل جيد في الأوجاق، وبذلك شهدت البلاد انتعاشاً عاماً نتيجةً لقوة النظام العسكري والإداري والمالي بها، واستمر حكم محمد باشا الصاقللي للإيالة نحو سبع عشرة سنة وكانت نهايته مؤلمة إذ تمكن معارضوه من الاتفاق مع طبيبه الخائن الذي دس السم له ولابنه الوحيد فتوفي سنة 1649م⁽³⁾.

ولم يجد الديوان حلاً بعد وفاة محمد الصاقللي سوى تعيين خادمه عثمان باشا الصاقللي الذي اقتدى بخطى سيده محمد باشا في إعمار المدينة، وإصلاح القلاع والحصون دفاعاً عنها، وبذل جهوداً كبيرة لتقوية الأسطول الحربي فتمكن من تسليح 24 سفينة وعُدَّ عهده عهد ازدهار للبحرية الطرابلسية⁽⁴⁾.

كما شهد عهد عثمان باشا الصاقللي قلة حركات التمرد في الداخل، وخاصةً في السنوات العشر الأولى من حكمه، فخافه الجميع لعنفه وشدته، والتزمت الإنكشارية بالطاعة

(¹) كوستانزيو برنيا، طرابلس الغرب من 1510م إلى 1850م تعريب خليفة محمد التليسي، ليبيا 1969م، ص 95.

(1) Celâl Teufik Karasapans. S. 115.

(2) Celâl Teufik Karasapans. S. 135.

(⁴) شارل فيرو، الحوليات الليبية، مرجع سابق، ص 180.

وتنفيذ الأوامر، كما ألغى العديد من الضرائب التي كانت ترهق الأهالي ونعمت البلاد بالأمن والاستقرار والرخاء الاقتصادي، واستمر في حكم إيالة طرابلس ثلاث وعشرين سنة، وهي أطول مدة يقضيها حاكم لهذه الولاية في عهد الدايات⁽¹⁾.

وبموت الداوي عثمان سنة 1672م بدأ يتلاشى خوف الإنكشارية فازداد طغيانهم، وكان الصراع على أشده بين أعضاء الديوان فيما بينهم وبين الضباط وجنودهم، وضربت الفوضى أطنابها في البلاد التي ظلت مسرحاً لفتن الجنود نتيجةً لغياب شخصية قوية تمسك زمام الأمور فكان دايات هذه الفترة التي استمرت قرابة أربعين سنة 1672-1711م غير قادرين على ضبط الأمور، نتيجة لضعفهم وترددهم في اتخاذ القرار، فقد عجزوا عن توفير الأمن والاستقرار للبلاد ولأنفسهم، فأكثرهم ذهب ضحية مناورات الإنكشارية ومنهم من غادر الإيالة هارباً، كما أخفقوا في إخراج البلاد من أزمتها المالية التي ظلت تعاني منها طيلة عهدهم وتسبب ذلك في قيام ثورات عمت أرجاء البلاد⁽²⁾.

أتاحت كل هذه الظروف المأساوية في إيالة طرابلس لأحمد القرمانلي أن يتولى الأمر في الإيالة عام 1711م ويؤسس أسرة حاكمة بها⁽³⁾.

وخلاصة القول: تعرضت طرابلس خلال فترة الدايات 1606-1711م إلى أسوأ درجة من الفوضى والاضطرابات فيما عدا الفترة التي مثلها الداوي محمد باشا الصاقللي وعثمان باشا الصاقللي التي استمرت من سنة 1631-1672م وبانتهاء هذه الفترة ازدادت الصراعات الدموية في البلاد على الحكم، فلم يزد زمن تولي الحكم لبعض الدايات عن بضعة أيام، كما أن معظمهم لم يبذل جهداً لإنعاش البلاد اقتصادياً وعمرانياً، فقد غلب عليهم طابع الجشع والنهب، واستنزاف أرزاق الأهالي، وكان أول ما يشغل بالهم هو

(1) برنيا، مرجع سابق، ص 200.

(2) أرشيف رئاسة الوزراء، مهمة دفترى رقم 109، ص 54.

(3) أرشيف رئاسة الوزراء، عنيتات دفترى رقم 57، ص 14.

الاستيلاء على الخزينة وتحقيق الغنى والشهرة في أقصر مدة ممكنة. وتولى هذه الفترة 42 داياً منهم من تولى الإدارة ليوم واحد فقط، وبعضهم تولى لمدة أسبوع أو شهر وقد غلب عليهم طابع الجشع والنهب واستنزاف أرزاق الأهالي.

عانى أهالي طرابلس طيلة هذه المرحلة المليئة بالقلق والفوضى نتج عنها اضطراب أمني، وضيق اقتصادي دفع معظمهم إلى مغادرة البلاد، ومع كل ذلك فقد نظر الأهالي للعثمانيين نظرة حماة الإسلام الذين دفعوا عنهم شر الهجمات الصليبية سواء من الأسبان أو فرسان مالطا.

2 - اقتصاد إيالة طرابلس الغرب ومواردها المالية:

تمثلت الحياة الاقتصادية في طرابلس في عدة جوانب أهمها:

الجانب الأول: الضرائب: وهي من أهم المصادر المالية لخزينة الدولة كونها مصدراً ثابتاً يمكن الاعتماد عليه كلياً في جميع مصروفاتها من رواتب وتجهيز الحملات والإنشاء والتعمير. ومن أهم هذه الضرائب ضريبة العشر الشرعي التي عرفت منذ عهد المسلمين الأوائل، وهي تحصيل عيني لعشر الكمية المنتجة من المحاصيل الرئيسة في الإيالة كالقمح والشعير والزيتون والتمر⁽¹⁾ وضرائب أخرى متعددة مثل العوائد وهي بمنزلة هدايا إجبارية تقدم في المناسبات كالأعياد، وضريبة الزمة والخراج ففزان مثلاً التزمت بعد سنة 1627م بدفع الخراج كل سنة حددت قيمته بـ4000 مثقال من الذهب⁽²⁾.

(1) كدان كلان دفتر (دفتر الصادر والوارد) رقم 413، ص 89.

(2) عبد الله علي إبراهيم، ضريبة العشر في ليبيا أثناء الحكم العثماني، مجلة الثقافة، العدد الرابع، السنة الثانية عشر، 1985م، ص 19.

وقد بلغ ما حصلت عليه الولاية من الضريبة المفروضة على المناطق الساحلية في سنة 1635م ما مقداره 180 ألف قرش إسباني⁽¹⁾.

أما عن ضريبة بدل الخدمة العسكرية فيدفعها المعفيون من الخدمة العسكرية وغير المسلمين منهم بالدرجة الأولى أي اقتصر جمعها من اليهود فقط لأنه لا يجوز لغير المسلم الدخول في الخدمة العسكرية، لذلك اندفع أغلبهم إلى اعتناق الدين الإسلامي ليتخلصوا من دفعها الأمر الذي أدى إلى توقفها بعد سنة 1664م⁽²⁾.

الجانب الثاني: فيمثل ما يقوم به الأهالي من أعمال الزراعة والصناعة والتجارة.

تعدّ الزراعة من أهم مصادر دخل خزينة الدولة من خلال الضرائب التي يتم جبايتها اعتماداً على المحاصيل الزراعية، ومن مصادر الرزق المهمة لحياة غالبية أهالي إيالة طرابلس. وقد ارتبطت الزراعة في الإيالة بطبيعة ملكية الأرض وتقسيمها حيث كانت تقسم إلى عدة أنواع وهي:

أ- الملكية الخاصة: وهي عبارة عن حيازات زراعية صغيرة في المنطقة الساحلية ومناطق الواحات، ويدفع عنها صاحبها المسؤول عن استغلالها العشر.

ب- الملكية القبلية الجماعية: وهي عبارة عن مساحات شاسعة في الدواخل تقسم إلى قطع من الأراضي، يوزعها أعيان القبيلة سنوياً على عائلات القبيلة؛ لتمارس نشاطها الزراعي والرعوي⁽³⁾.

ج- الأراضي الموقوفة: وتعد هذه الأراضي نمطاً للملكية الشرعية وينفق من ريعها على المساجد والزوايا وغيرها من المؤسسات العامة.

(1) إنعام محمد شرف الدين، مدخل إلى تاريخ طرابلس الاجتماعي والاقتصادي، مركز الجهاد الليبي، طرابلس 1998م، ص 69.

(2) كلان كدان دفترى، رقم 719، ص 71.

(3) أوغلو، الخزينة العامرة لسنة 1650، أرشيف رئاسة الوزراء، التقرير السنوي لواردات الدولة.

د - الأراضي الأميرية (الحكومية): وهي الأراضي التي تمنحها الدولة لغرض التنمية والتطوير، ويدفع دخلها مباشرةً إلى الخزينة العامة⁽¹⁾.

تنوعت المحاصيل الزراعية في إيالة طرابلس وتعد الحبوب من أهم المزروعات الرئيسة التي اعتمدت زراعتها بشكل عام على هطول الأمطار نتيجة لانعدام الأنهار التي يمكن الانتفاع والاستفادة منها في هذه الزراعة أو أي زراعة أخرى.

والى جانب الحبوب وجدت زراعة الخضراوات والفواكه، حيث اهتم الأهالي بغرس الأشجار المثمرة وخاصةً أشجار الزيتون التي عرفت في الإيالة قبل مجيء العثمانيين بمئات السنين، ووصفت هذه الأشجار بأنها من منابع ثروة الإيالة⁽²⁾.

أما عن الصناعة التي لا تختلف كثيراً عن الزراعة من حيث الأهمية لأي اقتصاد في العالم تعدّ من إحدى أعمدة الاقتصاد الرئيسة، غير أن المصادر العثمانية لا تذكر لنا الكثير عن الصناعات التي مارسها أهالي طرابلس، والتي كانت متوارثة من العهود السابقة سوى صناعة المنسوجات الصوفية التي اشتهروا بها منذ القرن الخامس عشر الميلادي، ولكنها لم تكن متطورة آنذاك، وإنما كانت صناعات يدوية تعتمد على الخامات المحلية وبمجهود الأهالي وطاقتهم المحددة⁽³⁾.

وكذلك الأمر بالنسبة للصناعات الجلدية التي اعتمد عليها كثير من الأهالي، حيث صنعوا من الجلود السروج والأحذية وصناعات أخرى مشابهة، بالإضافة إلى بعض

(1) جميل هلال، دراسة في الواقع الليبي، مكتبة الفكر، طرابلس ليبيا 1967م، ص 20.

(2) جاغو (القنصل البريطاني في طرابلس) تقرير عن أحوال الزراعة والبستنة والمواد الطبيعية لولاية ليبيا بتاريخ 29 مايو 1900م، ترجمة نادية كاجيجي، مجلة الشهد، العدد السابع والثامن لسنة 1989-1900م، ص 326.

(3) أرشيف رئاسة الوزراء، عيديات دفترى لسنة 1675، رقم 224، ص 181.

الصناعات المحلية الأخرى مثل صناعة الأسلحة التقليدية كالسيف والرمح، والقليل من الصناعات الذهبية والفضية⁽¹⁾.

وعن التجارة التي احتلت مكاناً مميزاً في اقتصاديات إيالة طرابلس، فقد ارتبطت طرابلس بعلاقات تجارية وثيقة مع أفريقيا منذ القدم وعمل الكثير من سكانها في هذا النشاط وخاصةً أهالي المناطق الداخلية، التي اكتسبت أهمية بالغة لوقوعها على طرق تجارة القوافل التي تمر من أفريقيا الوسطى إلى موانئ البحر المتوسط، ويعد إقليم فزان من أهمها وذلك لاتصاله المباشر ببلاد السودان، كما أنه بمنزلة محطة تجارية لجميع القوافل التجارية القادمة من مصر وطرابلس وتونس والجزائر؛ بل ومن البندقية التي كانت ترسل إلى فزان الملابس الحريرية والزجاج البندقي والحلي المعدنية⁽²⁾.

وقد نشطت التجارة الخارجية في عهد محمد الصاقللي التي كانت له علاقات تجارية مع بورنو فكان يرسل إليها القوافل المحملة بالبضائع الأوروبية المتنوعة ويستورد التبر، كما كانت له علاقات تجارية مع البندقية وجنوة طيبة للغاية، فكانت سفن بحار البندقية وجنوة ترسو بميناء طرابلس ثم تبحر بمحاذاة الساحل حتى زوارة حيث تقوم بشحن الملح⁽³⁾.

وإلى جانب التجارة الخارجية كانت هناك تجارة داخلية فالاختلافات بين مناطق إيالة طرابلس من حيث الإنتاج الزراعي، والإنتاج الصناعي كانت سبباً في قيام المبادلات التجارية الداخلية عن طريق الأسواق التي منها سوق الرباع الذي أقيم في عهد عثمان باشا الصاقللي سنة 1649-1672م، الذي يعرف آنذاك بسوق العرب، وسوق الحرير المتفرع من سوق الترك الذي تم تجديده في سنة 1699م، وسوق الترك الذي عمل محمد باشا على

(1) عقيل محمد البريار، دراسات في تاريخ ليبيا الحديث، منشورات فالتينا، مالطا 1966م، ص 37.

(2) أرشيف رئاسة الوزراء، كلان كدان، دفتري، 337، ص 17.

(3) مخلوف أحمد الغزوي، الإصلاحات العثمانية وأثرها في ولاية طرابلس 1839-1911م، مركز الجهاد الليبي 2006م، ص 206.

تجديده وتحسينه سنة 1700م. هذا بالإضافة إلى الأسواق الأسبوعية التي كانت تتجمع فيها الأهالي من أجل البيع والمبادلة ومن أشهرها آنذاك سوق الثلاثاء وسوق الجمعة⁽¹⁾.

الجانب الثالث: والمتمثل في غنائم الجهاد والحروب البحرية والتي شكلت ركناً أساسياً في اقتصاد إيالة طرابلس خاصة وإيالات الغرب عامة، حيث كانت سفن بحارة طرابلس منذ القدم تشن غارات مستمرة على الشاطئ الشرقي من إسبانيا والمناطق الساحلية من الدولة الإيطالية بهدف الحصول على الأسرى والغنائم الوفيرة، وبلغ النشاط البحري الطرابلسي ذروته في عهد طرغوت باشا 1555-1565م الذي كان يشرف بنفسه على هذا النشاط، وشجع البحارة على القيام بهذه الأعمال ووضع عائدات تلك الأعمال في خزانة الإيالة⁽²⁾.

والاهتمام نفسه قام به محمد باشا الصاقللي 1631-1649م الذي اختار الشبان المغامرين الأقوياء للقيام بأعمال الغزو البحري، وسمح لكل من لديه القدرة بشراء السفن والعمل لحسابه الخاص في هذا النشاط على أن يدفع رسوم منخفضة للإيالة⁽³⁾، وطبيعي أن تؤدي أعماله المشجعة إلى زيادة أرباح تلك العمليات آنذاك، وإلى ارتفاع إيرادات الإيالة حيث قدرت في عهده بثلاثة ملايين فرنك⁽⁴⁾.

3- مظاهر الحياة الثقافية في إيالة طرابلس الغرب:

كان التعليم في طرابلس منذ الفتح العربي تعليمًا دينيًا صرفاً يتم بجهود فردية في الكتاتيب والمساجد والزوايا، وعندما سيطر العثمانيون على مقدرات الأمور في الأوجاق سنة 1551م لم تتغير تلك الظروف الثقافية في البلاد، وظل التعليم النظامي الحديث منعماً فيها مثلها مثل باقي إيالة الغرب طيلة فترة قيد الدراسة، والشيء الإيجابي الوحيد لسلطات الحكم

(1) Celal Tevik Karasapa. S. 417.

(2) محمد بشير سويس، أوضاع التعليم في ليبيا 1835-1950، مجلة البحوث التاريخية، مركز الجهاد، العدد الثاني 1999م، ص 76.

(3) أوغلو، واردات الخزانة، مصدر سابق، ص 174.

(4) أرشيف رئاسة الوزراء، كلان كدان دفترى رقم 127، رقم 198.

العثماني آنذاك أنهم سمحوا لتلك المؤسسات التعليمية أن تستمر في أداء رسالتها في الحياة الدينية والتعليمية، ولم تتدخل أنظمتهم العثمانية ولا أجهزتهم في اختصاصات هذه المؤسسات، وبقيت بعيدة عن إدارتهم إلى حدٍ ما⁽¹⁾.

وقد تعددت أمكنة التعليم الديني في المنطقة ذاتها، وتداخلت بحيث يصعب وضع حد فاصل بينها، وتعد الكتاتيب قاعدة هذا النظام التعليمي فكانت منتشرة في كثير من مدن وقرى الإيالة، ولكن لا توجد أية إحصائيات دقيقة لأعدادها ولعدد الطلبة الدارسين بها في تلك الفترة، وذلك لعدم اهتمام السلطة العثمانية الحاكمة في الإيالة بهذا النوع من التعليم ولم تقم بعملية حصرها، وحتى إن وجدت أعداد مسجلة فهي مقتصرة على المدن الرئيسية كطرابلس وبنغازي دون القرى والمناطق الأخرى البعيدة عنهما⁽²⁾.

وتمثل المساجد المرحلة الثانية في التعليم الديني فبعد أن يلم الطالب بمبادئ القراءة والكتابة يلحق بالمسجد لحفظ القرآن الكريم على أصوله بإشراف أحد المشايخ وقد يكون الشيخ نفسه معلم الكتاب⁽³⁾.

أما عن الزوايا والتي تمثل النمط الثالث من أنماط التعليم الأهلي فإن التعليم بها أعلى مستوى من تعليم الكتاتيب والمساجد، ويعد مرحلة علمية متقدمة، وتعدّ الزوايا بعكس الكتاتيب والمساجد الموجودة في سائر أنحاء الإيالة بالمدن والقرى والواحات، فإن الزوايا واحدة في منطقة معينة في الإيالة. وقد منحت الزوايا بعض القرى والمدن أهمية خاصة ويعدّ شيخ الزاوية موضوع فخر في المنطقة التي يقيم فيها، كما يعدّ شيخ الزاوية هو المسؤول عنها وعن مجلس إدارتها، وعن إقامة الشعائر الدينية بها وتسيير حركة التعليم فيها، ومنح الإجازات العلمية لنوابغ الطلاب⁽⁴⁾.

(1) سويسى، المرجع السابق، ص 76.

(2) أحمد محمد القماطي، تطور الإدارة التعليمية في الجماهيرية، الدار العربية للكتاب 1978م، ص 73.

(3) الطاهر أحمد الزواوي، أعلام ليبيا، دار إحياء الكتب العربية، مصر 1961م، ص 185.

(4) تيسير بن موسى، المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، الدار العربية للكتاب 1988م، ص 79.

وكان الآباء يرسلون أبناءهم إلى هذه الزوايا حيث يتعلمون حفظ القرآن الكريم والحديث والقراءة وإجادة الكتابة واكتساب المعارف والعلوم، ولم يكن التعليم فيها مقنناً بمناهج محددة بل تتوقف على حصة العلماء الذين يقومون بالتدريس في الزوايا من المعارف والعلوم⁽¹⁾.

ومن أبرز زوايا إيالة طرابلس التعليمية زاوية عبد السلام الأسمر وزاوية الزروق وزاوية الدوكالي وزاوية المحجوب، بالإضافة إلى زوايا الطرق الصوفية كالعروسية والجيلانية والشادية⁽²⁾.

وإلى جانب التعليم في الكتاتيب والزوايا كانت المدارس غير أنها في إيالة طرابلس كانت قليلة آنذاك، فكانت هناك مدرسة أنشأها مراد أغا في تاجوراء وكانت ملحقة بمسجده الذي دفن بجواره⁽³⁾، وكذلك مدرسة عثمان باشا الصاقللي بقرب جامع طرغوت باشا بطرابلس والتي شيدت عام 1654م، وقد أوقف عثمان باشا مجموعة أملاك لصالح هذه المدرسة مثل الفندق الكبير والحمام الكبير وعدد من الدور السكنية في المدينة القديمة وسوق الترك، وكان ريع هذه الأوقاف يمنح للقائمين على المدرسة لتغطية النفقات الخاصة بالمدرسين والطلاب القائمين بالخدمات بالمدرسة، حيث أن كل طالب كان يتقاضى مرتباً شهرياً وقدره سبعون قرشاً من ريع الأوقاف⁽⁴⁾.

وعلى الرغم من تعرض التعليم في تلك الفترة إلى الإهمال، من قبل السلطات العثمانية الذي اكتفت فقط بعملية الإشراف بحجة أن مواردها المالية لا تمكنها من الصرف على نشر التعليم بين أبنائها؛ إلا أنه برز آنذاك عدد كبير من العلماء في إيالة طرابلس ولكل منهم نصيبهم في الفكر والتأليف، ومن أشهرهم عبد السلام الأسمر الفيتوري وهو صاحب طريقة

(1) جودت، مصدر سابق، ج4، ص 370.

(2) بن موسى، المجتمع الليبي، مرجع سابق، ص 326.

(3) جمال أحمد عبد الله الوبر، المدارس الدينية بمدينة طرابلس في العصر العثماني 1551-1911م رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المرقب 2007م، ص 19.

(4) الأنصاري، مصدر سابق، ص 233.

صوفية عرفت باسم السلامية، ومن مؤلفاته كتاب الأنوار السنية، وتوفي سنة 1573م. والشيخ محمد بن علي السلمقي حفظ الرسالة ومختصر الشيخ خليل وتعاليقه وقصائد السنوسي، وحكم ابن عطاء الله وتوفي سنة 1580م. وأحمد ابن عبد الحميد اليربوعي الشهير ببحر السماح، حفظ القرآن في زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر وتفقه في المختصر والرسالة وتوفي سنة 1588م وغيرهم⁽¹⁾.

وقد شهدت إيالة طرابلس الغرب توافد بعض العلماء من اسطنبول في تلك الفترة ومن بينهم أبو عبد الله التركي الكفيف، وكان الهدف من وراء هذه الزيارات إدخال المذهب الحنفي إلى بلاد المغرب العربي⁽²⁾.

ثالثاً: السيطرة العثمانية على إيالة تونس:

لم يستتب حكم العثمانيين في إيالة تونس إلا بعد جهود مكثفة قاموا بها لانتزاعها من الأسبان، فبدأت المحاولات منذ سنة 1534م لما قام خير الدين بمهاجمتها بقواته المؤلفة من 5000 سوار (خيال)، وتمكن من احتلالها والقضاء على الحكم الحفصي فيها⁽³⁾.

غير أن الأمر لم يستقر لخير الدين ف وقعت تونس سنة 1535م بيد الأسبان وتولى الحسن الحفصي حكمها الذي أصبح رمزاً للخيانة لدى الأهالي، وخاصةً بعد أن أباح المدينة للأسبان الذين أمعنوا في الانتقام من الأهالي، وعانى الأهالي من تلك الفوضى السياسية والأخلاقية المريعة، الأمر الذي دفعهم إلى انتداب وفد منهم أرسلوه إلى إسطنبول سنة 1569م؛ طلباً للنجدة والعون⁽⁴⁾.

(1) حسين خوجة، ذيل بشائر أهل فتوحات آل عثمان، تحقيق وتقديم الطاهر العموري، تونس 1975م، ص 41.

(2) خوجه، ذيل البشائر، مصدر سابق، ص 41-42.

(3) التر، مصدر سابق، ص 112.

(4) محمود عامر، تاريخ المغرب الحديث (الجزائر - تونس)، مرجع سابق، ص 152.

وفي نهاية سنة 1569م نجح قلج علي في السيطرة على المدينة، وأصبحت بيد أتراك الجزائر مجدداً من دون مقاومة، وأخذ البيعة للسلطان العثماني سليم الثاني، وأقام عليها أحد قواده وهو القائد رمضان وترك معه ثلاثة آلاف جندي لحماية البلاد، ثم توجه إلى الجزائر سنة 1570م⁽¹⁾.

واستمرت الأحوال في تونس كما هي حتى معركة ليبانتو سنة 1571م التي هُزم فيها العثمانيون وتحطم أسطولهم عن آخره، استغلت إسبانيا هذا الضعف العسكري العثماني فسارعت إلى احتلال تونس، ووجهت أسطولها الكبير تحت قيادة دون جوان النمساوي سنة 1573م ونجحت في ذلك، وكالمعتاد عاثوا الفساد في البلاد واستباحوا جامع الزيتونة إذ ربطوا خيولهم بداخله، ونهبوا ما به من كتب علمية وألقوها بالشوارع بعد أن مزقوها بسيوفهم، وكان آخر المحاولات العثمانية للسيطرة على تونس تلك الحملة البحرية البرية التي قادها سنان باشا والتي كانت في مستوى التحديات المسيحية هذه المرة فبلغ قوامها 280 قطعة بحرية⁽²⁾، وحقت انتصاراً ساحقاً على القوات الإسبانية بعد قتال دام شهراً كاملاً، واستولوا على قلعة حلق الوادي وأسر من كان بها من جنود أسبان⁽³⁾.

وبذلك انتهى عهد الدولة الحفصية التي حكمت البلاد أكثر من ثلاثمئة وخمسين عاماً، ودخلت تونس إلى حظيرة الإمبراطورية العثمانية.

وقبل أن يغادر سنان باشا تونس نظم شؤونها وأبقى فيها أربعة آلاف جندي إنكشاري ممن كانوا برفقته يسهرون على استمرارية ذلك النظام وحماية البلاد من الأخطار الأجنبية وخاصةً الخطر الإسباني، وأتاب القبطان سنان عنه في تونس حيدر باشا، فكان بذلك أول

(1) المرجع السابق، ص 152.

(2) عامر، المغرب العربي (الجزائر - تونس) مرجع سابق، ص 155، وعباد، مرجع سابق، ص 96.

(3) جلال توفيق قره صابان، (غير مترجم) ص 457.

الولاية العثمانيين هناك، وبعد أن أتم سنان باشا تنظيم أمور الإيالة الجديدة غادرها عائداً إلى إستانبول⁽¹⁾.

آ - مظاهر الحياة العامة في إيالة تونس سنة 1574-1705م :

1- النظام الإداري العثماني في إيالة تونس:

أ - عهد الباشوات (1574 - 1590م):

حكم إيالة تونس بعد انضمامها إلى الإمبراطورية العثمانية سنة 1574م والى عثماني نيابةً عن السلطان العثماني يحمل لقب باشا برتبة أمير الأمراء موفداً من إستانبول ومعه قرار تعيين لمدة ثلاث سنوات، وكان أول أمير أمراء لتونس هو حيدر باشا الذي عهد إليه سنان باشا برئاستها منذ البداية، كما عين سنان باشا قاضياً للأحكام الشرعية وهو العلامة حسين أفندي، وفي شؤون جباية الضرائب عين سنان باشا جابيا يلقب بلقب باي، أما السفن الحربية فكانت في عهدة قبودان ريس⁽²⁾.

وقد استمر حيدر باشا في حكم تونس حتى أواخر سنة 1575م، وكان سوء تصرفه لضبط أمور الأوجاق سبباً في إبعاده عن السلطة، ثم خلفه رجب باشا سنة 1576م الذي رحب به الأهالي في البداية إلا أنه سرعان ما خاب أملهم فيه بعد أن رأوا أعماله السيئة، لذلك لم تمض فترة طويلة حتى عين حيدر باشا للمرة الثانية مكانه الذي اهتم بأمور ولايته السياسية، والعسكرية والاقتصادية وكانت له مكانة محترمة عند أهالي الإيالة، ولكن لم يدم حسن سلوك حيدر باشا فساعت تصرفاته، وكثرت الاضطرابات في أواخر عهده الأمر الذي دفع الديوان الهمايوني إلى إصدار فرمان سنة 1577م بعزله وإعادة رمضان باشا إلى الحكم من جديد، الذي استمر حكمه لإيالة تونس لمدة عامين ثم عين جعفر باشا الذي استمر يحكم حتى سنة 1581م، ثم استبدل بمصطفى باشا الذي تظلم كثير من الأهالي من

(1) إسماعيل حقي أوزون تشارشلي، التاريخ العثماني، أنقره 1987، ج2، ص 417.

(2) عامر، المغرب العربي (الجزائر - تونس) مرجع سابق، ص 158.

تصرفاته، ووصل إلى هذا المنصب حسن باشا سنة 1585م، ثم محمد باشا سنة 1588م⁽¹⁾.

وعلى الرغم من أن جميع هؤلاء الباشوات الذين عُهدت إليهم مهمة التمثيل السياسي للسلطان العثماني؛ كانوا في المقام الأول في تراتبية الجهاز السياسي - العسكري العثماني في تونس، إلا أنه برزت منذ البداية ثنائية السلطة داخل هذا الجهاز، فإلى جانب الباشا كان الأغا رئيس الديوان^(*) الذي كان محل السلطة الحقيقية⁽²⁾، حيث تحول من مجلس عسكري أعلى له صلاحيات سياسية إلى هيئة عسكرية تنفيذية صاحبة القرار في جميع شؤون الإيالة.

وقد تداول على رئاسته العديد من الضباط تحكموا في الديوان واستبدوا بالعساكر واستهانوا بهم، بل واحتكروا القرار والامتيازات على حساب الجند والأهالي، وكان من الممكن أن يتحمل الأهالي كل هذا لو أن الظلم بقي مقتصرًا على العامة، غير أن الضرر تجاوزهم ووصل إلى العسكر وأقربائهم⁽³⁾، ووصل الأمر إلى تكليف العساكر بخدمة خيول ضباطهم فزاد من هيجانهم واحتجاجهم وانتهى بهم الأمر إلى القيام بانقلاب عسكري ضد قياداتهم، فعندما اجتمع أهل الديوان نفذ العساكر خطتهم فدخلوا عليهم على حين غفلة وقتلوا منهم ثمانين رجلاً وكان ذلك في أكتوبر سنة 1591م⁽⁴⁾، عرفت في التاريخ بثورة العساكر، والتي نتج عنها تغير في الهيكل الإداري لإيالة تونس حيث تحولت السلطة من الباشوات إلى ضباط صغار عرفوا بالدايات⁽⁵⁾.

(1) سجلات الديوان الهمايوني، دفتر رقم 24، ص 72.

(*) الديوان، جهاز سياسي عسكري يضم جميع رؤساء الدوائر في الدولة والأعيان، وينافس المسائل السياسية المهمة، عامر، مرجع سابق، ص 224.

(2) توفيق البشروش، جمهوريات الدايات في تونس 1591-1675م، تونس 1992م، ص 50.

(3) أسعد أفندي، خلاصة أحوال تونس، استانبول 1327، ص 58.

(4) سجلات الديوان الهمايوني، رقم 66، ص 149.

(5) سجلات الديوان الهمايوني رقم 74، ص 62-64.

ب - عهد الدايات (1590-1631م):

بعد نجاح الانقلاب الذي قام به العساكر سنة 1590. 1591م تحزبوا أحزاباً وصار كل حزبٍ منهم له رئيس يدعى باسم الدايا⁽¹⁾، وحاول كل حزب الانفراد بالسلطة ثم استقر الرأي على تعيين أحد الدايات وهو إبراهيم رودسلي الذي يعد أول من تولى هذا المنصب في تونس سنة 1591م، ويوصف بالذكاء والشجاعة اللذين مكناه من فرض هيئته على الإيالة لمدة ثلاث سنوات، وعندما أخفق في فرض نفوذه على الضباط غادر الإيالة متجهاً شرقاً للحج⁽²⁾.

ولم يكن خلفه موسى داي بأسعد منه حالاً فقد خرج هو الآخر من الإيالة للحج سنة 1594م، وبعودته إلى الإيالة عاد النزاع بينه وبين أعضاء الديوان، واستمرت تلك الأوضاع المضطربة على ما هي عليه في إيالة تونس حتى وصل عثمان داي إلى أريكة الحكم سنة 1598م بعد أن تغلب على سلفه الدايا موسى بنفيه إلى إيالة الجزائر والقضاء على مشاغبات الضباط وتجاوزات العساكر، فساد الهدوء والاستقرار أرجاء البلاد. كما بذل جهداً كبيراً في تعمير الإيالة وأصدر قوانين منظمة استراح لها الأهالي، وعندما قصد الأندلسيين المطرودين من الأندلس إيالة تونس في عهده وفر لهم حياة آمنة، فأقطعهم الأراضي ووهبهم الأموال اللازمة⁽³⁾.

وعقب وفاة الدايا عثمان عين يوسف لمنصب الدايا سنة 1610. 1630م الذي سار على منواله وسجل صفحة طيبة عن تاريخ الدايات في إيالة تونس، فطبق النظام واستتب الأمن وأعطى للأهالي حرية التنقل والعمل حتى لقبوه بـ(مولاي يوسف) لحبهم الشديد له،

(1) أسعد أفندي، المصدر السابق، ص 105.

(2) التر، ترجمة الحاج عبد السلام أدهم، ج2، مصدر سابق، ص 292.

(3) التر، الأتراك العثمانيون، ترجمة عبد السلام أدهم، ص 292.

وتحسنت أحوال البلاد في عهده من مختلف النواحي الاقتصادية والعمرانية والعسكرية والتجارية⁽¹⁾.

وفي عهده اشتد الخلاف على الحدود بين إيالة الجزائر وتونس، ففي سنة 1627م وقع صدام قوي بين الطرفين أسفر عن عشرات القتلى ومئات الجرحى، ثم توصل حكامهما إلى الاتفاق وعقد صلح بينهما، وبوفاته انتهت فترة حكم الدايات في إيالة تونس وظهرت سلطة أخرى سيطرت على الحكم وهي سلطة البايات⁽²⁾.

ج - عهد البايات (1631 - 1705م):

عمل يوسف داي بعد توليه إدارة الإيالة على تعيين أحد صغار الموظفين وهو مراد كورسو لمنصب الباي، واقترن ظهور الباي بمهمة قيادة الأمحال وإخماد ثورات العصيان وجباية الضرائب في أوقاتها والمحافظة على استمرارها.

وقد قام مراد باي بتنفيذ تلك المهام على أحسن وجه لاسيما قمع القبائل المتمردة كقبائل جبل وسلات وعمدون وأولاد سعيد وأولاد بالليل، والشيء نفسه قام به ابنه حمودة الذي كان قائداً عسكرياً منذ أن كان والده باياً، فقد قام في سنة 1626م بضرب تلك القبائل المتمردة لدرجة أن السلطان مراد الرابع (1623. 1640م) هب مذعوراً من كثرة الضحايا، كما ألزم حمودة باشا قبائل العربان والبربر بدفع الضرائب المقررة عليهم⁽³⁾.

وعقب وفاة عثمان داي سنة 1631م تولى مراد الأول لمنصب البيك، إلا أنه سرعان ما عاد إلى منصب الباي وتنازل عن منصب البيك لابنه حمودة بيك كبديل له، واضطرت الحكومة العثمانية للموافقة على تلك الأوضاع التي تضمن لها ربحاً جبانياً دائماً.

(1) أحمد بن أبي الضياف، إتحاف الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، منشورات الشؤون الثقافية والأخبار، تونس 1963م، ص 27.

(2) عامر، المغرب العربي (الجزائر - تونس)، مرجع سابق، ص 28.

(3) سجلات الديوان الهمايوني، علم وخبر دفتري رقم 57، ص 18.

واصل حمودة باشا نهج أبيه في قمع القبائل المتواجدة على أطراف الإيالة، وشن عليها العديد من الهجمات امتدت من سنة 1631م إلى سنة 1645م فخافت تلك القبائل سطوته وخضعت للجباية والطاعة⁽¹⁾.

كما عمل حمودة باشا على الاهتمام بأمور إيالة تونس وخاصةً بالناحية الدفاعية من حصون وأبراج ومشروعات عمرانية أخرى منها المستشفى والمسجد وإلى غير ذلك من الأعمال المهمة⁽²⁾.

وبعد هدوء الأحوال تنازل حمودة باشا عن الحكم لابنه مراد الثاني سنة 1663م، بعد أن حكم 32 عاماً وهي أطول مدة يقضيها حاكم لهذه الولاية في عهد البايات.

أما عن حفيده مراد الثاني فقد اتصف بالشجاعة، وأصبح صاحب القرار يولي ويعزل من يشاء من الدايات، فبادر بتعيين محمود بيك في منصب الداوي، وقد أخفق في مهامه فخلعه سنة 1669م وعوضه بالحاج شعبان خوجة الذي حاول الانقلاب عليه فقام مراد الثاني بنفيه إلى زغوان سنة 1672م وعيّن مكانه محمد المنتشه⁽³⁾.

وقد تمكن مراد الثاني من تحقيق النصر على خصومه وأنهى الصراع المتواصل الذي كان بينه وبين الدايات، الذين حاولوا الانتفاض على سلطته بعد أن سالت دماء غزيرة بين الجانبين، واستمر يضرب بشدة وقسوة كل من يخالف النظام إلى أن توفي سنة 1675م⁽⁴⁾.

وبوفاة مراد الثاني اندلع الصراع على السلطة داخل الأسرة المرادية، فكان بين الأخوين محمد بن مراد الابن الأكبر وشقيقه على من جهة، وعمهما محمد الحفصي من جهة أخرى، ولم يستقر الأمر لمحمد باي الذي رشحه الديوان لحكم إيالة تونس سنة 1675م، فقد زاحمه

(1) أبي الضياف، أخبار الزمان، مصدر سابق، ص 36.

(2) علم وخبر دفتري، رقم 60، ص 33.

(3) عامر، المغرب العربي (الجزائر - تونس) مرجع سابق، ص 174.

(4) أبي الضياف، مصدر سابق، ص 43.

في حكم إيالة تونس أيضاً عمه محمد الحفصي، وكذلك الداوي أحمد شلبي في سنوات 1674-1686م وصهره ابن شكر في 1694-1695م⁽¹⁾.

وقد انتهى الأمر بانتصار محمد باي على خصومه واستطاع استعادة الحكم الذي ضاع منه مراراً لإيالة تونس، إلا أنها لم تشهد الاستقرار السياسي في عهده نتيجةً لنشوب الفتن الداخلية والتدخلات التي كانت تتم في شؤونها العليا من جانب الدولة العثمانية وإيالة الجزائر، الأمر الذي زعزع الأمن والاستقرار في إيالة تونس⁽²⁾.

وعقب وفاة محمد باي سنة 1696م عين رمضان باي الذي كان ضعيف الشخصية، فمال إلى حياة اللهو الأمر الذي عجل من نهايته التي كانت على يد أنصار ابن أخيه مراد الثالث الذي عين مكانه⁽³⁾.

وصل إلى الحكم مراد الثالث المشهور بصاحب البالة سنة 1699م، وكانت سيرته سيئة للغاية، فعانى أهالي الإيالة من ظلمه ويطشه، وعرف عنه أيضاً بسفكه للدماء فكان يقتل أي شخص لمجرد الظن أو من غير سبب، ولديه سيف اسمه البالة فإذا مر يوم ولم يلطخه بالدماء قال (إن البالة قد جاعت) فيخرج ويقتل من يجده بكل وحشية. وفي أواخر أيامه قاد حملة ضد الجزائر سنة 1702م، إلا أنها فشلت وأودت بحياته عندما تأمر عليه الجند وهم عائدون في الطريق فقتلوه وتخلصت من شره البلاد والعباد⁽⁴⁾.

خلفه في حكم إدارة الإيالة الباي إبراهيم الشريف سنة 1702م، وكان أيضاً رجلاً ظالماً وفاسداً، ولم يحقق أي إنجاز هام داخل الإيالة، وقد مكث في الحكم مدة ثلاث سنوات، ثم

(1) بن خروف، مرجع سابق، ص 51.

(2) المرجع السابق، ص 58.

(3) علم وخبر دفتري رقم 91، ص 154.

(4) أبي ضياف، مصدر سابق، ص 178.

دُعي حسين بن علي من قبل أهل الحل والعقد لتولي الحكم في تونس سنة 1705م، وهكذا قامت الدولة الحسينية التي توارثت الحكم في تونس.

2- اقتصاد إيالة تونس ومواردها المالية:

الجانب الأول - الضرائب: تعد الضرائب في إيالة تونس قليلة بالمقارنة مع إيالة الجزائر وطرابلس آنذاك، وخاصةً في فترة الباشوات التي امتدت من سنة 1574 - 1590م، لأن الباشوات لم يستطيعوا مد نفوذهم على كامل تراب الإيالة وبقيت مناطق الدواخل تحت سيطرة القبائل المعارضة لدفع الضرائب⁽¹⁾.

وعلى اعتبار الضرائب من أهم موارد الخزينة فقد اهتم بها الباشوات لدرجة أن الباشا كان يقوم بنفسه على رأس الجيش بجباية الضرائب وذلك قبل إحداث خطة الباي، فقد ذكرت وثيقة وجوده خارج العاصمة ووصفته بباشا الجيش، والاهتمام نفسه في عهد الدايات حيث قام عثمان داي بمنع الزوايا من جباية ما اعتادت جبايته لنفسها من ضرائب تجمع من الأهالي، معتبراً ذلك الإجراء المالي أو تلك الضرائب تقلل من دخل الدولة⁽²⁾.

وكانت الضرائب التي تجبى من الأهالي تستخدم في الصرف على مصالح الولاية وعلى أوجه الإنشاء والتعمير والرواتب والمخصصات وتجهيز الحملات.

وبما أن أرض إيالة تونس كانت تابعة للإسلام فلم تفرض عليها الدولة العثمانية أموالاً تدفع لخزينتها كما كان يحدث مع باقي الإيالات، بل كان كل ما يفرض عليها هو إرسال كمية من الزيت بقصد إنارة المسجد الكبير في الجزائر.

(1) نبيهة السلطاني، القوة العسكرية بتونس وتكاليفها المالية 1756-1814م رسالة دكتوراه غير منشورة، تونس 2000م، ص 36.

(2) إسماعيل حقي أوزون تشارشلي، أوجاق الغرب (غير مترجم) أنقرة 1967م، ص 153.

الجانب الثاني: فيمثل ما يقوم به أهالي إيالة تونس من أعمال الزراعة والصناعة والتجارة. فإيالة تونس كانت تعتمد على الزراعة أكثر من غيرها من الولايات الأخرى نظراً لطبيعتها المناخية وملائمة تربتها للزراعة، وزاد من تحسين الزراعة قدوم أعداد كثيرة من المهاجرين الأندلسيين في أواخر القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر إلى إيالة تونس؛ بل وإلى كافة مناطق المغرب العربي، فكانوا يتقنون الزراعة وعملوا على اصطلاح الأراضي بما في ذلك إيالة تونس وزرعوها بأشجار الزيتون وإحداث البساتين⁽¹⁾.

وقد ارتبطت الزراعة في تونس بطبيعة ملكية الأرض وتقسيمها، فكانت هناك الأراضي الخصبة المحيطة بالمدن حيث توجد الحاميات العسكرية وتزرع هذه الأراضي بالاعتماد على الأهالي بالسخرة أو يحصلون على خمس الإنتاج، وكانت هناك الأراضي التي تصدر من قبل القبائل تمنح لكبار الموظفين الذين يستخدمون الأهالي لزراعتها بالسخرة أيضاً أو الحصول على خمس الإنتاج أو تمنح هذه الأراضي إلى القبائل مقابل تقديم الولاء والضرائب وجزءاً من المحاصيل، وهناك الأراضي التابعة لقبائل معينة تمارس نشاطها الزراعي والرعي⁽²⁾.

كانت الحبوب والخضروات والفواكه أهم منتجات تونس، وقد أسهمت هذه المحاصيل بنصيب كبير في التجارة الداخلية والخارجية، كما كانت هذه المحاصيل توفر المؤن للحملات العسكرية وأثناء الحروب، وخاصةً القمح والشعير الذي كان يصنع منه البشماط وهو الخبز المجفف الخاص بالرحلات البحرية والحروب⁽³⁾.

(1) أرشيف رئاسة الوزراء، استانبول، عينيّات دفتري، نمرة 213، ص 57.

(2) عبد المالك التميمي، الخليج العربي والمغرب العربي، دراسات في التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي، قبرص 1986م، ص 174.

(3) مجموعة مؤلفين، البحرية العثمانية ومهامها، استانبول 1922م، ص 70.

أما عن الصناعة في تلك الفترة فقد شهدت انتعاشاً في القرن السادس عشر كان مراده توافد الأندلسيين المهاجرين أيضاً حيث أسهموا في نقل مهاراتهم إلى إيالة تونس فأتقنوا صناعة الشاشية ونسج الحرير ونقش الرخام والجبس⁽¹⁾.

وعلى الرغم من أن هذه الصناعات كانت أغلبها صناعات يدوية بعيدة عما وصلت إليه الصناعة الأوروبية حتى قبل الثورة الصناعية، إلا أنها وفرت للإيالة أرباحاً مالية ضخمة⁽²⁾.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الدولة العثمانية أولت طوال تاريخها اهتماماً كبيراً للحرف والصناعات التقليدية بهدف خدمة الدولة، أي خدمة الفئة الحاكمة الذين يستعملون هذه النقابات للحصول على خدمات أعضائها من الحرفيين ليس ضمن مهنتهم فحسب؛ بل أحياناً في حروب الدولة العثمانية، فالسلطان مراد الرابع 1617-1648م أمر في عام 1638م أن تقوم النقابات بمساعدته في الحرب ضد إيران⁽³⁾.

وعن التجارة فقد شهدت تونس عقب السيطرة العثمانية ازدهاراً شمل التجارة الخارجية والداخلية، وغدت مركزاً تجارياً مهماً على البحر المتوسط، ويعود ذلك إلى عدة عوامل داخلية وخارجية منها وفرة رأس المال، وحرية الاستيراد والتصدير، والاستقرار وتدعيم هذا النشاط التجاري بقوة حربية وهي قوة الحروب البحرية وعدم وجود منافسة قوية⁽⁴⁾.

بالإضافة إلى موقعها الذي شكل رابطاً تجارياً بين الشرق والغرب وتجارة أوروبا. فارتبطت بعلاقات تجارية مع مصر للتجارة في الزيت والشاشية والمنتجات الجلدية، كما كانوا يصدرون إلى المغرب الأقصى المنتجات الشرقية من توابل ومنسوجات مصرية⁽⁵⁾.

(1) أرشيف رئاسة الوزراء، عينيّات دفترية، رقم 422، ص 89.

(2) أوغلو (واردات وصادرات) مرجع سابق، ص 155.

(3) البربار، مرجع سابق، ص 31.

(4) عبد المالك التميمي، مرجع سابق، ص 177.

(5) أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطفي فرج، القاهرة 1991م، ص 78.

أما عن التبادل التجاري مع أوروبا فقد تميز بتوقيع معاهدات سلم وتجارة بين الطرفين، فعقدت معاهدة مع فرنسا سنة 1602م، وتم تجديدها سنة 1665م، ومع هولندا سنة 1662م، ومع إنجلترا سنة 1662م أيضاً وتم تجديدها سنة 1682م⁽¹⁾. وقد أسهمت هذه المعاهدات في منح امتيازات وتسهيلات تجارية انعكست على انفتاح التجارة الخارجية لإيالة تونس، كما استفاد التجار الأوروبيون الذين اعتمدوا على قناصلهم داخل الإيالة، في الحفاظ على امتيازاتهم وعلى الحقوق التي تخولها لهم هذه المعاهدات. وبذلك توافد هؤلاء التجار إلى إيالة تونس، وكان لهم حي خاص بهم يقع على مقربة من الميناء، وكان من بينهم موظفون تعينهم الحكومة الأجنبية للإشراف على التبادل التجاري⁽²⁾.

وتفيد سجلات المواني الأوروبية (مالطا وجنوة وعلى وجهة الخصوص لقورنا ومرسيلية) أن عدد السفن القادمة إليها من السواحل التونسية قد تصاعد اتجاهه من 1606 إلى 1621م، فقد وصلت سنة 1621م ميناء لقورنا 27 سفينة تونسية تجارية وبين سنتي 1614 - 1616م تلقت مرسليليا 11 سفينة تونسية.

ثم بدأ فجأة بالتراجع من سنة 1621 حتى 1640م، ثم ينعرج متردداً إلى الارتفاع حتى سنة 1690م، حيث وصل عدد السفن التونسية الراسية بمياه ميناء لقورنا إلى 31 سفينة سنة 1653م⁽³⁾.

وتوزعت حركة الموانئ التونسية بين 14 نقطة ساحلية متفاوتة الأهمية في ما بين 1654-1672م، واحتلت تونس المرتبة الأولى ثم سوسة في المرتبة الثانية ثم صفاقس ثم بقية النقاط الأخرى، وقدرت جملة المراكب 374 قطعة⁽¹⁾.

(1) صباح ناجي زاده، الامتيازات الغربية في الدولة العثمانية وولاياتها (غير مترجم) أنقرة 1984م، ص 550.

(2) نقولا زيادة، أفريقيات (دراسات في تاريخ المغرب والسودان) الرياض 1991م، ص 54.

(3) البشروش، جمهوريات الدايات، مرجع سابق، ص 110-111.

وطبيعي أن يكون بجانب هذه التجارة الخارجية تجارة داخلية التي كانت تتم في الأسواق التي تتصف بميزة التخصص المهني والتركيز الجغرافي، حيث كان الحرفيون أو التجار الذين يمارسون النشاط نفسه، فيلجئون إلى التجمع في مكان واحد، وأغلب هذه الأسواق كانت تتركز حول الجامع الكبير في إيالة تونس⁽²⁾.

ومن أشهر أسواقها آنذاك السوق الذي أنشأه حمودة باشا المعروف بسوق الجديد الذي كان في غاية الأحكام والإتقان وتباع فيه السلع الرئيسية، وسوق الترك وبه جامع جلل الذي أسسه يوسف داي⁽³⁾.

الجانب الثالث: غنائم الجهاد والحروب البحرية فقد شكلت ركناً أساسياً في اقتصاد الإيالة كونها منطلقاً للمغامرة القرصنية المتوسطية وحتى الأطلسية، واشتهرت بذلك النشاط الذي أشرف عليه الأمراء واستفادت منه البلاد، لا من حيث الغنائم والعائدات فحسب؛ بل أيضاً من حيث التقنيات الحربية والخبرات البشرية، حيث تكونت أجيال من القراصنة العارفين بتقنيات البحرية والحربية معاً.

وعلى الرغم من توقيع العديد من الاتفاقيات السلمية مع الدول الأوروبية إلا أن هذه الاتفاقيات لم تتجح في ضمان أمن السفن بشكل نهائي، حيث قام بحارة تونس؛ بل وبحارة الجزائر وطرابلس بخرق بنود هذه الاتفاقيات، ففي بداية القرن السابع عشر الميلادي استولى بحارة إيالتي تونس والجزائر بمفردهما بين سنتي 1621-1623م على 447 مركباً هولندياً و 193 مركباً فرنسياً و 120 مركباً إسبانياً و 60 مركباً إنجليزياً. وقد حقق بحارة تونس من خلال نشاطهم البحري مكاسب ومغانم كبيرة زادت من ارتفاع إيرادات الإيالة⁽⁴⁾.

(1) المرجع السابق، ص 111.

(2) ريمون، مرجع سابق، ص 178.

(3) نيكولاي إيليش بروشين، تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص 89

(4) التر، الأعمال البحرية في أوجاق الغرب، استانبول 1956م، ص 174.

3 - مظاهر الحياة الثقافية في إيالة تونس:

لم تكن المدارس العثمانية الحديثة أولى الخطوات في مجال التعليم في تونس، فقد سبقتها مؤسسات التعليم الديني بمئات السنين، فكان هناك الكتاتيب، والزوايا، والمساجد التي اهتمت بتدريس العلوم الدينية من علوم القرآن الكريم، والفقه، والسنة النبوية، والآداب والنحو والصرف.

يبدأ الطالب أولى مراحل تعليمه في الكتاتيب، وهي الأكثر انتشاراً في الأوجاق تقام بجهود فردية أهلية يوقفها أصحابها على تعليم أبنائهم، ويتولى الطلبة أنفسهم وأهلهم الصرف على عملية تعليمهم، كما يقوم الأهالي أيضاً برعايتها لمصلحة أولادهم⁽¹⁾.

وفي إيالة تونس كان نظام الكتاب الحفصي مستمراً في العهد العثماني، كما كان الكتاب ينقسم إلى بلدي وأندلسي، فالبلدي هو التونسي يمتاز بالبساطة، والأندلسي يمتاز بالأناقة ورشاقة البناء والزخرف⁽²⁾.

وبخصوص النظام التعليمي بها فيتعلم الطالب مبادئ اللغة، وحفظ القرآن، والخط وكذلك النحو، وهذا القدر الأدنى الذي يمكن تشبيهه بالتعليم الابتدائي، يسمح له بمواصلة التعليم في المسجد⁽³⁾.

أما عن المساجد ودورها الكبير في نشر التعليم فعلى الرغم من تعرضها للأذى خلال الاحتلال الإسباني لتونس باستباحتها وتدميرها ومن منافسة المدارس والزوايا لها، إلا أنها حافظت على أهميتها عبر العصور وتعددت وظائفها كالعبادة والتدريس والإفتاء والقضاء. ويبدو أن التعليم بالمسجد له حرية شبه مطلقة فالطالب ليس مرغماً على الحضور

(1) نجاح القابسي، المعاهد والمؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي، بغداد 1981م، ص 177.

(2) محمد الباجي بن مامي، مدارس مدينة من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني، رسالة ماجستير غير منشورة، تونس 1981م، ص 20.

(3) المرجع السابق، ص 22.

والانصراف في موعد مّعين، وهو غير مقيّد بالحضور لأستاذ دون آخر فيحضر للشيخ الذي يعدّ أفضل من غيره ويستطيع أن ينتقل إلى حلقة شيخ آخر⁽¹⁾.

ومن أشهر المساجد في إيالة تونس جامع الزيتونة ومساجد أخرى صغيرة كانت منتشرة بأحياء تونس، ولعل عدداً منها كان معروفاً باسم الشيخ الذي يتولى بها الإمامة أو التدريس أو كليهما مثل مسجد ابن حبيش. ومن مساجد تونس أيضاً جامع يوسف داي وجامع حمودة باشا التي بنيت في العهد العثماني⁽²⁾.

وإلى جانب التعليم في الكتاتيب والمساجد كان هناك التعليم في الزوايا الذي انتشر في تونس وكانت تنسب إلى شيخ أو إلى ولي أو إلى طريقة صوفية كما هو معروف في إيالات الغرب، ومن أشهر الزوايا في تونس زاوية الجليزي نسبة إلى أبو القاسم الجليزي، وزاوية سيدي منصور بن جردانفي المتوفى في سنة 1498م⁽³⁾.

وبالجانب الأكثر أهمية في مظاهر التعاليم والثقافة تقف المدارس التي تزايدت أعدادها في الإيالة، وكانت موروثه من العهد الحفصي وفي مقدمتها مدرسة جامع الزيتونة وكان يأتيها الطلاب لاستكمال المعلومات والتتلمذ على كبار الأساتذة، فكانت مركزاً للتعليم داخل البلاد وخارجها حيث تعج كتب التراجم بأسماء الطلبة الجزائريين الذين درسوا بالزيتونة ومنهم الشيخ ساسي المقرئ الذي قدم لتونس سنة 1689م، وكذلك الشيخ محمد الشريف الحمري سنة 1682م والشيخ محمد العنابي الضير سنة 1684م⁽⁴⁾.

(1) بن مامي، مرجع سابق، ص 23-24.

(2) تقرير نظارة الأوقاف عن التعليم في تونس في القرن الثامن عشر، استانبول، مكتبة نور عثمانية، رقم 14792، روقة 32.

(3) بن مامي، مرجع سابق، ص 29-30.

(4) خوجه، مصدر سابق، ص 169.

وكذلك طلاب المغرب الأقصى الذين توافدوا للدراسة بمدرسة جامع الزيتونة نذكر منهم الشيخ أحمد التدغي الذي جاء لتونس سنة 1650م، الشيخ سيدي عبد الله بن محمد، وغيرهم ، وإلى جانب مدرسة جامع الزيتونة برزت القيروان بمدارسها⁽¹⁾.

وهناك مدارس أخرى أسسها السلاطين والدائيات والبايات والتي كان يتصرف فيها ويشرف عليها بصورة عامة النظام الحاكم ومن أهمها المدرسة اليوسفية التي أنشأها يوسف داي والمدرسة المرادية التي بناها مراد الثاني في مكان القشلة بالقرب من سوق القماش.

(¹) علم وخبر دفتري، رقم 879، ص 40.

استنتاج الفصل الأول

صحيح أن العثمانيين تملكوا مناطق الأناضول والروملي بشجاعتهم وتصميمهم على إقامة دولة جسدها أورخان بن عثمان (1324-1359م) عندما احتل بورصة وجعلها عاصمة ملكه، ومنها انطلق ليضع أسس جيش نظامي يمكنه من الدفاع عن دولته المنشودة، لكن الأقدار لم تسمح له حيث توفي سنة 1359م ليخلفه ابنه مراد الأول (1359-1389م)، وقد أدرك مراد الأول أنه رؤية والده حكيمة، فعمل على تنفيذها سنة 1262م.

تمكن الجيش الذي جمعه من خلال نظام الدوشرمه والمسمى الإنكشارية أي (الجند الجديد) ومن خلال دأب السلاطين على تقويته وإعداده بشكل حوّل الدولة العثمانية من دولة إلى إمبراطورية ولا سيما عندما انطلق السلطان سليم الأول إلى خارج حدود دولته فغرب الفرس سنة 1514م ثم المماليك في سورية 1516م وفي مصر سنة 1517م وبما أن آل بربروس يعودون بأصولهم إلى الأتراك، فقد استغلوا وجودهم في الجزائر التي كان الإسبان قد عمدوا إلى احتلالها منذ سنة 1509م، ولنقل التوازن من قوة إلى قوة عمد خير الدين بربروس إلى طلب النجدة من السلطان سليم الذي لبي رغبة خير الدين بربروس ومده بعناصر من إنكشاريته مع سيف وهدايا كدلالة على قبول طاعة خير الدين بربروس له.

إن إعلان خير الدين بربروس طاعته للسلطان العثماني حمّل العثمانية مسؤولية حماية مناطق المغرب العربي من التعديات الإسبانية عليه، علماً بأن هذا العبء وسّع من أملاك الدولة وجعلها متاخمة إلى العالم الأوروبي كما أسهم في تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة تركية يسرح فيها رجالهم البحريون ويمرحون، آخذين الجزية والضرائب من السفن العابرة له.

سُم أهالي طرابلس مظالم الفرسان وتجاوزاتهم، فاستجدوا بالسلطان سليمان القانوني الذي لبي نداءهم، فكلف حملة بحرية برئاسة سنان باشا سنة 1551م بالتوجه إلى المياه الطرابلسية لطرد الفرسان، وقد قام سنان باشا بمهمته على أكمل وجه، فطرد الفرسان وغدت طرابلس الغرب ولاية عثمانية.

لظروف خارجة عن إرادة الدولة ونتيجة لتعاون واليها حسن باشا ومن بعده ابنه حميده الذي هو الآخر تعامل مع الإسبان وتأخر استيلاء العثمانيين على تونس حتى سنة 1574م. وهكذا خضع الشمال الأفريقي (مناطق المغرب العربي) للسيطرة العثمانية وقد تفاوتت الكتابات بشأن هذه السيطرة، وبالمجمل العام فإن العثمانيين وإن مارسوا نوعاً من الظلم على الشمال الأفريقي لأسباب خارجة عن إرادة السلطان الحاكم لأن عساكره التي خاب ظنها بالغنى الفوري عمدت إلى ممارسة الظلم وكانت تجمع الضرائب أكثر من مرة من الأهالي، لكن الوجود العثماني حال دون تمادي المبشرين من الفرنسيين والدومنيكان، وعدم خضوع مناطق المغرب العربي للسيطرة الأوروبية مبكراً.

ساء العثمانيون بولاتهم إلى أهالي الولايات الثلاث بكثرة الضرائب وعدم تطوير إدارة البلاد على الأقل مثل إدارة خير الدين وحكومته، لكن السلطان لم يكن يملك حيلة لضبط الإنكشارية وتجاوزاتها، وكانت حاشيته تصور له أن أهالي الولايات الثلاث لولا استخدام القوة حيالهم لأعلنوا تمردهم، وكلنا بعلم أن الملوك والحكام ينفذون رغبات الحاشية، ولهذا فلا الحاكم قادر على فهم الواقع ولا الحاشية قادرة على تحقيق رغائبها.

وسط هذا التجاذب ما بين المدح والذم عاشت ولايات المغرب العربي تحت رحمة الإنكشارية التي فقدت نظاماً وتخلت فعلياً عن مهامها وغدت تعمل كوسيط ما بين الحكومة والأهالي، وفي الوقت نفسه هم الحكام الفعليون، فجمعوا الحاكم والمحكوم بأيديهم.

عثمانيون سيطروا على المغرب العربي دون مقاومة محلية لاعتقاد الأهالي أنهم محررون، ولكن العثمانيين تولوا إدارة البلاد وكلفوا الأهالي دفع الضرائب للقصر السلطاني الذي يعج بقوى بشرية همها الوحيد الأكل والشرب وهذا الأكل ولايات المغرب وغيرها مسؤولة عن تأمينه.

الفصل الثاني

نشأة إنكشارية

مناطق المغرب العرب وقولو غليتها

أولاً: الإنكشارية :

- أ - نشأة الإنكشارية في الجزائر .
- ب - نشأة الإنكشارية في طرابلس الغرب .
- جـ - نشأة الإنكشارية في تونس .

ثانياً: القولو غلية :

- أ - نشأة القولو غلية في الجزائر .
- ب - نشأة القولو غلية في طرابلس الغرب .
- جـ - نشأة القولو غلية في تونس .

- استنتاج الفصل الثاني .

أولاً - نشأة الإنكشارية :

ترجع جذور تأسيس قوة الإنكشارية إلى المراحل الأولى في نشأة الدولة العثمانية، فعندما وضع عثمان بن أرطغرل (1281-1324م) أساس الدولة العثمانية التي اتخذت اسمها من اسمه، اعتمد على جند السباهية(*) في بادئ الأمر⁽¹⁾ بغية توسيع نطاق دولته الناشئة، ونتيجةً لقلّة أعداد هؤلاء الفرسان وانعدام خبراتهم العسكرية ونقص إمكانياتهم الحربية لمواجهة القوى الكبرى التي أعلنت عداؤها للدولة العثمانية، وخاصةً الدولة البيزنطية⁽²⁾ المجاورة لها، اضطر عثمان الأول للاستغناء عنهم وألغى ذلك النظام الإقطاعي العسكري القديم وحل محله نظاماً جديداً تمثل في إنشاء فرقة الخيالة والتي كانت تعرف باسم (الآقجي)⁽³⁾ وتم تمرينها على الحركات العسكرية لدرجة أنها اشتهرت بحسن انتظامها في الصفوف⁽⁴⁾ فكانوا فرساناً يحاربون على ظهور خيولهم بكل شجاعة ومهارة، بل إذا صح التعبير كانوا جريئين إلى حد التهور. وبالرغم من ذلك لم تأخذ صفة الجيش النظامي الذي يعتمد عليه وقت الأزمات؛ لأن هذه الفرقة لم تحمل السلاح بشكلٍ دائم، وإنما كانت تتجمع وقت الإعلان عن الحرب من تلقاء نفسها، رغبةً في الجهاد وإعلاء كلمة الإسلام، أو في الغنيمة، أو تخلصها من الضرائب⁽⁵⁾ التي كانت تدفعها بدلاً من استغلالها لنظام الإقطاع

(*) السباهية: عرف هذا النوع من الجنود منذ عهد السلاجقة، وفي المرحلة العثمانية عرفوا باسم الخيالة، كانوا يمنحون إقطاعات من أراضي الدولة مقابل خدماتهم في الجيش أعطيت لهم على أنها مرتبات. للمزيد أنظر: صائل محمد مخلوف، العساكر العثمانية في ولاية حلب 1623. 1798م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، 2006م، ص28.

(1) محمود على عامر، تاريخ الإمبراطورية العثمانية (دراسة تاريخية اجتماعية)، دار الصفدي للطباعة والنشر، دمشق، 2004م، ص30.

(2) أماني بنت جعفر بن صالح الغازي، دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية، دار القاهرة، القاهرة، 2007م، ص29.

(3) عامر، المرجع السابق، ص30.

(4) الغازي، المرجع السابق، ص36.

(5) عامر، تاريخ الإمبراطورية، مرجع سابق، ص 30.

كما كان الحال سابقاً، وعند انتهاء الحرب تتفرق هذه الفرقة وتعود إلى ممارسة أعمالها، ومهنتها المدنية من جديد وعندها لا يمكن التمييز بين أي عسكري من أفرادها، وبين أي مدني آخر داخل المجتمع العثماني؛ لأن هؤلاء الفرسان لم يكن لديهم لبس خاص أو طراز محدد تميزوا به أو وعادات⁽¹⁾ اختلفوا بها عن غيرهم من أبناء عشائهم في أوقات السلم والحرب على حدٍ سواء.

وبوفاة الغازي عثمان الأول الذي فتح معظم ولاية بروسه⁽²⁾ واصل ابنه السلطان أورخان (1324-1360م) ومن جاء بعده السير على سياسته المتمثلة في مواصلة الجهاد ضد البيزنطيين وفتح المزيد من أراضيهم، وعندما حقق هذا الأخير عدة انتصارات متتالية وتمكن من توسيع حدود دولته على حساب جيرانه⁽³⁾ أصبح في حاجة إلى فرقة عسكرية قوية تدافع وتهاجم معه غير فرقة الخيالة البدوية المؤقتة التي كان يعتمد عليها في السابق وحاجته أكثر إلى قوات مشاة ذات مقدرة عسكرية على فتح جميع القلاع والحصون والأسوار المنيعة، وتستطيع البقاء عند القيام بعمليات الحصار التي قد تستغرق مدةً طويلة، ومن أجل ذلك قام بعدة محاولات لتكوين قوة عسكرية نظامية محاربة من المشاة، لتواكب هذه المستجدات فجاءت أولى محاولاته بإنشاء فرقة مشاة مأجورة شكلها من رعايا الأتراك أطلق عليها اسم (بيادة) أو (اليايا) وأقام لها ثكنات عسكرية خاصة تقيم فيها على استعداد دائم للحرب⁽⁴⁾، ورتب لها عطاء شهرياً ثابتاً تأخذه من خزينة الدولة، كما خصص خمس الغنائم للإنفاق على هذه الفرقة وقسمها إلى وحدات⁽⁵⁾ وجعل لكل واحدة ضابطاً يرأسها، وفرض

(1) المرجع السابق، ص 31.

(2) عمر رضا كحالة، مباحث اجتماعية في عالمي العربي والإسلامي، مطبعة الحجاز بدمشق، 1974م، ص 319.

(3) الغازي، مرجع سابق، ص 49.

(4) سجلات الديوان الهمايوني، وثيقة رقم 1874، ص 19.

(5) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة، 1976م، ص 17.

عليها زياً عسكرياً خاصاً وأعفاها من الضرائب. وفي أيام السلم سمح لها بالعودة إلى أراضيها للقيام بالأعمال الزراعية⁽¹⁾، وكل هذه التنظيمات التي قام بها أورخان كانت تهدف إلى تحويل الفارس التركي إلى جندي مشاة نظامي قوي، يستطيع خوض غمار المعارك⁽²⁾، إلا أن محاولته الأولى باءت بالفشل ولم يكتب لها النجاح بالرغم من أن هذه الفرقة نجحت في تحقيق النصر تلو النصر منذ بداية تشكيلها الأمر الذي جعلها تشعر بالتميز والتعالي لمكانتها وأهميتها في بناء الدولة الفتية، لذلك رأت لنفسها الحق في المطالبة بمزيد من العطايا والامتيازات. ومع مرور الوقت أخذت تتراجع وتتقاعس عن الخروج للحروب التوسعية البعيدة عن إقطاعاتها⁽³⁾ وحتى وإن قامت بهذه المهمة التي أنشئت من أجلها فإنها تحبذ الرجوع من أرض المعركة بسرعة لمزاولة أعمالها الزراعية في إقطاعاتها؛ لأن واردات الإقطاع كانت تؤمن لها مصدر دخل جيد⁽⁴⁾ لذلك تحولت رغباتها إلى القيام بمثل هذه الأعمال، ولا داعي إلى العسكرية وأوامر الانضباط، كما أن هذه الفرقة أصبحت تنحرب إلى قبائلها التي تنسب إليها⁽⁵⁾، وأصبح أيضاً من الصعب جمعها في مكان معين بغية توجيه غارة فجائية على العدو وهي متناثرة في أطراف البلاد. ولم يكن لدى السلطان أورخان أي خيار سوى الاستغناء عنها والتفكير بمحاولة أخرى أكثر جدية وفائدة والأخذ بعين الاعتبار كل المعايير التي أفشلت تجربته الأولى، لذلك رأى أنه من الضروري لفرقة المشاة المحترفة التي ينوي تأسيسها، أن تكون نظامية دائمة الاستعداد والتواجد في حالة الحرب والسلم على حدٍ سواء، ولا عمل لها غير الجندية ولا هدف لها إلا الجهاد في سبيل الله، ولا ديناً غير

(1) محمود على عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، مرجع سابق، ص 32.

(2) الغازي، المرجع السابق، ص 47.

(3) سليم باش زاده، انهيار الإنكشارية وفسادها، أنقرة 1974م، ص 153.

(4) مخلوف، العساكر في حلب، مرجع سابق، ص 29.

(5) الغازي، المرجع السابق، ص 48.

الإسلام، ولا يخشى من تمردها ومن التفكير في أصولها وأسرها، وأن يتم تدريبها تدريباً عسكرياً خاصاً ليكونوا وسيلته في الحرب والحكم معاً⁽¹⁾.

وقد كانت فكرته تتضمن إيجاد نظام جديد مختلف تماماً على جميع الفرق السابقة القديمة السباهية والآقنجي واليايا، وهذا النظام الجديد استبدل بمصطلح العسكري الجديد أو الجندي الجديد وينطق باللغة العثمانية يكي جري (يني جري) اسم مركب من كلمتين الأولى يني وتعني جديد، والثانية جري تعني العسكر أو الجند⁽²⁾ وعند ترجمة هذا الاسم (يني جري) إلى العربية حُرّف نتيجة لاختلاف نطق الحروف إلى ينكرجية ومن تمّ إنكشارية، وأصبح هذا المصطلح العسكري يطلق على فرق المشاة النظاميين الجدد. أما عن تاريخ تأسيسها فإن المصادر العثمانية لا تسعفاً بذكر التاريخ الحقيقي لزمن تشكيل فرق الإنكشارية، إلا أن معظم آراء المؤرخين تشير بأنها تشكلت في منتصف القرن الخامس عشر أي في عهد السلطان أورخان (1324-1359م) ثاني سلاطين آل عثمان عندما جند ألف أسير الذين وقعوا في يديه تجنيداً دائماً⁽³⁾ وكان ذلك بتوجيه من أخيه الأكبر ووزيره الأول علاء الدين وقاضي العسكر جندرلي قره خليل⁽⁴⁾.

كما تتفق آرائهم بأن الدولة العثمانية لم يكن لها أي قوة عسكرية منظمة إلا مع بداية النصف الثاني من القرن الرابع عشر أي في عهد السلطان مراد الأول (1359-1389م) بالرغم من تشكيل فرق الإنكشارية قبل هذا التاريخ إلا أن تنظيمها لم يكتمل إلا في عهد هذا الأخير وأصبحت تحت إدارة منتظمة ولهذا عُد السلطان مراد الأول في نظر المؤرخين بأنه

(1) كحالة، مرجع سابق، ص 319.

(2) الغازي، المرجع السابق، ص 21-22.

(3) قد تكون فكرة تأسيس الإنكشارية من ذهنية أورخان إلا أن ابنه مراد الأول هو الذي نفذها فعلياً سنة 1362م، للمزيد، أوزون تشارشلي، مرجع سابق، ص 158.

(4) سونيا محمد سعيد البناء، فرقة الإنكشارية نشأتها ودورها في الدولة العثمانية من خلال المصادر التركية، إيتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م، ص 12-13.

المؤسس لفرقة الإنكشارية والفضل يعود إليه في ذلك، وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن فكرة تأسيس الإنكشارية تعود إلى السلطان أورخان وإلى ابنه وخليفته السلطان مراد الأول في ترسيخ أسسها ووضع قوانينها وتنظيمها⁽¹⁾.

وعلى أية حال فقد أصبح للدولة العثمانية جيش نظامي منذ ذلك التاريخ عرف بالجيش الإنكشاري^(*) له أسس صارمة على اختلاف أجناسه وقوانين جمعه وتجنيد، ففي عهد السلطان مراد الأول صدر قانون عرف بقانون (البنجيك)^(*) وتفيد بعض الدراسات أن هذا القانون صدر في سنة 1363م⁽²⁾ وهو ينظم عملية تجنيد الأسرى الذين يتم أسرهم في الحرب، وتحويلهم إلى جنود عثمانيين فيما بعد فقد نص على تخصيص خمس أسرى الحرب الذكور للدولة حسب الشريعة الإسلامية، أي يتم أخذ أسير من بين كل خمسة أسرى، ولا ينص هذا القانون على تحديد أعمار الخمس ولا مواصفاتهم من حيث البدانة والقوة، ولكن اشترط بأن يكونوا ذكوراً مع سلامة صحتهم وعلى أن يمنح هؤلاء الأسرى تربية إسلامية عسكرية ليصبحوا فيما بعد جنوداً إنكشاريين، وقد كان يطلق على الواحد من هؤلاء اسم (الولد البنجيك) أو (الغلام الأعجمي) أي الصبية الأجانب⁽³⁾.

(1) علاء موسى كاظم نورس، مدى مسؤولية الإنكشارية في تدهور الدولة العثمانية، المجلة التاريخية المغربية، العدد 25-26 السنة التاسعة 1982م، ص 100.

(*) انظر ملحق رقم (3) وبه صورة توضيحية للجيش الإنكشاري.

(*) وهو مصطلح مركب من كلمتين فارسييتين الأولى (البنج) وتعني خمسة، والثانية (ويك) وتعني واحد فيأتي المعنى كامل (البنجيك) أي اختيار واحد من كل خمسة أسرى، وهذا ما تعنيه عملية خمس الأسرى التي أطلق عليها العثمانيون البنجيك. للمزيد انظر: عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، مرجع سابق، ص 39.

(2) علي محمد إبراهيم، النظم الإدارية في الدولة العثمانية 1520-1687م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، 2007-2008م، ص 21.

(3) عامر، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، ص 34.

ومع مرور الوقت ظهرت طريقة أكثر فائدة لتنشئة هؤلاء الأسرى وهي إرسالهم للإقامة والعيش بين الأسر الفلاحية التركية ليتعلموا منها لغتها ودينها، فطبيعي عند اختلاطهم عن طريق خدمتهم كعمال أو مزارعين لتلك الأسر فإنهم مضطرون لتعلم اللغة العثمانية ويكتسبون بسرعة منها جميع تلك العادات والأعراف والتقاليد؛ بل وستحتم عليهم الضرورة بأن يعيشوا حياة البداوة التي تتصف بالشدة والخشونة، لأن مدة استمرارهم في خدماتهم هناك تتراوح من ثلاث إلى أربع سنوات فهي كافية لتعلم كل ذلك⁽¹⁾.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا إلى أن قانون البنجيك لم يمضِ وقت طويل على صدوره حتى فقد أهميته؛ لأن أعداد الأسرى بدأت تقل شيئاً فشيئاً؛ بل يؤكد بعض المؤرخين أنها أصبحت شبه نادرة خلال تلك الفترة⁽²⁾، هذا من جهة ومن جهة أخرى شهد عهد بايزيد الأول (1389-1402م) كثرة الفتوحات والتوسعات العثمانية ودخول دولته في حروب كبرى فكان في حاجة ماسة إلى عدد كبير من الجنود النظاميين وخاصةً بعد هزيمته في معركة أنقرة 1402م إذ قُدر أكثر من عشرة آلاف جندي، لذا رأى سلاطين تلك الفترة أن قانون البنجيك الذي نص على خمس الأسرى فقط لا يمكن من خلاله تعويض النقص الذي حدث في صفوف الجيش الإنكشاري وبالتالي لا يمكنهم الدفاع ولا القيام بفتوحات جديدة⁽³⁾.

وعلى هذا الأساس فقد القانون السابق أهميته، ورأى سلاطين تلك المرحلة ضرورة تعديله بمشروع قانون جديد يسمح لهم بالبحث عن مورد آخر يأتون من خلاله بعدد كبير من الشبان الأشداء، ومن أجل ذلك ظهر قانون التجنيد الجديد المطور المسمى بـ(الدفشمة) في منتصف القرن الخامس عشر وبالتحديد في سنة 1451م أي في أواخر عهد السلطان مراد الثاني (1421-1451م) وقد نص هذا القانون على جلب الأبناء الذكور من كافة

(1) إبراهيم، النظم الإدارية في الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص 22.

(2) عامر، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، المرجع السابق، ص 34.

(3) أولياء جلبي، مرآة التواريخ، استانبول 1372هـ، ص 412.

البلدان المسيحية الخاضعة للدولة العثمانية آنذاك وخاصةً من ألبانيا وبلغاريا واليونان ومقدونيا وصربيا والبوسنة والهرسك⁽¹⁾.

وقد حدد هذا القانون الشروط التي يجب مراعاتها عند انتقاء الشبان المسيحيين وعلى اللجنة المكلفة لهذا الغرض مطابقتها وعدم تجاوزها، وفي مقدمتها الشروط الخاصة بمسألة تحديد الأعمار بحيث لا تقل عن 8 سنوات ولا تزيد على 18 سنة، وفي حالة الضرورة لعدد أكبر منهم ألا تزيد عن 20 سنة، ثم تأتي البنود الخاصة بالحالة الصحية والتي تركز على البنية القوية لأجسامهم وخلوها من العيوب الخلقية، ومن جميع الأمراض وإلى غير ذلك من شروط الصحة الجيدة⁽²⁾.

وبالنسبة لحالات الاستثناء يستثنى جلب من كان وحيداً لأبويه أو من كان متزوجاً أو من كان لقيطاً أو من أصل يهودي أو أرمني⁽³⁾، أما عن وقت عملية جمع الشبان فقد حددها هذا القانون مرة كل ثلاث إلى خمس سنوات ولا يجوز تكرارها ضمن هذه المدة، وقد ركز هذا القانون على عملية تربيتهم وتدريبهم، فبعد إتمام عملية الجمع التي كانت تتم عن طريق عامل التجميع الذي يذهب إلى كل مدينة وقرية ويستدعي رؤساءها الذين كان عليهم استدعاء أرباب الأسر مع أبنائهم إلى مكان وجود هذا العامل ومن لا يأتي يعاقب فوراً⁽⁴⁾، وبعد ذلك يبدأ العامل وكتابه في اختيار من تنطبق عليه تلك الشروط ومن ثم تقوم هذه اللجنة بتسليمهم إلى الدولة، وبعد إتمام عملية تسجيلهم وعملية ختانهم وإعلان إسلامهم تبدأ مرحلة التعليم والتدريب⁽⁵⁾ فيتم إدخالهم في معسكرات خاصة يتدربون فيها على أعلى مستوى لفنون القتال ويتعلمون فيها مبادئ الدين الإسلامي واللغة التركية، ويستمر هذا الإعداد لمدة

(1) حنيفي هلايلي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، دار الهدى، الجزائر، 2007م، ص 10.

(2) أولياء جلبي، مصدر سابق، ص 435.

(3) عامر، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، ص 41.

(4) إيرينا بيتروسيان، الإنكشاريون في الإمبراطورية العثمانية، تقديم: قسم الدراسات والنشر بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، 2009م، ص 31.

(5) الهادي بن يونس الإنكشاري، الإنكشارية ودور الإنكشارية (إنكشارية جرية نموذجاً)، تونس 2009م، ص 145.

سبع سنوات⁽¹⁾ ثم يتخرجون من هذه المعسكرات حسب مؤهلاتهم فمنهم من يكونوا جنوداً في وحدات الإنكشارية ومنهم من يكونون خدماً في القصر ومنهم من يكونون موظفين كباراً في حكومة السلطان⁽²⁾.

وهكذا خلق السلاطين العثمانيون من هذا القانون جيشاً نظامياً شجاعاً مخلصاً للسلطان مدافعاً عن الدين الإسلامي وعن الدولة العثمانية، لذلك حظي نظام الدفشرمة باهتمام خاص من قبل هؤلاء السلاطين الذين أشرفوا بأنفسهم على مراقبته وتطبيقه بدقة⁽³⁾، دون إحداث أي تغيير في بنوده لفترة طويلة امتدت من منتصف القرن الخامس عشر إلى النصف الثاني من القرن السابع عشر⁽⁴⁾، وخلال هذه الفترة اعتمد هؤلاء السلاطين على نتائج الدفشرمة (الإنكشارية) في مقارعة أعداء دولتهم وتثبيت كيائها والمحافظة على النظام في الولايات التي سيطرت عليها دولتهم عندما أصبحت الإنكشارية قوة كبيرة وصل تعدادها 27 ألف آنذاك بعدما كانت في أول تأسيسها لا تتجاوز أعدادها ألف جندي⁽⁵⁾ ثم بدأ هذا العدد في التزايد ليصل إلى ثلاثة آلاف عشية فتح القسطنطينية سنة 1453م وإلى ثمانية آلاف في أواخر أيام السلطان سليم الأول (1512-1520م) ثم ارتفع ليصل إلى 27 ألف جندي في عهد السلطان مراد الثالث (1575-1595م) والذي يعد عهده في نظر المؤرخين عهد ازدهار الجندي الإنكشاري⁽⁶⁾، إلا أن مؤشر التزايد لأعداد الإنكشارية قد توقف مع مطلع القرن السابع عشر عندما ألغت الدولة العثمانية نظام الدفشرمة وأسدل الستار عن هذا النظام نهائياً بسبب تغير أسس هذا النظام في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر

(1) عامر، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، المرجع السابق، ص 42.

(2) نورس، مرجع سابق، ص 100.

(3) عامر، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، ص 43.

(4) البناء، المرجع السابق، ص 23.

(5) تشارشلي، أوجاق الغرب، مرجع سابق، ص 350.

(6) المرجع السابق، ص 74.

عندما سمح لأبناء الإنكشارية وللعناصر المسلمة وعامة الناس بالانخراط في سلك الإنكشارية ولا يشترط للدخول سوى اللياقة البدنية والتطوع⁽¹⁾ دون قوانين الدفشمة الأخرى، وطبيعي أن تكون عاقبة ذلك وخيمة فقد أصبح هؤلاء المنخرطون الجدد مرضاً داخل جسم الإنكشارية القدامى، فأضعفوا صفوفها وشوهوا صورتها وأفسدوا نظامها⁽²⁾ وأربكوا خزينة الدولة بأعباء رواتبها لأنهم ضاعفوا أعدادها، وكل ذلك تزامن مع فترة الظروف المالية الصعبة التي تشهدها البلاد، ولم يكن أمام سلاطينها فعل أي شيء إزاء ذلك الوضع المنهار فكان من الطبيعي أن تؤدي تلك الظروف إلى حرمان الإنكشارية من رواتبها في أكثر من مرة وخاصة في أوقات السلم وبالتالي أعلنت عصيانها وثوراتها⁽³⁾ في وضح النهار دون أي خوف.

وهكذا وبدون قصد أسهم سلاطين تلك المرحلة في زيادة تدهور تلك القوة وزادوا من لهيب ثوراتها فارتفعت عصا الطاعة؛ بل جردت السيوف في وجوههم، ومنذ ذلك الحين عد الجنود الإنكشاريون مصدر شرٍ وبلاء للدولة بعدما كانوا حُماةً لها.

وعن إنكشارية مناطق المغرب العربي فقد عرفت الإيالات العثمانية المغربية الثلاثة الجزائر، طرابلس الغرب، تونس، نظام الجيش الإنكشاري كغيرها من الإيالات العثمانية الأخرى الذي كان يتولى حماية المناطق التابعة للعثمانيين، وقد لعب الجيش الإنكشاري التي تميزت به الدولة العثمانية دوراً أساسياً منذ مجيء العثمانيين إلى مناطق المغرب العربي فعادوا الدعامة التي استند إليها ولاية المغرب العربي وخلفائهم في فرض سيطرتهم على

(1) جميلة معاشي، الإنكشارية والمجتمع ببإليكية قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، 2007-2008م، ص 10.

(2) الغازي، المرجع السابق، ص 165.

(3) عامر، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، ص 44.

مناطق⁽¹⁾ وإرساء قواعد الدولة، وكانوا يتوافدون عليها باستمرار كلما دعت ضرورة أمن هذه الإيالات⁽²⁾.

ويعدّ الجيش الإنكشاري في مناطق المغرب العربي صورة من الجيش العثماني في استانبول⁽³⁾، وإن كان تنظيمه بدرجات أقل مما هو عليه بالعاصمة، وقد كانت الحامية التي استقرت في هذه المناطق نواة هذه القوات، ومنذ بداية استقرار فرقة الإنكشارية في هذه المناطق أصبح يطلق عليها اسم أوجاقات باعتبار أن مصطلح أوجاق الذي كان استعماله شائعاً في الدولة العثمانية بمعنى الجيش النظامي أو بمعنى فرقة من فرق الإنكشارية⁽⁴⁾، والبعض الآخر أطلق على هذه المناطق أوجاق الغرب فكلمة أوجاق حملت نفس المعنى السابق وأضيفت كلمة الغرب وذلك تمييزاً لها عن الولايات العثمانية الأخرى سواء الواقعة في المشرق الأوروبي أو في المشرق العربي، كما أن كلمة أوجاق المفردة أصبحت مرادفة لكلمة إيالة وإذا أطلقت فإنها تتصرف إلى أوجاق الجزائر وطرابلس وتونس⁽⁵⁾.

1 - نشأة الإنكشارية في الجزائر:

تكونت النواة الأولى للإنكشارية في الجزائر من العسكر الذين أرسلهم السلطان سليم الأول سنة 1518م إلى خير الدين بربروسا في الجزائر التي أعلنت تبعيتها للدولة العثمانية فوصله 2000 جندي إنكشاري⁽⁶⁾ كانوا من خيرة الجيش الإنكشاري العثماني، ولم يمض

(1) علي حسين النمر، ابن غلبون وكتابه التذكار، دراسة مقارنة في تاريخ ليبيا الحديث 1551. 1731م، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2008م، ص 356.

(2) الشيباني بنبليغ، الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي 1859. 1882م، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان. تونس، 1995م، ص 47.

(3) سرداح، رسالة ماجستير، مرجع سابق، ص 217.

(4) عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، مرجع سابق، ص 275.

(5) Midhat Sert Oğlu, Resimli Osmanlı Tarihi, İstanbul 1958. S. 211.

(6) فارس، مرجع سابق، ص 81.

وقت طويل حتى أرسل السلطان العثماني 4000 متطوعاً آخر كانوا من الرعية التي تم جمعهم من الأناضول إلى الجزائر بغية دعم ومساندة قوات خير الدين العسكرية المؤلفة آنذاك من 5000 جندي⁽¹⁾.

ولم يكتفِ السلطان سليم الأول بإرسال تلك الأعداد فقط بل أصدر فرماناً أتاح فيه لخير الدين حرية جمع كل من يوافق للتطوع في جيش المغرب العربي من المناطق العثمانية وبصفة خاصة من الأناضول على أن يمنحهم جميع الامتيازات والحقوق التي تحصل عليها الجيش الإنكشاري في إستانبول⁽²⁾، ونتيجةً لتعرض إيالة الجزائر لهجمات مستمرة من قبل الأسبان وحلفائهم من الخارج ولتمردات وثورات الإنكشارية من الداخل فلم ينقطع توافد الجيش الإنكشاري على الإيالة والسماح لولاتها بتنظيم عمليات التجنيد، فقد أرسل السلطان العثماني سليمان القانوني سنة 1556م إلى حاكم الجزائر صالح ريس 6000 جندي إنكشاري لكي تتضم إلى قواته بغية تحرير وهران والمرسى الكبير⁽³⁾، وعلى الرغم من وصول كل هذه الأعداد من الجيش الإنكشاري إلى إيالة الجزائر إلا أنها كانت بحاجة أكثر من ذلك، فاضطروا إلى تجنيد فرق من الأهالي، وفي عهد محمد باشا ابن صالح ريس الذي تولى إمارة الجزائر خلال سنتي (1568-1569م) سمح للقراصنة والأعلاج بالانخراط في فرق الإنكشارية، وربما أراد بذلك أن يستفيد من خبراتهم القتالية وكفاءتهم العسكرية وتعويض النقص الذي يطرأ في صفوف الجيش الإنكشاري⁽⁴⁾ نتيجةً للخسائر التي يمنى بها في الحملات العسكرية الجارية أو بسبب الأوبئة التي كانت تضرب الإيالة من حين إلى آخر⁽⁵⁾.

(1) عامر محمود علي، الدولة العثمانية، تاريخ ووثائق، دمشق 2001م، ص 35.

(2) عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر - تونس)، مرجع سابق، ص 93.

(3) فارس، المرجع السابق، ص 81.

(4) عباد، مرجع سابق، ص 312.

(5) الإنكشارية والمجتمع ببلكية قسنطينة، مرجع سابق، ص 28.

وعلى أية حال فقد شكلت هذه الفرق الإنكشارية وخاصةً في المرحلة الأولى الأساس العسكري لنظام الحكم العثماني في إيالة الجزائر، لذلك اهتم ولايتها بهذا الجيش، واستمروا في رفده وتدعيمه بتجنيد عناصر جديدة، لتصبح من إنكشارية الجزائر طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين⁽¹⁾ حتى تزايدت أعداده وأصبحت تتراوح بين 6000. 22000 جندي إنكشاري⁽²⁾، وربما الشيء الذي أسهم في تزايد أعداد الجند الإنكشاريين إلى هذا الكم كان يعود لاهتمام هؤلاء الولاة بعمليات التجنيد، لدرجة أنهم أشرفوا عليها بأنفسهم، فكانوا يبدؤون بتبليغ إستانبول من أجل الحصول على موافقة لتنفيذ عمليات التجنيد، وبحصولهم على هذه الموافقة من السلطات العثمانية يباشرون وعلى الفور بإرسال البعثات الجزائرية إلى الأناضول للقيام بهذه المهمة وهي جمع المتطوعين⁽³⁾.

ولنجاح هذه العملية كان على هؤلاء المبعوثين الجزائريين المكلفين أخذ الأموال اللازمة لتساعدهم في متطلبات التجنيد، والأهم من ذلك لنجاح تلك المهمة قيامهم بالدعاية الجزائرية اللازمة التي تصور لكل من يتردد عن فكرة التطوع المكاسب المالية الكبيرة التي ستدرها عليهم عمليات القرصنة المسموح بها ضد المسيحيين عند التطوع وممارسة تلك المهنة، وما سينالونه عند انضمامهم للطبقة العسكرية الجزائرية التي تتمتع بعدة امتيازات لا يمكن حصرها وأهمها المرتبة العليا التي تحتلها في السلم الاجتماعي، فكل من يصل إلى المناصب العليا كالداي والباي كان يتم اختياره من هذه الطبقة، هذا بالإضافة إلى إعفاء كل من يريد التطوع من جميع الضرائب، كما يحق للمتطوع العمل بالتجارة والصناعة والزراعة وغيرها من المهن الحرة وخاصةً في أوقات السلم⁽⁴⁾.

(1) نمير، مرجع سابق، ص 149.

(2) فارس، مرجع سابق، ص 84.

(3) فارس، مرجع سابق، ص 82.

(4) نمير، مرجع سابق، ص 153.

كما استعمل ولاية الجزائر طريقةً أخرى لجلب المتطوعين من الأراضي العثمانية بعيدة عن مراقبة الباب العالي، وهذه كانت تتم بواسطة مبادرات فردية من قبل الجنود الذين يعودون إلى بلدانهم؛ لغرض زيارة أقاربهم فيحاولون جذب سكان بلادهم إلى الجزائر بواسطة الإغراءات، وفي هذا الصدد يشير حمدان خوجة في كتابه (المرآة) إلى هذه الطريقة أو هذا الأسلوب فيقول « بمجرد ما ينال أحدهم (أحد الإنكشاريين) نصيباً من المال، يسافر إلى تركيا حيث مسقط رأسه، فيصحب معه أفخر ثياب، كي يظهر لأعين مواطنيه شعار الغنى والترف قاصداً إغواءهم ولعله هو كان من أبناء العمال أو الفلاحين، وعندما يعود إلى الجزائر حيث توجد عائلته، يصحب معه بعض السكان من بلاده يقدمهم إلى الدفتر وبعد ضمانه يقبلون في قسم الجندي»⁽¹⁾.

كما كانت عملية التجنيد تتم أيضاً بواسطة الوكلاء الموجودين دائماً في المناطق الرئيسية التي كانت تتم فيها عمليات التجنيد ولاسيما في سواحل أسيا الصغرى وبعض جزر بحر إيجيه. ويقوم هؤلاء الوكلاء بجمع كل من يرغب في الانخراط في الجيش الإنكشاري الجزائري دون تحديد أي شروط أو قيود لهؤلاء المتطوعين الجدد، لذلك يرى أغلب الباحثين في تاريخ الجزائر الحديث أن الجيش الإنكشاري القوي الذي أرسلته الدولة العثمانية والذي شكل نواة الإنكشارية في الجزائر في المرحلة الأولى ولاسيما في مرحلة البكليكوات (1518-1587م) غير الجيش الإنكشاري الذي ارتفعت أعداده فيما بعد من هؤلاء المجندين فضعت قوته باعتبار أن أكثر هؤلاء المجندين كانوا من الطبقات الدنيا⁽²⁾ ومن المهمشين اجتماعياً، وهذا ما يؤكدّه عزيز سامح بقوله « فكان (إنكشاري الجزائر المتطوعين) من الذين ارتكبوا جرائم في وطنهم الأم، ومن الذين أغضبوا آباءهم وأمهاتهم، ومن المشاغبين

(1) حمدان بن عثمان خوجة الجزائري، المرآة (لمحة تاريخية وإحصائية عن إيالة الجزائر) مكتبة الحياة ببيروت، 1972م، ص 94-95.

(2) تشارشلي، مؤسسة الإنكشارية، أنقرة، 1984، ص 150.

والميلين بطبائعهم إلى الحكايات والأساطير، فاندفعوا إلى بلاد المغرب مجربين حسن طالعهم وحظهم»⁽¹⁾.

ومهما كان أمر هؤلاء وحالهم الاجتماعي فإن الوكلاء يقومون بجمعهم هناك في انتظار السفن الشراعية الجزائرية التي ليس لها وقت محدد لوصولها ولا تذهب هناك إلا عند الحاجة؛ كقيامها بعمليات قرصنة في شرقي المتوسط أو الاشتراك مع الأسطول العثماني أو لغرض التجارة⁽²⁾ وفي هذه الحالات تقدم هناك لتعود محملة بالمتطوعين، وعندما يتأخر وصولها إلى هناك ويزداد الأمر صعوبة يضطر الولاة الجزائريون إلى استئجار السفن الأوروبية لتتقل أولئك المتطوعين رأساً إلى الجزائر، ولهذا كانت عمليات التجنيد تكلف الخزينة الجزائرية أموالاً كثيرة، فعلاوةً عن مصاريف النقل تدفع الخزينة مبالغ أخرى لحكام المدن التي تنظم فيها عمليات التجنيد⁽³⁾، فالكثير من حكام تلك المناطق أشرفوا بأنفسهم على تلك المهمة لصالح إيالة الجزائر.

وإلى جانب ذلك ما كانت تدفعه الخزينة الجزائرية إلى السلطات العثمانية كرشوة أو مكافأة لقيامها بتسهيل عمليات التجنيد⁽⁴⁾ على الرغم من أن عمليات التجنيد في بداية الحكم العثماني للجزائر كانت تتم على حساب نفقة السلطان العثماني، ولكن ذلك الوضع لم يدم فعندما استقلت الجزائر عن الباب العالي سنة 1671م أجبرت على تحمل جميع نفقات التجنيد⁽⁵⁾.

(1) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عامر، مرجع سابق، ص 133.

(2) فارس، مرجع سابق، ص 83.

(3) فارس، مرجع سابق، ص 83.

(4) نمير، مرجع سابق، ص 150.

(5) معاشي، مرجع سابق، ص 16.

(*) الدفتر هو مكان يسجل فيه أسماء الجنود ويطلق عليه دفتر يكيجري.

فبمجرد وصل المتطوعين الجدد إلى الجزائر يتم تسجيلهم في الدفتر^(*) تسجيلاً دقيقاً متضمناً جميع المعلومات الخاصة بأسمائهم وأسماء عائلاتهم ومهنتهم السابقة التي كانوا يزاولونها، وكذلك تسجيل الأماكن التي قدموا منها (موطنهم الأصلي)⁽¹⁾، والجدير بالذكر إن أغلب المتطوعين الذين تم تسجيلهم كانوا من الأناضول ونسبة قليلة كانوا من ألبانيا والبوسنة وجزيرة قبرص، ورودرس، وكريت⁽²⁾.

بالإضافة إلى ذلك يتم تسجيل لكل واحدٍ منهم ما له من صفات خاصة مثل الأشقر، الطويل، الأعرج، مبتور الأذن، والجدير بالذكر أيضاً أن هذه العاهات كان يعتز بها هؤلاء الإنكشاريون المجندون باعتبارها علامة من علامات بطولاتهم في المعارك⁽³⁾.

وفيما يتعلق بالكشف الصحي لهؤلاء المتطوعين عند وصولهم إلى الجزائر فإن المصادر لا تثبت لنا ذلك، وليس هناك ما يشير إلى خضوعهم إلى فحص طبي شامل كما كان سائداً في نظام الدفشمة عند الدولة العثمانية، ولكن من المحتمل أن هؤلاء المتطوعين كانت تجرى لهم بعض الفحوصات الطبية ولو بمجرد ملاحظة الأعراض الخارجية لأي مرض على أجسامهم وذلك خوفاً من إصابتهم ببعض الأمراض المعدية التي قد تنتشر داخل ثكنات أوجاق الجزائر.

وبكونهم لا يعرفون شيئاً في أمور القتال والحرب فإنهم يتلقون منذ الأسابيع الأولى من وصولهم التدريب على السلاح وفنون القتال الفردي وتعليمهم جميع القواعد والنظم العسكرية الخاصة بإيالة الجزائر⁽⁴⁾، ويطلق على هؤلاء العسكر (اليولداش)^(*) ويتم توزيعهم على

(1) تشارشلي، مؤسسة الإنكشارية، مرجع سابق، ص 237.

(2) نمير، تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ص 147.

(3) معاشي، مرجع سابق، ص 20.

(4) نمير، المرجع السابق، ص 158.

(*) اليولداش: يعني رفيق الدرب. للمزيد أنظر: الأرقش وآخرون، مرجع سابق، ص 157.

حاميات داخل الولاية، وقد وصل عددها إلى 16 حامية في القرن السادس⁽¹⁾ عشر وإلى 20 حامية في بداية القرن الثامن عشر فيها 1000 جندي إنكشاري⁽²⁾.

ومع مرور الزمن أصبح للإنكشارية ديوان ينظم أمورهم ويحمي مصالحهم، وقد خضعت الإنكشارية لحكم الولاية طوال عهد البكركي (1518-1587م) ولم يكن لها أي دور سياسي⁽³⁾ في الفترة المذكورة، فمنذ بداية وصولها أبقاها بربروسا على الحياد ولم يأخذ بآرائها وهو الذي كان يرسم لها خط سير حياتها⁽⁴⁾، وحتى فترة حكم خير الدين ومرافقوه بقي تأثيرها السياسي ضعيف ولا معنى له.

ومع تعاقب الأيام وازدياد نفوذ الإنكشارية وأعدادها اختلف الأمر تماماً فقد بدأت تتميز الإنكشارية عن الرياس وتغلبت عليهم وأخذت تتدخل في سياسة الولاية بواسطة رؤسائها أصحاب الديوان⁽⁵⁾ ووصل بهم الأمر إلى التآمر على السلطة وسيطرتهم بعد ذلك على مقاليد الحكم وتعيين الداي من بين صفوفهم⁽⁶⁾.

2- نشأة الإنكشارية في طرابلس الغرب:

يعدّ الجيش الإنكشاري الركيزة الأساسية التي بني عليها نظام الحكم العثماني في طرابلس الغرب، شأنها في ذلك شأن الإيالات العثمانية الأخرى، لذلك فإن الدولة العثمانية مضطرة إلى إرسال فرق جديدة من الجيش الإنكشاري لتعزيز قواتها العسكرية في طرابلس

(1) معاشي، المرجع السابق، ص48.

(2) نمير، المرجع السابق، ص164.

(3) الغالي الغربي، الانتفاضات الشعبية في الجزائر منذ منتصف القرن الثامن عشر حتى الاحتلال الفرنسي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة دمشق، 1985م، ص47.

(4) كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510-1541م)، ت: جمال حمارنه، المكتبة الوطنية الجزائرية، 2007م، ص66.

(5) فارس، مرجع سابق، ص85.

(6) جودت، مصدر سابق، ج9، ص675.

الغرب، التي تعمل على فرض هيبة الولاة الذين يرسلهم السلطان العثماني لإدارة الإيالة وفرض هيبة الدولة على الأهالي⁽¹⁾ بغية المحافظة على تبعية هذه الولاية البعيدة عن إستانبول، وقد وصلت هذه الفرق العسكرية على موجات متقطعة وفي أوقات مختلفة وبأعداد متباينة تبعاً للظروف العسكرية التي كانت تمر بها إيالة طرابلس الغرب، ففي سنة 1536م وصلت أول فرقة من الجنود الإنكشاريين إلى طرابلس بقيادة مراد آغا صحبة الوفد الطرابلسي⁽²⁾ الذي كان بإستانبول يطلب المساعدة العسكرية من السلطان سليمان الأول (1520. 1566م) بغية تخلص بلادهم من فرسان مالطا.

إلا أن هذه الفرقة كانت أعدادها قليلة، لذلك قام مراد آغا بتجنيد قوة من الأهالي⁽³⁾ بغية مساندة قواته العسكرية لكنه لم يتمكن من طرد فرسان مالطا وإيقاف أعمالهم التخريبية أو حتى قطع الإمدادات والمساعدات الإسبانية التي كانت تصل إليهم⁽⁴⁾.

وكان من الضروري وجود جيش كبير لتحقيق مهمة طرد أولئك المسيحيين من طرابلس الغرب، وهذا ما دفعه إلى توجيه رسائل استصراخ إلى إستانبول بمده بالجنود المدربة والعتاد، وبالفعل فقد أرسلت له إستانبول 8000 جندي إنكشاري بقيادة سنان باشا⁽⁵⁾ بغية مساعدته لتحرير طرابلس وكان ذلك في سنة 1551م، ومن ذلك التاريخ عمد مراد آغا على تطبيق الإجراءات العثمانية العسكرية، بعدما تشكلت نواة الجيش الإنكشاري في طرابلس الغرب، وتضاعفت أعدادهم، واستطاع بقوته أن يفرض هيئته الشخصية عليهم حتى جعل عقولهم وأجسامهم وخبراتهم في خدمته، كما تزايدت أعداد الجيش الإنكشاري أيضاً في عهد طرغوث باشا الذي وجه هو الآخر نداء استغاثة إلى إستانبول فأرسلت له ستين سفينة

(1) تشارشلي، مؤسسة الإنكشارية، مرجع سابق، ص 320.

(2) عامر، فارس، مرجع سابق، ص 160.

(3) المرجع السابق، ص 160.

(4) تشارشلي، المرجع السابق، ص 322.

(5) جودت، مصدر سابق، ج9، ص 680.

محملة كل واحدة منها بمئة من خيرة الإنكشارية بقيادة بيالي باشا⁽¹⁾ الذي ساعده على تحقيق النصر على الأسبان سنة 1560م، وقبل رجوع هذا الأخير إلى إستانبول ترك هناك عدداً من جنود الإنكشارية لتنظم إلى قوات طرغوث باشا في الإيالة⁽²⁾.

فمنذ البداية انصب جل اهتمام طرغوث باشا بالجيش الإنكشاري من حيث التنظيم وإقامة الثكنات لإيوائهم⁽³⁾ والسهر على تدريبهم على الولاء والانضباط الكامل وكل جندي منهم جعله نموذجاً للرجل المحارب الذي يهرع إلى ميدان القتال طالباً النصر أو الشهادة.

وقد رابط هؤلاء الجنود على هيئة وحدات عسكرية داخل إيالة طرابلس، وهذه الوحدات عرفت بالحاميات، وهي المرافقة للباشا الموفد من قبل الحكومة المركزية بإستانبول⁽⁴⁾ شأنها في ذلك شأن باقي الإيالات الأخرى التابعة للدولة العثمانية، ولم يقتصر تركيز هذه الحاميات داخل طرابلس، مركز الإيالة وإنما كانت في كل مقاطعة من مقاطعات إيالة طرابلس، حيث زودت بحاميات صغيرة من جند الإنكشارية⁽⁵⁾، تباينت في أعدادها ووقت وصولها إلى هذه المناطق، ففي ضواحي طرابلس ومصراته، تمركزت فيها الحاميات منذ بداية هذا العهد⁽⁶⁾، في حين تأخر وصولها إلى بنغازي التي تعد إحدى المراكز الحضرية بإقليم برقة إلى غاية

(1) فيرو، حوليات، مرجع سابق، ص 82.

(2) عامر، فارس، مرجع سابق، ص 173 .

(3) المرجع السابق، ص 170.

(4) مبروكة عمر عبدو، الشرطة في ولاية طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الثاني 1835-1911م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة السابع من أبريل، 2006-2007م، ص18.

(5) الدويبي، مرجع سابق، ص19.

(6) قدارة، فاتح رجب، الزاوية الغربية خلال العهد العثماني الثاني، منشورات مركز الجهاد الليبي للدراسات التاريخية، 2006، ص141.

سنة 1635م وذلك نتيجة عدم خضوعها للنفوذ العثماني، ولم تتم السيطرة عليها إلا في هذه السنة المذكورة⁽¹⁾.

كما أن هذه الحاميات كانت مطلقة التصرف أينما وجدت⁽²⁾، ووضعت تحت قيادة ضابط برتبة (بلوك باش) قائد المائة، وعلى الرغم من أن هذه الحاميات كانت قليلة في أعدادها وتنظيمها إلا أنها تمكنت من تهدئة الأوضاع الداخلية لتلك المناطق فسادها الاستقرار النسبي، واستفادت من ذلك السلطات العثمانية في تأكيد سلطتها على تلك المناطق، وخاصة في الفترات التي تميزت بقدر معين من انعدام الاستقرار⁽³⁾.

وعلى نحو ما كان سائداً في مختلف الإيالات العثمانية تمتع أيضاً إنكشاريو طرابلس بنفس الامتيازات، والحقوق المادية والأدبية التي يتمتع بها الجيش الإنكشاري في إسطنبول، والتي من بينها حصانة تمنع القبض عليهم أو قيام المحاكم المحلية بتوقيع العقوبات عليهم⁽⁴⁾، والمرتبات الشهرية التي يتقاضونها من خزانة الدولة والتي تعدّ مرتفعة إلى حد ما في معايير ذلك الوقت، والإعفاء من جميع الضرائب وكل الالتزامات المالية تجاه الحكومة، هذا بالإضافة إلى الوجبات اليومية المجانية وما توفره لهم الدولة من الملابس الرسمية الخاصة بالزّي العسكري. وكذلك تميزهم بنظام الترقيات الذي كان يتم طبقاً لقواعد الأقدمية وبالترتيب في الأوجاق، هذا بالإضافة إلى حق التقاعد مع الاحتفاظ بمرتبه كاملاً حتى وفاته⁽⁵⁾.

(1) علي مفتاح إبراهيم منصور، الرحالة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا السياسي والاقتصادي في القرنين السابع عشر والثامن عشر، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2005م، ص 199.

(2) الدويبي، مرجع سابق، ص 19.

(3) رضا نور، عثمانلي تاريخي، اسطنبول، 1924، ص 423.

(4) البربار، مرجع سابق، ص 74.

(5) البربار، مرجع سابق، ص 74.

والجدير بالذكر هنا أن الجيش الإنكشاري في مناطق المغرب العربي بما فيهم أوجاق طرابلس الغرب قد تمتع بوضعٍ مميز عن بقية الجيش الإنكشاري في الولايات العثمانية الأخرى، فقد سمح له أهالي مناطق المغرب العربي بمشاركتهم في جميع الأعمال البحرية والتجارية والزراعية فأُتيحت لهذا الجيش فرص عمل كثيرة⁽¹⁾؛ بل قبل أهالي المغرب العربي تزوجهم من بناتهم ولاسيما بعدما سمح لهم السلطان سليمان الأول (1520-1566م) حق الزواج والعمل في الحرف وفي التجارة والإقامة خارج ثكناتهم⁽²⁾.

أما فيما يتعلق بأعداد الجيش الإنكشاري في إيالة طرابلس الغرب فليس هناك ما يشير إلى عددٍ معين وخاصةً في السنوات الأولى من العهد العثماني، فتشير أغلب المصادر أن عدد الجيش الإنكشاري في عهد مراد آغا (1551-1555م) كان قليلاً⁽³⁾ دون تحديد أي رقم، وربما لا تتجاوز بعض المئات أو ألف جندي، وكذلك الأمر في عهد طرغوث باشا (1555-1565م) ففي إشارة يذكر بأن 600 إنكشاري كان تحت قيادته ولديه عدد آخر من الحاميات الصغيرة من الإنكشارية المرابطة في جميع مقاطعات الإيالة⁽⁴⁾ دون تحديد عدد أفراد هذه الحاميات أو أعداد تلك المقاطعات، وبالتالي لا يمكننا تقدير هذا العدد ولكن يمكننا التأكيد على أن أعداد الجيش الإنكشاري في إيالة طرابلس كانت في ازدياد تدريجي، وهذا ما تؤكدُه إحدى الدراسات التي تشير إلى أن عدد الجيش الإنكشاري في سنة 1673م أي في عهد الداوي بالي باشا (1672-1675م) بلغ 2000 جندي، كما أننا نجهل الأسباب الرئيسة التي جعلت الدولة العثمانية آنذاك تمتنع عن إرسال أعداد أخرى من الإنكشارية إلى

(1) محمود علي عامر، النظم الإدارية العثمانية في اليمن، مجلة الأكليل، العدد الثاني، 1989م، ص 97-98.

(2) عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، مرجع سابق، ص 149.

(3) عامر، فارس، مرجع سابق، ص 160.

(4) بروشين، مرجع سابق، ص 47.

إيالة طرابلس وعدم تمركز قوات كبيرة فيها، ولكن من المؤكد أن السلطات العثمانية اتجهت إلى أسلوب تجنيد الأهالي في قوات شبه عسكرية لسد هذا النقص في صفوف الإنكشارية⁽¹⁾. ومهما كانت التقديرات العددية للجيش الإنكشاري في الإيالة فإن الدولة العثمانية اعتمدت عليه في تثبيت كيانه والمحافظة على النظام في المناطق التي سيطرت عليها، وتحمل هذا الجيش المسؤولية الملقاة على عاتقه أول الأمر متصفين بالنظام والذكاء والإقدام والبراعة والشجاعة المقرونة بالطاعة العمياء لقوادهم، إلا أن هذه الصفات الحميدة سرعان ما تغيرت بعد وفاة طرغوث باشا وبدأت تتعدم شيئاً فشيئاً وأصبح الاستهتار والضعف داخل صفوفها وتخلخل نظامها العام الذي كان سائداً زمن السلاطين الأقوياء⁽²⁾، وظهرت بوادر الرغبة بالمشاركة في الحكم وتوزيع المكاسب التي يتحصلون عليها والمطالبة بتقليص سلطة الوالي⁽³⁾ التي أصبحت فيما بعد سلطة اسمية لا معنى لها، كما تولى معظم أفراد الجيش الإنكشاري عن الخدمة العسكرية، واتجهوا إلى ممارسة الأنشطة الاقتصادية⁽⁴⁾، ولم يكن أمام الدولة العثمانية إلا تقبل هذا الوضع الجديد الذي جعل إيالة طرابلس الغرب في وضع شبه مستقل عنها⁽⁵⁾. واستمر هذا الحال على ما هو عليه حتى ظهور الأسرة القرمانلية 1711م التي قلصت من نفوذ الإنكشارية⁽⁶⁾.

(1) برنيا، طرابلس من 1510 إلى 1850م، مرجع سابق، ص 122.

(2) عامر، فارس، المرجع السابق، ص 174-175.

(3) منصور، مرجع سابق، ص 130.

(4) المرجع السابق، ص 129.

(5) المرجع السابق، ص 131.

(6) محمد أحمد الطوير، الحركات التحررية ضد بعض الولاة العثمانيين بليبيا 1551-1911م، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 53-54، 1989م، ص 109.

3 - نشأة الإنكشارية في تونس:

عرفت تونس كغيرها من الولايات العثمانية نظام الجيش الإنكشاري، الذي كان يتوافد باستمرار لحماية الإيالة⁽¹⁾، فإلى جانب القوات العسكرية التي كانت موجودة في البلاد سابقاً، والتي قدمت من الأستانة لمحاربة الأسباب تمثلت في حاميات صغيرة من الإنكشارية تمركزت في مدن الوسط والجنوب التابعة لطرابلس الغرب آنذاك⁽²⁾، وجدت قوة أخرى من الإنكشارية في البلاد سنة 1574م عندما تم فتح تونس من قبل سنان باشا، حيث ترك قوة من الجيش الإنكشاري ممن كانوا برفقته قبل رجوعه إلى إستانبول⁽³⁾ بغية دعم القوات السابقة التي تحمي البلاد وتحافظ على أمنها ونظامها، وقد توزعت هذه القوة بين مدينة تونس وباقي المناطق الداخلية⁽⁴⁾، وقبل هؤلاء الإنكشاريون عن طوعية الاستقرار في هذه المناطق المخضعة بغية الاندماج في الخدمة⁽⁵⁾.

وقد اختلف المؤرخون في تقدير أعداد ذلك الجيش الذي أبقاه سنان باشا في ولاية تونس فقد قدره بعضهم بـ 3000 جندي إنكشاري⁽⁶⁾، ومنهم من قدره بـ 4000 جندي إنكشاري⁽⁷⁾ ويميل أغلب المؤرخين إلى هذا التقدير، والأمر نفسه في تقدير إجمالي الجيش الإنكشاري في إيالة تونس بعد الاستقرار العثماني فيها، فاختلفت تقديراتهم أيضاً فبعضهم

(1) بنبلغيث، الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي 1859-1882م، مرجع سابق، ص47.

(2) فاطمة بنت سليمان، الأرض والهوية (نشوء الدولة الترابية في تونس 1574-1881م)، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، 2009م، ص55.

(3) السلطاني، مرجع سابق، ص32.

(4) سليمان، المرجع السابق، ص55.

(5) نخبة من الأساتذة الجامعيين، تونس عبرة تاريخ، الجزء الثاني، منشورات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 2007م، ص198.

(6) المرجع السابق، ص198.

(7) عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر . تونس)، مرجع سابق، ص157.

يقدره بـ340 سفرة، والسفرة هي الخيمة التي تجمع بين 16 و 20 جندي⁽¹⁾، والبعض الآخر يرفع به إلى ما بين 6000 أو 7000 جندي، وهناك من يقدم أرقاماً شبيهة ومقاربة من ذلك معتبرين أن الجيش الإنكشاري في تونس يصل إلى نصف الجيش الجزائري البالغ 12000 جندي⁽²⁾، ولعل ما دفعهم إلى هذا التقدير هو صغر مساحة إيالة تونس بالنسبة لجارتها الجزائر فجعلوا أعداد كل من الإيالتين متناسباً مع اتساع الرقعة.

ومهما يكن من أمر هذه التقديرات واختلافها من مؤرخ إلى آخر فإنه من المحتمل أن عدد الجيش الإنكشاري الذي ترك سنان باشا في تونس يتراوح عدده بين 3000 و 4000 جندي إنكشاري، وعلى الأرجح تزايدت أعدادهم مع مرور الوقت حتى وصلت إلى 6000 جندي على حسب الآراء السابقة أو إلى أكثر من ذلك.

إلا أن الشيء المؤكد هنا هو الغالبية العظمى من هذا الجيش ترجع أصولهم إلى الأناضول⁽³⁾، حيث كانت عمليات التجنيد تتم هناك⁽⁴⁾، وهذا ما تؤكد بعض الدراسات بأن أغلبية الجيش الذي أبقاه سنان باشا تتألف عناصره من جند المرتزقة والذين كانوا يسمون في الإمبراطورية العثمانية (باللوند) على اعتبار أنهم مغامرون فشاركوه حملته على تونس سنة 1574م لكي يتمتعوا بكافة الامتيازات وأملاً في تبديل أوضاعهم الاجتماعية المتدنية في بلدانهم الأناضولية، وبعض المناطق الأخرى⁽⁵⁾. ومهما يكن أصل هؤلاء الجنود واختلاف جذورهم العرقية فإنهم لعبوا دوراً أساسياً في إرساء الحكم العثماني في ولاية تونس وذلك بفضل شجاعتهم وتفوقهم وخبراتهم العسكرية ومعرفتهم الجيدة للأسلحة النارية⁽⁶⁾، كما أنهم

(1) قاسم، مرجع سابق، ص131.

(2) قاسم، مرجع سابق، ص131.

(3) السلطاني، مرجع سابق، ص32.

(4) نمير، مرجع سابق، ص147.

(5) الأرقش وآخرون، مرجع سابق، ص157.

(6) السلطاني، المرجع السابق، ص33.

كانوا يتميزون عن أهالي الإيالة بملامحهم ولباسهم ولغتهم ومذهبهم وطبائعهم العسكرية⁽¹⁾، ولم يقتصر تمركزهم داخل تونس مركز الإيالة فقط بل استقرت حاميات عسكرية في معظم المناطق الأخرى الساحلية والداخلية كبنزرت، وطبرقة، والحمامات، والمنستير، وسوسة، وصفاقس، والمهدية، وباجة، وجربة، وحلق الوادي، والكاف، والقيروان، وقفصة⁽²⁾، على الرغم من أن السلطات العثمانية بتونس لم تهتم في بداية عهدها بنشر حاميات الإنكشارية في تلك المناطق ولم يتم ذلك إلا مع نهاية القرن السادس عشر وبداية عهد الدايات (1590-1631م)، واقتصر عملها في أول الأمر على جمع الضرائب دون توفير الأمن والحماية في تلك المناطق⁽³⁾ وهذا ما تؤكد بعض الدراسات التاريخية على انعدام الجيش الإنكشاري في بعض المناطق كالمنستير والحمامات فلا يوجد فيهما إلا إنكشاري واحد أو اثنان لجمع الخراج فقط⁽⁴⁾، وبالنسبة لحلق الوادي وبنزرت وطبرقة لم يتجاوز عدد الجيش في أول الأمر فيهما 15 إنكشارياً على الرغم من أن هذه الأخيرة كانت مجاورة لمركز بحري مسيحي، إلا أن الأمر اختلف تماماً في عهد حكومة الدايات الذين زودوا عدد جيش الحاميات في تلك المناطق وغدت تظم كل حامية 60 إنكشارياً⁽⁵⁾.

وعلى غرار ما حدث في إيالة الجزائر أصبح لإنكشاري تونس أيضاً ديوان ينظر في جميع شؤونهم ويسهر على تسيير مصالحهم وقد تأسس منذ سنة 1574م⁽⁶⁾، وكان أعضاؤه من ضباط الإنكشارية⁽⁷⁾، فالى جانب دوره في تسيير أمور الإيالة كان له شأن عظيم في تسيير شؤون طائفة الإنكشارية في الإيالة وتولى عدة مهام أهمها الاحتفاظ بدفاترهم الخاصة

(1) قاسم، المرجع السابق، ص 190.

(2) السلطاني، القوة العسكرية بتونس، مرجع سابق، ص 34.

(3) قاسم، مرجع سابق، ص 137.

(4) المرجع السابق، ص 190.

(5) المرجع السابق، ص 138.

(6) البشروش، مرجع سابق، ص 58.

(7) خوجة، مصدر سابق، ص 29.

المسجلين بها وتسجيل كل المنخرطين الجدد في صفوف الإنكشارية وتعيينهم في الحاميات سواءً في مركز الإيالة تونس أو خارجها مع توفير السلاح لهم وجلب جميع المعدات الحربية التي يحتاجونها⁽¹⁾، وهو المسئول أيضاً عن إنهاء الخلافات التي تنشأ من حين إلى آخر بين عناصر الإنكشارية كونها لا تخضع إلى المحاكم القضائية المحلية⁽²⁾. لكن لم يمض وقتٌ طويل حتى مارس أعضاء هذا الديوان الظلم ضد عناصرهم، الأمر الذي أدى إلى إعلان الثورة من قبل إنكشاريي تونس مستغلين الأزمة السياسية والمالية التي كانت تتخبط فيها إستانبول⁽³⁾، فقاموا بقتل أعداد كبيرة من رؤساء الديوان، وعلى الفور تسلم صغار ضباط الإنكشارية السلطة الفعلية في إيالة تونس وانتخبوا ديوان جديد اختاروا له شخصاً فيما بينهم لرئاسته لقب بالداي الذي غدا الحاكم الفعلي في تونس⁽⁴⁾ بعد سنة 1591م. وكان أول من وقع عليه الاختيار لهذا المنصب هو إبراهيم رودسلي سنة 1591م ثم الداوي موسى سنة 1592م، ثم تولى الداوي عثمان سنة 1598م الذي عُـد عند أغلب المؤرخين بأنه دكتاتوري المرحلة⁽⁵⁾.

ولا شك أن هؤلاء الدايات ومن جاء بعدهم قد اعتمدوا كلياً على الجيش الإنكشاري الذي يختارهم ، واستمر هذا الحال على ما هو عليه في أوجاق تونس إلى سنة 1631م عندما استطاع البايات المراديين الانتصار على نظام الهيمنة الإنكشارية، وسحبوا من الدايات كل نفوذ حقيقي في الإيالة⁽⁶⁾.

(1) السلطاني، مرجع سابق، ص 40.

(2) المرجع السابق، ص 30.

(3) عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر - تونس)، مرجع سابق، ص 165-166.

(4) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، 1516-1916م، ط: 2، دمشق، 1993م، ص 128.

(5) عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر-تونس)، المرجع السابق، ص 167-168.

(6) مجموعة من المؤلفين، الجيش التونسي عبر العصور، نشر وزارة الدفاع الوطني، دار أليف للنشر، تونس، 1996م، ص 64.

وبذلك ضعف نفوذ الإنكشارية وأعلنت عداؤها للنظام المرادي محاولة استعادة نفوذها مدعمةً في ذلك من الدولة العثمانية⁽¹⁾، ولكن دون جدوى، وهذه الصراعات الدامية عجلت بقيام الأسرة الحسينية سنة 1705م التي شعرت بضرورة التقليل من حاميات الإنكشارية في إيالة تونس وإدخال بعض التغيير في أفرادها بالاعتماد على عناصر محلية بفرق غير نظامية⁽²⁾.

ثانياً - نشأة القولوغلية :

تعددت التفسيرات لتحليل جذور مصطلح القولوغلية أو الكول اوغلية أو الكراغلة كما صارت تنطق مع مرور الزمن⁽³⁾ وربما لختها في النطق ولا داعي إلى الرجوع إلى كلمة القولوغلية أو الكول اوغلية، كما شمل اختلاف الآراء أيضاً الأصل الذي تتحدّر منه عناصر أو قبائل القولوغلية، لذلك لا بد من الرجوع إلى أصل المصطلح لمعرفة أرجحية صحة هذه الآراء فأصل مصطلح القولوغلية عند ترجمته حسب قواعد اللغة التركية يعني أبناء العبيد، أي أن المصطلح مركب من كلمتين عثمانيتين الأولى (كول) بمعنى عبد والثانية (أوغلو) بمعنى ابن فيأتي المعنى كاملاً بعد الجمع أبناء العبيد، ووفقاً لفلسفة الحكم عند العثمانيين يعني أبناء عبيد السلطان العثماني⁽⁴⁾، ولكن لا يعني أنهم بالفعل عبيد أو أنهم أبناء عبيد (رقيق) وإنما لمجرد تسمية أطلقت عليهم كونهم ينتمون للقوات العسكرية التي تكن الولاء والطاعة للسلطان⁽⁵⁾، وعلى هذا الأساس ترجمت إلى أبناء العبيد وهو التفسير الذي يساير التعريفات التي شاعت بين معظم الكتابات التاريخية للتعريف بالقولوغلية، فيما يرى البعض

(1) المرجع السابق، ص 64.

(2) الشيباني بن بعليث، أضواء على التاريخ العسكري في تونس من 1837 إلى 1917م، مكتبة علاء الدين، صفاقس، 2003م، ص 40.

(3) البربار، مرجع سابق، ص 71.

(4) هلايلي، مرجع سابق، ص 80.

(5) البربار، المرجع السابق، ص 75.

الأخر من الرواة أن مصطلح القولوغلية أطلق في العهد العثماني عن كل الأبناء الناتجين من زواج جند الإنكشارية الأتراك من نساء المغرب العربي (الجزائر - ليبيا - تونس) المحليات⁽¹⁾ عقب السيطرة لهذه المناطق واستقرارهم فيها، ومما شجعهم على فكرة الزواج أنهم قدموا إلى هذه المناطق وهم عزب⁽²⁾ ولم يسمح لهم قبل ذلك قانون الإنكشارية بالزواج وتكوين الأسر، ولكن بعد ذلك تزامنت فترة استقرارهم في هذه المناطق مع صدور قرار الموافقة لهم بحق الزواج، وكان من الطبيعي أن يلجؤوا إلى الزواج من بنات أهالي هذه المناطق وخاصةً أن هؤلاء الأهالي لم يمانعوا من القيام بعلاقات المصاهرة معهم⁽³⁾ لذلك كونوا رابطة النسب بينهم وبين أهالي الولايات وكان زواجاً هجيناً خلفوا منهم أبناء آبائهم أترك إنكشارية وأمهاتهم نساء محليات عربيات أو بربريات، وهؤلاء الأبناء ذو الدم الخليط شكلوا طبقة اجتماعية فيما بعد عرفت باسم القولوغلية⁽⁴⁾ أي إشارة إلى أصولهم التي تتحدر من ذلك الزواج، وقد سار أغلب الباحثين على هذا التعريف وعلى الأرجح أنه الأصح تاريخياً حيث نجد ما يدعمه في المصادر والمراجع التاريخية، فقد أشار شارل فيرو في تعريفه الخاص لقولوغلية ليبيا بقوله «إن تسمية القولوغلية التركية كانت تطلق على كل من كان أبوه تركياً وأمه طرابلسية، فهم في الأصل أبناء الأتراك الذين تزوجوا من طرابلسيات»⁽⁵⁾ وهذا مطابق تماماً لرأي محمود ناجي⁽⁶⁾، وكذلك الأمر بالنسبة لقولوغلية الجزائر فيعرفهم محمد خير فارس «هم المولدون من زواج الإنكشارية بنساء من الأهالي»⁽⁷⁾ وأتبعه في ذلك

(1) عامر، فارس، مرجع سابق، ص 184.

(2) قاسم، مرجع سابق، ص 191.

(3) عامر، النظم الإدارية والمالية في اليمن، مجلة الأكليل، العدد الثاني، مرجع سابق، ص 98.

(4) ريتشارد توللي، عشر سنوات في بلاد طرابلس، مكتبة الفرجاني، طرابلس، د.ت، ص 110.

(5) فيرو، مصدر سابق، ص 131.

(6) محمود ناجي، تاريخ طرابلس الغرب، ت: عبد السلام أدهم ومحمود الأسطى، بيروت (د.ت)، ص 118.

(7) فارس، مرجع سابق، ص 88.

غيره، كما ينطبق هذا التعريف على قولوغلية تونس أيضاً وهذا ما تؤكدته إحدى المصادر عند إشارتها إلى جند الإنكشارية فتقول « وتزوجوا من بنات تونس وولدوا لهم الأولاد وسموهم الكوارغلية، ولحقوا بأبائهم في نزل الراتب والسفر محلة ونوبجية»⁽¹⁾.

وهناك رأي آخر مختلف تماماً وبعيد كل البعد عن الآراء السابقة والذي يمثلته المؤرخ الأستاذ عقيل محمد البربار إذ يقول « إن الكراغلة مصطلح يقصد به العسكر المحليين مهمتهم مساندة الدولة في جمع الضرائب وفي فض المنازعات القبلية مقابل الحصول على الإعفاء من الضرائب أي أن المصطلح يشير إلى مهنة وليس فئة عرقية»⁽²⁾. ويدلل على ذلك بعدة أدلة تبين أن مفهوم القولوغلية اتسع ليشمل غير هؤلاء المنحدرين من أصول عرقية وإنما شمل العسكر المحليين أي المشكلين من أهالي مناطق المغرب العربي الذين سجلوا أسماءهم للقيام بأعمال تتعلق بالجنسية بغية الاستفادة من امتيازات الإنكشارية، ومن بين هذه الأدلة التي رأى أنها تؤكد على صحة هذا التفسير ظهور فئة القولوغلية في مناطق المغرب العربي بما في ذلك طرابلس الغرب منذ بداية السيطرة العثمانية لها ولم يكن في ذلك الوقت مسموح للإنكشارية حق الزواج ولم يصدر إذن الزواج لهم إلا مع نهاية القرن السادس عشر⁽³⁾ وبالتحديد في سنة 1595م في رأيه. ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن هذا التحليل يفتقر إلى الأدلة التاريخية المؤكدة لأنه من المعروف أن تاريخ صدور إذن الزواج للإنكشارية صدر منذ عهد السلطان سليمان الأول (1520. 1566م)⁽⁴⁾، ثم يأتي بدليل آخر يخص قبائل قولوغلية طرابلس الغرب على أنها منحت صفة القولوغلية قبل قدوم الجيش الإنكشاري إلى طرابلس، وهذه القبائل كالمحاميد، وزناتة، وورشفانة، والمقارحة هي قبائل

(1) الشيخ الصغير بن يوسف، المشرع المالكي في سلطنة أولاد علي تركي، تحقيق: أحمد الطويلي، المجلد الأول طرابلس، (د.ت)، ص 127.

(2) البربار، دراسات في تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص 66.

(3) البربار، مرجع سابق، ص 68.

(4) عامر ، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، مرجع سابق، ص 149.

عربية معروفة ورد ذكرها في المصادر⁽¹⁾، كما أنه لا توجد أي وثيقة عثمانية التي تخص تلك الفترة تؤكد على أن هذه القبائل ناتجة عن زواج الإنكشاريين من نساء طرابلسيات ولا توجد بها أي إشارة على أن هذه القبائل ذات أصل واحد⁽²⁾، كما يؤكد على أن بعض قولوغلية طرابلس يرجعون إلى القبائل العربية الأندلسية التي أبعدت من إسبانيا قبيل سنة 1492م وإن تسميتها بالقولوغلية جاءت بعد انخراطهم في الجيش العثماني عندما تطوعوا في المقاومة ضد الأسبان مثلما تطوعوا من الجزائر وتونس⁽³⁾.

وهناك أيضاً من قدم آراء شبيهة من ذلك تتفق مع رأيه في إرجاع أصل المصطلح إلى المدلول الوظيفي إذ يستبعدون الفكرة الساذجة التي تذهب إلى زواج جند الإنكشارية من نساء محليات فيقولون إنه لمن المعروف عن هذه المجتمعات وخاصةً المجتمع الطرابلسي أنها مجتمعات محافظة (مغلقة) إلى حدٍ ما، وتمتاز بالروابط البدوية الوثيقة التي لا تسمح بمثل هذا التدخل الاجتماعي⁽⁴⁾، وإنه من المستبعد أيضاً أن أهالي هذه المجتمعات مستعدون ببناتهم لتزويجهن من الجيش الإنكشاري بالقدر الذي أوجد هذه العناصر والقبائل التي حملت مصطلح القولوغلية⁽⁵⁾، كما يؤكد أصحاب هذا الرأي أنه ليس بالبساطة تحول أعداد كبيرة من الجيش الإنكشاري إلى حياة الاستقرار وتكوين الأسر في مناطق المغرب العربي، تاركين العديد من الامتيازات التي يحظون بها وخاصةً أنهم كانوا ينتهزون أول فرصة للعودة مجدداً إلى التمرکز في إستانبول ومحيطها، نظراً لعدم مقدرتهم على التكيف مع الظروف المناخية لهذه المناطق، أو بسبب نهاية مدة خدمتهم في الجيش⁽⁶⁾.

(1) البربار، المرجع السابق، ص 68.

(2) المرجع السابق، ص 67.

(3) البربار، مرجع سابق، ص 71-72.

(4) هنري حبيب، ليبيا بين الماضي والحاضر، ت: شاکر إبراهيم، المنشأة الشعبية، طرابلس، 1982م، ص 31.

(5) البربار، المرجع السابق، ص 74.

(6) بن موسى، مرجع سابق، ص 27.

وعلى الرغم من أن هذه الآراء الأخيرة تتفق في تعريف المصطلح وتأتي بأدلة لتبين أن صفة الكراغلة مهنة وحرفة ذات ميزات وليست عرقاً إلا أنها يظل ينقصها الاسنادات التاريخية الموثقة، لذلك من المستبعد أن تكون قولوغلية المغرب العربي ممن يشملهم هذا التعريف وأنه مخالف للتعريف الذي ساد بين جُل الكتابات التاريخية الخاصة بتاريخ المغرب العربي خلال العهد العثماني، الذي يعرفهم بأنهم الأبناء الناتجون من زواج الجيش الإنكشاري بالنساء المحليات⁽¹⁾ وعلى الأرجح أن هذا التعريف هو الأدق علمياً من بقية التعريفات والآراء المهلهلة الأخرى.

ومهما كانت أصول هذه الفئة فإنها ظهرت في مجتمع المغرب العربي وعُرف نسلها باسم القولوغلية، وغدت إحدى المكونات الأساسية للبناء الاجتماعي في هذه المناطق مشكلةً عنصراً جديداً في تركيبة هذه المجتمعات انصهرت تماماً فيها لغة وطبaca وعادات⁽²⁾، وعاشت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها، وكان لها أثر واضح في تاريخ تلك المناطق وخاصةً من حيث التكوين الاجتماعي والتنظيم الإداري⁽³⁾.

وقد حاول زعماء الإنكشارية أن يستفيدوا من الروابط التي تربطهم بهذه الفئة ليكونوا عوناً لهم على أهالي مناطق المغرب العربي، حيث اعتمدت عليهم في تسيير بعض الحملات التأديبية ضد الثائرين⁽⁴⁾، لذلك حصلت هذه الفئة على بعض الامتيازات الهامة مثل إعفائهم من الضرائب كما منحت عدة امتيازات أخرى وسمحوا لأبناء هذه الفئة بالانخراط في سلك الجندية⁽⁵⁾ كجيش احتياطي تستعين به في قواتها العسكرية ولتعزيز

(1) عامر، فارس، مرجع سابق، ص184

(2) بن موسى، المرجع السابق، ص27.

(3) البربار، مرجع سابق، ص66.

(4) إسماعيل سالم على سالم، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بإيالة طرابلس الغرب في عهد أحمد باشا القرماني (1711. 1745م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المرقب، 2003. 2004م، ص202.

(5) بن موسى، مرجع سابق، ص25.

نظامها الحربي، الأمر الذي أدى إلى خلق فرق موازيه للجيش النظامي، وتعد فرق القولوجية أول فرق هذا الجيش الغير النظامي ولكن وضعيتهم في المؤسسة العسكرية أقل قيمة من الإنكشارية فيعدها البعض تأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية⁽¹⁾، فيما يذكر البعض الآخر بأن منزلتها من الطراز الثالث⁽²⁾، ودرجتها ثانوية، ومنعت من تولي المناصب الحساسة⁽³⁾ في أول الأمر، إلا أنها مع مرور الزمن دخلت هذه الفئة حلبة الصراع السياسي⁽⁴⁾ واستطاع بعض أفرادها الوصول إلى مناصب عليا رفيعة في الإيالات الثلاث الجزائر - ليبيا - تونس، وقد ساعدهم على ذلك تأييد وتعاطف أهالي هذه المناطق الأصليين نتيجةً للصلة العرقية التي تربطهم مع هؤلاء الكراغلة⁽⁵⁾، ولكن سرعان ما تغيرت هذه العلاقة بعد مشاركة هذه الأخيرة في الحكم التي استغلت الأهالي ومارست عليهم الظلم⁽⁶⁾ واحتقرتهم، وكان من الطبيعي أن ينظر لهم الأهالي نظرة عدااء وكره دائم مثلهم في ذلك مثل الإنكشاريين المسيطرين على مقاليد السلطة⁽⁷⁾ في تلك المناطق آنذاك.

(1) نمير، مرجع سابق، ص 257.

(2) البشروش، مرجع سابق، ص 47.

(3) عبد الجليل التميمي، دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن السادس عشر، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2009م، ص 28.

(4) الغربي، مرجع سابق، ص 52.

(5) حسين سالم أبو شويشة باكير، الحالة الاجتماعية لمدينة طرابلس في العهد العثماني الثاني (1835-1911م)، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، 2009م، ص 45.

(6) عامر، فارس، مرجع سابق، ص 185.

(7) نمير، المرجع السابق، ص 258. 259.

1- نشأة القولوجية في الجزائر:

تشير أغلب الدراسات المتعلقة بتاريخ الجزائر إلى أن قولوغية الجزائر يشملهم التعريف الذي يؤكد بأنهم الأبناء الناتجون من زواج أفراد الإنكشارية الأتراك بنساء جزائريات⁽¹⁾، فبعد وصول الجيش الإنكشاري إلى الجزائر وتمركزه فيها بدأت فئة القولوجية تظهر بدءاً من أوائل القرن السادس عشر الميلادي، واقتصرت ظهورها في أول الأمر على المدن التي تقيم فيها حاميات الإنكشارية، ومن أهم هذه المدن الجزائر، تلمسان، مستغانم، مليانة، بسكرة، قسنطينية، بني راشد⁽²⁾ وغيرها، ثم بدأت تنتشر مع مرور السنين خارج هذه المدن وخاصةً بعد سنة 1629م إثر صدور قرار طردهم من مدينة الجزائر إلى الأرياف الجزائرية بسبب تمردهم على السلطة العثمانية في تلك السنة⁽³⁾، وأخذت أعدادها تتزايد شيئاً فشيئاً حتى وصلت في عام 1681م إلى 5000 قولوغي⁽⁴⁾ في أنحاء الإيالة، وأرادت هذه الفئة منذ بداية نشأتها الانضمام إلى فرق الإنكشارية، وطبيعي أن يطمح أبناء هذه الفئة إلى مهنة أبائهم الأتراك ولكن الغير المتزوجين من الإنكشارية لم يسمحوا لهم بالتسجيل في فرقهم⁽⁵⁾ ونظروا إلى هذه الفئة على أنها أقرب إلى أهالي الولاية أكثر من قربها إليهم وعليه إذا وقع أي نزاع مع الأهالي فإن القولوجية سينضمون إلى الأهالي بدلاً من الانضمام إليهم⁽⁶⁾، وبالتالي فإن تحالفهم مع الأهالي يفسد مخططات السلطة الحاكمة في الإيالة⁽⁷⁾، ويمكن القولوجية من السيطرة على مقاليد الحكم محلهم، ومما زاد مخاوفهم هو ارتباط فئة القولوجية

(1) عباد، مرجع سابق، ص 357.

(2) جودت، تاريخ جودت، مصدر سابق، ج 4، ص 659.

(3) الجزائر خلال الحكم التركي، مرجع سابق، ص 358.

(4) هلايلي، مرجع سابق، ص 80.

(5) المرجع السابق، ص 79.

(6) جودت، مصدر سابق، ص 273.

(7) نمير، المرجع السابق، ص 258.

بأرض الجزائر على عكسهم كونهم قدموا إليها لغرض الحماية من الأسبان⁽¹⁾ وبالتالي فإن وجودهم فيها لفترة مؤقتة تنتهي مع نهاية تحريرها من الغاصبين. هذا بالإضافة إلى أن أعداد فئة القولوجية بدأت في التزايد والانتشار السريع في أنحاء الإيالة لدرجة أنها أصبحت الأكثر عدداً وانتشاراً من طائفة الأتراك⁽²⁾، ولا سيما في منطقة وادي الزيتون الواقعة تحت جبل فليسة⁽³⁾ نتيجةً لخصوبة تربتها الملائمة للزراعة، وبمضي الوقت أصبحوا يشكلون طائفة متميزة في أوجاق الجزائر كلها⁽⁴⁾.

لهذه الأسباب وغيرها لم يكن مرغوباً في فئة القولوجية على الرغم من رابطة الدم التي تجمعهم وإنما حكموا عليهم وأصدروا قوانين تمنع القولوجية من دخولها في صفوفهم في أول الأمر وإبعادهم عن المساهمة في المناصب الحكومية العسكرية⁽⁵⁾، وإذا دعت الضرورة إلى استخدامهم في القلاع العسكرية لابد أن يكونوا تحت قيادة ضباط إنكشاريين⁽⁶⁾.

تقبلت فئة القولوجية في البداية هذا الوضع القائم على فكرة التهميش من قبل الإدارة الحاكمة، التي عدتهم في مرتبة أقل من مرتبة أبائهم الإنكشاريين، إلا أن الظروف الطبيعية والأحداث السياسية التي شهدتها إيالة الجزائر في تلك الفترة هي التي غيرت أحوالهم إلى الأحسن، وحققت لهم ما كانوا يطمحون إليه، فقد شهدت الإيالة منذ النصف الأول من القرن السابع عشر كارثة وباء الطاعون الذي ترك آثاراً سلبية على مختلف نواحي الحياة، فقد أهلك الوباء الذي تفشى ما بين سنوات 1648-1650م عدداً كبيراً من عناصر فرق

(1) هلايلي، المرجع السابق، ص 80.

(2) عباد، مرجع سابق، ص 350.

(3) الجزائري، مصدر سابق، ص 126. 127.

(4) نمير، مرجع سابق، ص 258.

(5) هلايلي، مرجع سابق، ص 80.

(6) فارس، مرجع سابق، ص 88.

الإنكشارية⁽¹⁾، وكذلك وباء سنة 1654م الذي قضى على أكثر من ثلث سكان مدينة الجزائر⁽²⁾ بما في ذلك الحاميات العسكرية المربطة هناك، وعلى المستوى السياسي فإن الأحوال لم تكن بأحسن من الأولى بسبب الاضطرابات الحاصلة في قمة هرم السلطة وانهيار الإنكشارية وعودة توتر العلاقات مع فرنسا التي بدأت تحضر لاحتلال مدينة جيجل الجزائرية⁽³⁾، هذا من جهة ومن جهة أخرى كانت تلك الفترة من الفترات الشحيحة التي لم يتم فيها استجلاب عناصر إنكشارية جديدة إلى الجزائر، فلم يكن بمقدور الدولة العثمانية إرسال عناصر إضافية من الإنكشارية⁽⁴⁾ ربما لحصول فتور في العلاقات أو لتأخر وصول التراخيص التي يصدرها السلطان لإرسال مجندين أو لتأخر وصولهم من الأناضول⁽⁵⁾، ومن هنا بدأت الضرورة والحاجة إلى خدمات القولوغلية، فقد اضطر شعبان آغا (1662-1665م) للموافقة على انضمام القولوغلية إلى فرق الإنكشارية⁽⁶⁾ لتعويض ذلك النقص الذي حدث في صفوفها، ومنذ ذلك التاريخ بدأت عملية تسجيل القولوغلية، إلا أنه لم يتم تقييد أسمائهم في نفس سجلات دفاتر الإنكشارية الخاصة⁽⁷⁾، وهذا ما يدل على أن فكرة التهميش مازالت قائمة لديهم، وقد توترت العلاقات معهم أكثر عندما حاولوا في سنة 1630م الاستيلاء على الحكم، وطرد أبائهم الإنكشاريين المسيطرين على الحكم في الإيالة⁽⁸⁾ إلا أن محاولتهم باءت بالفشل وزاد حقدهم على أبنائهم القولوغلية بعد هذه الحادثة وحرموهم من تولي المناصب الرفيعة، بل وصل بهم الأمر إلى عزل كل من يصل من أفراد القولوغلية

(1) هلايلي، المرجع السابق، ص 81.

(2) نمير، المرجع السابق، ص 191.

(3) عباد، مرجع سابق، ص 129.

(4) عامر، فارس، مرجع سابق، ص 80.

(5) هلايلي، مرجع سابق، ص 82.

(6) المرجع السابق، ص 81.

(7) المرجع السابق، ص 83.

(8) الجزائري، مصدر سابق، ص 125.

إلى الرتبة السابعة في الجيش، لكي لا يترقى إلى رتبة أعلى منها، وبهذه الفكرة ضمنوا بأن أفراد القولوجية لا يمكنهم أن يشغلوا منصباً في الديوان⁽¹⁾.

لكن على الرغم من المجهودات الكبيرة التي قامت بها الإنكشارية للحد من المشاركة الفعلية للقولوجية في الجيش والإدارة إلا أنها استطاعت مع مرور الزمن أن تثبت وجودها وتفرض رأيها وتحصلت على بعض الامتيازات، وتم الاعتراف بحقوقها وأصبحت تشارك القوى السياسية السابقة في الحكم⁽²⁾ حيث وصل عدد من أفرادها إلى المناصب الرفيعة كوظيفة المفتي والباي⁽³⁾، فقد تولى منصب الباي في بايلك الغرب القولوجي مصطفى العمر بين سنتي 1636-1648م وكذلك بين سنتي 1608-1671م تولى على بايلك التيطري القولوجي محمد الدباح⁽⁴⁾، وعلى بايلك قسطنطينة تولى ثلاثة بايات من القولوجية خلال الفترة الممتدة من 1700م إلى 1708م وهم أحمد خوجة باي 1700-1703م، وعبد الرحمن باي سنة 1707م، وحسين شاوش سنة 1708م⁽⁵⁾.

وهكذا أرغمت قيادات الإنكشارية على الاعتراف بحقوق أبنائهم القولوجية والموافقة على إشراكهم في تسيير كافة شؤون الإيالة، ومنذ ذلك الحين أصبحوا متميزين إدارياً أو وظيفياً على سائر فئات الأهالي بعد أن شكلوا قوة مؤثرة في سير الأحداث داخل إيالة الجزائر الأمر الذي غير حياتهم وأخلاقهم إذ ترسخ في أذهانهم أنهم في مرتبة أعلى من الأهالي جعلتهم يحتقرونهم ويتعالون عليهم⁽⁶⁾، واستمر ذلك لفترة طويلة من الزمن.

(1) المصدر السابق، ص 126.

(2) الغربي، مرجع سابق، ص 52.

(3) فارس، مرجع سابق، ص 88.

(4) نمير، مرجع سابق، ص 258.

(5) هلايلي، مرجع سابق، ص 83.

(6) فارس، مرجع سابق، ص 88.

2- نشأة القولوغلية في طرابلس الغرب:

وما إن اكتملت السيطرة العثمانية على أغلب مناطق المغرب العربي حتى سمح السلطان سليمان الأول (1520-1566م) للإنكشاريين وخاصة المتقدمين في السن بالزواج⁽¹⁾، وبما أن طرابلس الغرب دخلت تحت الحكم العثماني في ذلك العهد فإن الجنود الإنكشاريين الذين أرسلوا إليها كان بإمكانهم الزواج، فمن المعروف أنهم يأتون بدون عائلات، لذلك ظهرت فئة القولوغلية في طرابلس الغرب منذ وقت مبكر عندما اندمج إنكشاريو طرابلس تدريجياً في المجتمع الطرابلسي بعلاقات المصاهرة على الرغم من التنالي والخطرة التي اتسم بها الإنكشاري الأعزب بوجه خاص، وعلى الرغم أيضاً من محاولة الحكام العثمانيين إبعاد الجيش الإنكشاري عن المجتمع المدني إلا أنهم تزوجوا من سكان البلاد وبرزت تلك الطبقة الجديدة التي عرفت في المصادر باسم القولوغلية حين أشار المؤرخ الطرابلسي ابن غلبون إلى هؤلاء وجاء أول ذكر لهم حينما ذكرهم بالإضافة إلى مرتزقة الترك « ومن أبناء الترك » والمقصود بها القولوغلية، وبعدها تأتي إشارة صريحة حينما ذكر انقراض الدولة التركية وتأسيس الأسرة القرمانيية بقوله «.... وكأن الله سبحانه أراد انقراض الدولة التركية وإقامة الدولة القول أوغلية»⁽²⁾.

وعلى ما يبدو أن أغلب القولوغلية كانوا موجودين في نواحي المنشية والساحل والعلانة والرقيعات والعزيرية⁽³⁾، وتشير بعض الدراسات أن السبب الذي جعل القولوغلية يفضلون الإقامة في هذه المناطق القريبة من مدينة طرابلس وخاصة في المنشية وفي الساحل لكي يصبحوا موجودين بالقرب من مركز السلطة وبالتالي يكونون رهن إشارة

(1) معاشي، مرجع سابق، ص111.

(2) محمد خليل بن غلبون، تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس من الأخيار، تعليق: الطاهر أحمد الزاوي، مكتبة النور، طرابلس، 1967م، ص160.

(3) عامر، فارس، مرجع سابق، ص184.

السلطة⁽¹⁾، كما انتشرت في مناطق واسعة أخرى خارج مدينة طرابلس وضواحيها المباشرة وبالأخص المناطق الهامة التي تتميز بخصوبة تربتها وغناها بالمواد الزراعية كالخمس، وزليتن ومصراته⁽²⁾، كما وجدوا في منطقة الزاوية واحترفوا الزراعة المروية والبعلية الموسمية⁽³⁾، كأهم نشاط اقتصادي لهم، وبالتالي استفادوا من هذه المناطق في تكوين ثروات، وقد شكلوا نسبةً كبيرة من السكان قد تصل إلى الثلث في بعض المناطق⁽⁴⁾، أما بالنسبة للعدد الإجمالي لهذه الفئة فإن أغلب الدراسات التاريخية تشير إلى أن تعداد القولوغلية في طرابلس خلال الفترة العثمانية الأولى الممتدة ما بين 1551-1711م بلغ قرابة 60 ألف قولوغي⁽⁵⁾، كان لهم تأثير كبير في تكوين المجتمع الطرابلسي، وقد مثلوا الفئة الثانية بعد فئة الإنكشارية في هذا المجتمع، باعتبارهم من أبناء ذلك الجيش ومن أمهات طرابلسيات، لذلك نظر إليهم الأهالي على أنهم عرب أكثر من كونهم أتراكاً⁽⁶⁾، كما أن القولوغلية كانت أكثر اختلاطاً بالمجتمع الطرابلسي من اختلاطهم بالإنكشاريين، ويمرور الزمن أصبح لا يربطهم بالأتراك إلا الاسم فقط؛ بل وحتى لغتهم أصبحوا يجهلونها وحلت محلها اللغة العربية⁽⁷⁾.

أرغمت قوة القولوغلية على الخدمة العسكرية التي كانت تنتقل إلى أفرادها بالوراثة⁽⁸⁾، وقد استفاد من هذه القوة السلاطين العثمانيون في أوقات الحروب⁽⁹⁾ وتسيير بعض الحملات

(1) البربار، مرجع سابق، ص 70.

(2) سالم، مرجع سابق، ص 202.

(3) قداره، مرجع سابق، ص 212.

(4) الطوير، مرجع سابق، ص 111.

(5) عامر، فارس، مرجع سابق، ص 184.

(6) سالم، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، مرجع سابق، ص 203.

(7) فيرو، مرجع سابق، ص 263.

(8) البربار، مرجع سابق، ص 67.

(9) باكير، مرجع سابق، ص 46.

التأديبية ضد القبائل الثائرة⁽¹⁾، مستغلين في ذلك روابط الدم التي تربطهم بهم، على الرغم من أن القولوغلية تقتصر إلى الانسجام بين أفرادها عند حركتها وكذلك إلى الدقة والنظام لأنها غير مدربة التدريب الجيد⁽²⁾ التي تحظى به فرق الإنكشارية، وربما كان ذلك السبب في حرمانها من الامتيازات الهامة التي يتمتع بها كافة الجيش الإنكشاري فيما عدا الإعفاء الكلي من دفع الضرائب⁽³⁾ الذي تمتعت به مقابل هذه الخدمة.

ونتيجةً لارتباط أفراد هذه الفئة مع العنصر الطرابلسي بوشائج المصاهرة فقد أرغموا أيضاً على البقاء داخل إيالة طرابلس، حتى بعد انتهاء مدة خدمتهم في الجيش لأن الآباء الطرابلسيين كانوا لا يسمحون لبناتهم المتزوجات من أفراد القولوغلية بمرافقة أزواجهن إلى بلادهم أو إلى أي مكان آخر ينتقلون إليه، هذا من جهة ومن جهةٍ أخرى كان هؤلاء المتزوجون من القولوغلية يجدون في اصطحاب زوجاتهم الطرابلسيات نوعاً من المشقة⁽⁴⁾ الأمر الذي دفع فئة القولوغلية إلى البقاء والاستقرار في إيالة طرابلس وعاشت جميع الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها البلاد⁽⁵⁾.

وبمضي الوقت احتلت القولوغلية مكانة مميزة في السلم الهرمي على حساب القوى السياسية السابقة، وتمكن أفرادها من الوصول إلى مناصب رفيعة في الإدارة، ففي مدينة المنشية مثلاً التي تعد مكان إقامتهم المفضل تقلد فيها بعض القولوغلية مختلف المناصب ولاسيما في عهد الدايات (1606-1711م) فأكثرهم تولوا فيها منصب إمرة الفرسان⁽⁶⁾،

(1) سالم، المرجع السابق، ص 202.

(2) كامل علي مسعود الوبيه، الإدارة العثمانية في طرابلس الغرب 1842-1911م، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2005م، ص 27.

(3) عامر، فارس، مرجع سابق، ص 184.

(4) بن موسى، مرجع سابق، ص 27.

(5) باكير، مرجع سابق، ص 45.

(6) فيرو، الحوليات الليبية، مرجع سابق، ص 263.

وأخذوا يتدرجون في المناصب القيادية إلى أن تسلمت السلطة في إيالة طرابلس الغرب في مطلع القرن الثامن عشر وحكم أحد أفرادها البلاد وهو أحمد القرماني وهو أحد رؤساء القولوغلية كانت أسرته قد جاءت إلى طرابلس مع طرغوت باشا⁽¹⁾، وقد ساعدته على ذلك عدة عوامل للوصول إلى الحكم منها ما كان يحظى به من عطف الأهالي المحليين نتيجةً للصلة العرقية حيث لقي منهم مؤازرة وتأييداً كبيراً⁽²⁾ وخاصةً من سكان الساحل والمنشية وأهالي غريان⁽³⁾، يضاف إلى ذلك الضعف والانحيار الاقتصادي الذي كانت تعاني منه الدولة العثمانية في منتصف القرن السابع عشر⁽⁴⁾ والذي خلف أثراً سلبية على الأوضاع السياسية والعسكرية، وتأثرت إيالات المغرب العربي بما في ذلك إيالة طرابلس بتلك الأحداث المنهارة الأمر الذي عجل في إنهاء قوة الإنكشارية المعتمد عليها في الإيالة بعدما ضعفت صفوفها، نتيجة التنافس والصراعات الداخلية فيما بينها حتى نست وظيفتها الأساسية في الإيالة، وأصبحت تمارس أعمال السلب والنهب وقتل الأهالي وتبديل السلاطين حسب أهوائها⁽⁵⁾، لذا فإن مصلحة هؤلاء الأهالي والسلطان تقتضي تبديل هذه القوة وبأسرع وقت و بأي قوة أخرى تتولى السلطة في إيالة طرابلس الغرب.

كل تلك العوامل أسهمت بدور مهم في وصول القولوغلية إلى السلطة مع بداية القرن الثامن عشر، ولكن العامل الأكثر أهمية الذي أدى الدور الأكبر في ذلك تمثل في عجز

(1) المرجع السابق، ص 263.

(2) باكير، المرجع السابق، ص 45.

(3) سالم، مرجع سابق، ص 203.

(4) المرجع السابق، ص 222.

(5) عامر، فارس، مرجع سابق، ص 208.

الإنكشارية التي شاخت وهرمت عن مواجهة قوة القولوغلية متنامية آنذاك⁽¹⁾، ولم يكن أمام الدولة العثمانية إلا الموافقة والاعتراف بهذا الوضع الجديد⁽²⁾.

وعلى غرار ما حدث في إيالة الجزائر بدأت هذه الفئة بالترفع على أهالي طرابلس بعد توليها لمقدرات الأمور في الإيالة وتعاضم نفوذها⁽³⁾ وكونت ثروات طائلة على حساب الأهالي⁽⁴⁾ فسلبت منهم أموالهم واستغلتهم لخدمة أهدافها ومصالحها، لذلك كره الأهالي القولوغلية وساءت العلاقات بينهما وهذا ما كانت تسعى إليه السلطات العثمانية بمنع حدوث أي تقارب تحسباً من قيام تحالف بين الأهالي والقولوغلية⁽⁵⁾ داخل إيالة طرابلس الغرب.

3- نشأة القولوغلية في تونس:

على الرغم من صمت أغلب المصادر عن ذكر فئة القولوغلية في إيالة تونس خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر، فإن إحدى الدراسات التاريخية تؤكد على وجودها في المجتمع التونسي منذ وقت مبكر؛ بل ويعود ظهورها إلى قبل استقرار العثمانيين في تونس سنة 1574م⁽⁶⁾، واستندت هذه الدراسة لتأكيد صحة ذلك على إحدى وثائق ابن عظم التي تبين أن شاوشا يدعى سليمان خضر التركي توفي سنة 1585م وبعد وفاته ورثته أمه عائشة بنت محمد العربي وزوجته تركية وابن مطلقته ويدعى بيرم⁽⁷⁾. ويوضح لنا صاحب هذه

(1) عامر وفارس، المغرب العربي الحديث، مرجع سابق، ص 208.

(2) منصور، مرجع سابق، ص 224.

(3) عامر، فارس، المرجع السابق، ص 184.

(4) سالم، مرجع سابق، ص 202.

(5) عامر، فارس، المرجع السابق، ص 184.

(6) قاسم، مرجع سابق، ص 192.

(7) المرجع السابق، ص 192.

الدراسة ما استنتجته من هذه الوثيقة بقوله «إن سليمان هذا مولد من المولدين يشهد بذلك أنه يحمل اسماً ولقباً... ثم إن أمه تونسية حسب ما يوحي بذلك اسمها ومن الراجح أن يكون سليمان ومن شابهه قد استقر في تونس قبل مجيء العمارة العثمانية إذ لا يمكن لطفل تركي عمره أحد عشر عاماً أن يتزوج مرتين وينجب أبناء ويشغل شاوشاً»⁽¹⁾.

ومن خلال ما بينته الدراسة السابقة التي حفظت لنا وثائق تلك الفترة يمكن وضع الاحتمالات المستندة إلى مصادر حول نشأة قولوغلية تونس مما يجعلنا لا نستبعد إن الجيل الأول من قولوغلية تونس ترجع أصوله إلى قوة الإنكشارية التي وفدت إليها منذ منتصف القرن السادس عشر عندما قام خير الدين سنة 1534م بمساعدة الباب العالي باجتياح تونس والقضاء على الحكم الحفصي بها وشرع على إثر الاستقرار بها، ولتوسيع مجال هيمنته سياسياً وجبائياً استقدم عن طريق نائبه في الجزائر 300 إنكشاري ومجموعة من الفرسان لإدارة المنطقة⁽²⁾.

وربما يكون أصول هؤلاء القولوغلية إلى قوات الإنكشارية التي استقرت في القيروان عندما سيطرت على هذه المنطقة قبل سنة 1574م، ومن المعروف عن إنكشارية تونس أنها حبذت الاستقرار بالعاصمة والمدن الساحلية⁽³⁾ وانطبق ذلك على أبنائهم القولوغلية، فبمجرد أن تمت السيطرة العثمانية على تونس سنة 1574م انتقل هؤلاء القولوغلية للسكن في العاصمة تبعاً لانتقال حيدر باشا⁽⁴⁾. ومن المحتمل أن القولوغلي الذي يدعى سليمان الذي تحدثت عنه الوثيقة السابقة كان من بين هؤلاء القولوغلية الذين انتقلوا إلى تونس بأسرته وتوفى فيها سنة 1585م.

(1) قاسم ، مرجع سابق، ص 192.

(2) سليمان، مرجع سابق، ص 49.

(3) إبراهيم محمد السعداوي، الشمال الغربي ذاكرة جهة (ندوة قسم التاريخ ، جامعة جندوبة 15-16 أفريل 2005م)، مكتبة علاء الدين، صفاقس، 2009م، ص 144.

(4) قاسم، مرجع سابق، ص 192.

وعلى كل حال فإن طلائع فئة القولوغلية ظهرت في إيالة تونس كغيرها من إيالات المغرب العربي، يولدون في البلاد لكنهم ينحدرون من أصول غير عربية، حيث ترجع أصولهم إلى قوة الإنكشارية متنوعة الأجناس «من الترك ومن العراق والشام ومن جزر البحر المتوسط ومن البلقان ومن أوروبا الشرقية»⁽¹⁾ التي كانت تستخدمهم الدولة العثمانية في عملية توسعها الأولى، ثم استفادت منهم بعد ذلك في جميع ولاياتها بما في ذلك تونس في تثبيت حكمها فيها وحمايتها من الأعداء وحفظ الأمن⁽²⁾ بداخلها ولإنجاز هذه المهام لابد لهذا الجيش أن يستوطن في البلد داخل حاميات، وكان من الطبيعي أن تحدث عملية الاختلاط والاندماج والمصاهرة بمرور الوقت مع الأهالي؛ لتظهر شريحة هجينة استمرت بعدهم لها مميزاتها وتصوراتها وطموحاتها⁽³⁾، شكلت نسبة معينة في تعداد السكان وطائفة فوق الطوائف الأخرى ولكن تحت طائفة الأتراك، فقد عدّوا أنفسهم أتراكاً ودافعوا عن هويتهم⁽⁴⁾ على الرغم من أنهم أقرب إلى الأهالي من قرب الأتراك إليهم⁽⁵⁾.

كما أن هذه الفئة كانت تحظى بمكانة مميزة في المجتمع وتعد ضمن العناصر المحظوظة وصاحبة الجاه بالإيالة نظراً لأصولهم الجغرافية أو انتمائهم المذهبي⁽⁶⁾ والجدير بالذكر هنا أنهم كانوا يحتفظون بمذهبهم الحنفي، وكذلك لنفوذهم الاقتصادي بعد أن كون أكثرهم ثروات وامتلكوا عدة عقارات علاوة على الامتيازات النقدية التي يتحصلون عليها في مقابل الخدمات⁽⁷⁾ التي يقدمونها عند الحاجة. ولا يقتصر وجود القولوغلية على المناطق

(1) محمد الصادق عبد اللطيف، قليبية (مدينة تروي قصة التاريخ)، تونس، 1999م، ص 60.

(2) بنبليغث، أضواء على التاريخ العسكري في تونس، مرجع سابق، ص 13.

(3) السعداوي، المرجع السابق، ص 43.

(4) المرجع السابق، ص 143.

(5) عباد، مرجع سابق، ص 357.

(6) السعداوي، المرجع السابق، ص 145.

(7) محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس، دار سراس للنشر، تونس، 1990م، ص 70.

الحضرية كما هو الحال بالنسبة للإنكشارية بل كانوا موجودين حتى في المناطق البدوية⁽¹⁾ ولاسيما المناطق الملائمة بيئتها للزراعة، ففي منطقة تبرسق مثلاً الواقعة في الشمال الغربي التونسي تواجد فيها القولوغلية وتأقلموا مع سكانها وأخذوا عاداتهم وتقاليدهم، وكما هو معروف عن قولوغلية تونس بأن أعدادهم كانت قليلة في العهد العثماني المبكر، فإن أعدادهم في تبرسق في ذلك العهد لا تتجاوز ست عائلات ثم بدأت في التزايد التدريجي ومارسوا الفلاحة ولاسيما غرس الأشجار المثمرة كأشجار الزيتون مثلاً حيث كان لأحد القولوغلية وهو محمد بن حمودة بن محمد الحنفي قطعة أرض بتبرسق بها 109 شجرة زيتون أغلبها صغيرة السن⁽²⁾.

وعلى غرار ما حدث لقولوغلية الجزائر وطرابلس من حرمان أفرادها من تولي أعلى المناصب خوفاً من هيمنتهم في بادئ الأمر حدث أيضاً لقولوغلية تونس، ولكن مع مرور الزمن كغيرها تمكنت من تولي عدة وظائف مهمة في البلاد ولاسيما وظيفة عدول الإشراف بدأت طلائع العدول من المثقفين الكراغلة تظهر في إيالة تونس منذ أواخر القرن السادس عشر، ومن هؤلاء العدول الفقيه العدل أحمد شلبي والفقيه العدل محمد بن المعظم جعفر التركي⁽³⁾.

كما أوصل حسين بن علي القولوغلي الأصل الأسرة الحسينية إلى السلطة في تونس مع مطلع القرن الثامن عشر بعد أن شغل العديد من الوظائف وأخذ يتدرج في المناصب إلى أن تسلم السلطة في البلاد سنة 1705م⁽⁴⁾.

(1) قاسم، مرجع سابق، ص 191.

(2) السعداوي، الشمال الغربي ذاكرة جهة، مرجع سابق، ص 144. 145.

(3) قاسم، المرجع السابق، ص 177.

(4) عامر، فارس، مرجع سابق، ص 180. 181.

استنتاج الفصل الثاني

لم تكن نشأة الإنكشارية جديدة ولا بدعة على الجيوش آنذاك، فهي وسيلة اعتمدها الرومان والبيزنطيون، لكنها ليست كالنشأة التي مارسها العثمانيون، لقد أنشؤوا جيوشاً من أبناء المسيحيين ولكن عن دراية وسابق معرفة، فلقد نظموا هذا التجنيد القسري من خلال مؤسسة الدفشرمة التي امتلكت أسساً لم تمتلكها مؤسسة عسكرية لا قبل ولا بعد.

لجان منظمة لديها سجلاتها مدونة ومصدق عليها من قبل القضاة، لا مجال في ورود شخصي دون سجل له، أي خطأ من هذا القبيل رأس رئيس اللجنة والقاضي انفصلوا عن الجسد دون هوادة. لهذا حذت مؤسسة الدفشرمة خطوات ناجحة، والعناصر التي شملها الجمع أو القطع، وجدت في مدينة استانبول لمدة ثلاثة أيام بعدها تتوجه وزملاءها إلى مؤسسة القصر (أوغلانر سراي) منذ اليوم كيوم التخرج، نظام قاسٍ لا هوادة فيه، ولا تواسط.

تعددت أوجاقات الإنكشارية، وكانت فرقتها تضم البيادة (المشاة) والسواري (الخيالة) وكانت لهم علوفة (رواتب)، وهذا دليل على اهتمام الدولة العثمانية بالغلماں المسيحيين الذين جيء بهم بموجب قانون الدفشرمه (الدوفرشمه) وكان أولاد العجم يقسمون إلى قسمين أولاد العجم من الروملي وأولاد العجم من الأناضول، وتقيد أسماؤهم في دفترين أصليين، وقد أقيمت لأولاد العجم ثكنات في غاليبولي كما كلفوا بالعمل في الترسانة، وقد أنشئ لأولاد العجم ثكنات قريبة من ثكنات الإنكشارية في استانبول.

أما القانون الأساسي للإنكشارية فيتألف من أربعة عشر بنداً، البند الأول ينص على التزام الضباط بالانصياع إلى أوامر أولي الأمر، في حين نصت البنود الأخرى، على حقوق وواجبات الإنكشاري، ويلحظ أن البند الرابع عشر أكد على الإنكشاري قضاء وقته في التعلم

والتعليم، ونص القانون على عدم الإسراف في اليقافة للإنكشاري، ويكتفي قلانس وملابس أخرى مثل الغتري وبنطلون الشلوار، وحذر القانون مبيت الإنكشاري خارج ثكنته وعمل الاشتغال بأعمال غير العسكرية وضرورة ممارسة التدريبات العسكرية بصورة مستمرة.

إن القوانين التي نظمت حياة الإنكشاري كانت لمرحلة التدريب بمعظمها، أما بعد التخرج فلم يلتزم الإنكشاري بذلك، لأن قيادة أهملت تلك القوانين وهذا ما أفسده، ولهذا فإن إنكشارية مناطق المغرب العربي كانت مهياة للفساد.

أما القولوغلية فهم الأبناء المولودون من زواج الإنكشارية بالنساء المحليات، وقد تزايدت أعدادهم وغدا لهم تشكيلات خاصة بهم، وقد عهد إليهم حراسة القلاع ولهم آغا وضباط يشرفون على مراقبتهم، وكانت باشوية القولوغلية تتألف من 50 إلى 60 ألفاً، ومع مرور الزمن تحملت القولوغلية أخطاء الإنكشارية، وصدرت أوامر وفرمان تمنحهم مصطلح الإنكشارية، لكنهم مع مرور الزمن أصبحوا من جملة الأهالي، وقد عرفوا بالشجاعة والبرسالة، وقد فرضت عليهم تدريبات على السلاح سنوياً، ففي تونس انصهروا بالأهالي من خلال الأسرة الحسينية، وفي الجزائر تحولوا إلى مناضلين شاركوا الأهالي مهمة مقاومة الفرنسيين الذين احتلوا الجزائر سنة 1830م، في حين تمكن والي طرابلس الغرب حافظ باشا من القضاء على تنظيماتها سنة 1902م.

الفصل الثالث

الأوضاع الإدارية والاجتماعية لإنكشارية مناطق المغرب العربي وقولو غليتها

1- الأوضاع الإدارية :

أ – تقسيماتهم الإدارية .

ب – تكتاتهم .

ج- مهامهم .

2- الأوضاع الاجتماعية :

أ – ظاهرة زواجهم .

ب – حياتهم اليومية (الأكل، اللباس، النشاط الحرفي) .

ج- علاقاتهم بالسكان المحليين .

- استنتاج الفصل الثالث .

أولاً - الأوضاع الإدارية :

أ - تقسيماتهم العسكرية :

لقد كان تنظيم الجيش الذي استقر في إيلات المغرب العربي عقب تأسيسها متشابهاً تماماً لنمط التشكيلات العسكرية العثمانية⁽¹⁾ ولم يطرأ تغير يذكر على ذلك النظام وبقوا محافظين عليه، حيث انقسم الجيش النظامي إلى جيش بحري وبري في الإيالات الثلاثة التي كانت تشكيلاته تشبه بعضها البعض⁽²⁾، وقد تكون الجيش البحري من الرياس الذين كان لهم دور كبير في تأسيس الإيالات المغاربية، وعماد هذا الجيش هو الأسطول⁽³⁾. أما الجيش البري فينقسم إلى عدة فرق واختصاصات أهمها فرقة المشاة التي تحمل البنادق، وفرقة الفرسان أو الخيالة التي تتركب الخيل، وفرقة المدفعية التي يشرف عليها مجموعة مختصة بهذا النوع من السلاح، غير أن معظم ما تواجد في الإيالات الثلاثة من هذه الفرق فرقة الإنكشارية وفرقة الطوباجية اللتان كانتا تمثلان المشاة في أوجاق الغرب، وما تبقى من القوات البرية كان من فرقة السباهية (الخيالة)⁽⁴⁾ التي تمثل الفرسان الذين كانوا يعملون في الزعامات والتمار⁽⁵⁾.

(1) Mahmut Celâleddin, Mirat, Hakikat, Istanbul 1910. S. 275.

(2) عزيز سامح التمر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عبد السلام أدهم، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 1969م، ص 292.

(3) Babi Âli küzey Afriqya Meselesi, Istanbul 1936, S. 543.

(4) محمود شوكت، التشكيلات والأزياء العسكرية العثمانية منذ بداية تشكيل الجيش العثماني حتى سنة 1820م، ت: يوسف نعيمة ومحمود عامر، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1988م، ص 73.

(5) السباهية تعني الخيالة (تمتطي ظهر الخيول والبغال وما شابهها) وهي تحمل علماً أحمر، وقد كلفت في استانبول بحماية المدينة، للمزيد: . S. . Midhat sert oğlu, Osmanlı Tarihi, Ankara, 1958.

وكانت فرقة الإنكشارية منظمة من المشاة، وتعدّ أهم قوة عسكرية في جميع الإيالات، وقد كانت مقسمة إلى وحدات أو فرق عسكرية تسمى أورطة(*) أو كتيبة عدد كل منها 100 جندي⁽¹⁾، وهذه الفرق مقسمة إلى مجموعات تسمى (أوضه) أو غرفة يتراوح عدد الواحدة منها بين 10-30 جندياً، إلا أنه لم يكن عدد الأورطات ولا الأودات ثابتاً ولا عدد الجنود المكون لكل منها مستقراً فقد اختلف من إيالة إلى أخرى وحتى داخل الإيالة نفسها كان العدد مختلفاً في زمن الحرب عن زمن السلم، ففي إيالة الجزائر تشير أغلب الدراسات إلى أن الجيش الإنكشاري كان يتألف من 424 أورطة مقسمة إلى عدة أوضات تضم ما بين 11-30 جندياً إنكشارياً⁽²⁾، وفي إيالة طرابلس الغرب فإن بعض الدراسات تشير إلى أن عدد المقيمين في كل أوضه كان أقل من العدد المذكور في إيالة الجزائر إذ تضم ما بين 12-20 جندياً إنكشارياً فقط⁽³⁾، أما بالنسبة لإيالة تونس فقد بلغ عدد الأوضات في النصف الثاني من القرن السادس عشر حوالي 150 أوضه تضم 20 جندياً إنكشارياً ثم ارتفع هذا العدد بعد ذلك حتى وصل في سنة 1647م إلى 200 أوضه تضم كل واحدة ما بين 20-30 جندياً أو أكثر⁽⁴⁾، وجميع هذه الأورطات التي تضم مائة جندي كان يرأسها قائد يدعى بلوك باشي «قائد أو رئيس السرية»⁽⁵⁾.

هذا عن القسم الأول من المشاة الذي تمثله فرقة الإنكشارية والطوباجية، أما القسم الثاني من الجيش النظامي البري الذي يمثله السباهية الخيالة فقد انتظموا أيضاً في فرقة أورطة: تشكيل عسكري يدعى تشكيل الوسط، وهو أقدم تشكيل وأكبره بعد تشكيل المدفعية، يتألف من مئة نفر رئيسه يدعى (يايا باتشي) رئيس المشاة، أحذيته صفراء (جزمة صفراء) ويعدّ التشكيل 61 من تشكيلات الوسط. للمزيد: مدحت سرت أوغلو، التاريخ العثماني المصور، أنقرة 1958م، ص 56.

(1) بروشين، مرجع سابق، ص 44.

(2) Babi Âli Hariciya Nezareti, Istanbul 1334. S. 437.

(3) بروشين، المرجع السابق، ص 44.

(4) Selim Riza Nur, Yeniçeri Meselesi, Istanbul 1324, s. 98.

(5) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: أدهم، مصدر سابق، ص 258.

أطلق عليها فرقة السباهية التي كان يرأسها قائدٌ في كل إيالة يدعى بآغا السباهية⁽¹⁾، وفيما يخص تنظيم الإنكشارية في الجيش البحري عندما سُمح لها بالمشاركة في الجهاد البحري ولاسيما في إيالة الجزائر سنة 1568م أصبح طاقم السفينة يتكون من رياس البحر وفرقة المدفعية (الطوباجية) يقودها باش طوبجي وفرقة من الإنكشارية يقودها ضابط من صف بلوكباشي برتبة آغا⁽²⁾.

ولجميع هذه الفرق نظام داخلي خاص بها والذي لا يختلف في جوهره عن تنظيم الجيش العثماني الذي كان له قانون يتعلق بإجراءات تشكيلاته العسكرية ومن بينها إجراء الترقيات العسكرية التي كانت تسير كما هو معروف حسب ترتيب الأقدمية⁽³⁾، فالقانون كان يمنح أفراد الإنكشارية ترقية إلى أعلى الرتب^(*) العسكرية إذا أثبتوا شجاعتهم وجدارتهم وانضباطهم بالقوانين العسكرية كافة أو قدموا خدماتٍ جليلة لإيالاتهم على وجه مناسب ومستحق.

وقبل الحديث عن هذه الترقيات لا بد أن نشير إلى اختلاف المصادر والمراجع في إعطاء معنى موحد للرتب العسكرية أو ترتيب موحد لها ولاسيما عند الحديث عن مراتب الجيش الإنكشاري في إيالات المغرب العربي، فهي لا تتفق في المعنى والترتيب إلا على رتبة اليولداش⁽⁴⁾ علما بأنها في أسفل السلم العسكري ورتبة آغا الإنكشارية في أعلاه، وعند التدرج بين الرتبتين نجد الخلاف واضحاً فأغلبية الدراسات تشير إلى أن البداية في الرتب

(1) خير الله أفندي، تاريخ خير الله أفندي، استانبول 1875م، ص 239.

(2) خير الله أفندي، تاريخ خير الله أفندي، مصدر سابق، ص 146.

(3) يجوى تاريخي، تاريخ بجوى، استانبول 1321هـ، ج2، ص 470.

(*) الرتبة العسكرية هي الدرجة أو اللقب الذي يمنح للعسكري وفي ضوءه يتمتع بالحقوق والامتيازات التي تؤهله إلى هذا المنصب، للمزيد: الوبيه، مرجع سابق، ص 205.

(4) اليولداش: كلمة تركية مؤلفة من مقطعين: يول وتعني الطريق، داش وتعني رفيق، وهو مصطلح يطلق على الجنود ذوي الاختصاص الواحد. عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، مرجع سابق، ص 279.

تبدأ منذ بداية وصول الجندي الإنكشاري البسيط (الغر) إلى هذه الإيالات وبعد تعيينه في إحدى وحدات الإنكشارية يبدأ عمله برتبة «يولداش»⁽¹⁾ أي رفيق جديد أو جندي جديد وهي أدنى رتبة في الجيش الإنكشاري ومن الرتب المضمونة لكل جندي، وبعد أن يقضي هذا الجندي ثلاث سنوات في الخدمة العسكرية على الأقل وهو حامل لهذه الرتبة يصل إلى رتبة (أسكي يولداش) أي رفيق قديم أو جندي قديم⁽²⁾، وقد حمل هذه الرتبة أغلب الجيش الإنكشاري في إيالات المغرب العربي فمثلاً في سنتي 1699-1701م وصلت نسبة حاملي هذه الرتبة إلى 80% من مجموع رتب الجيش الإنكشاري⁽³⁾ في إيالة الجزائر حسب إحصائيات تلك الفترة. وبعد حصول الجندي على رتبة (أسكي يولداش) يبدأ التدرج في الرتب العسكرية من أسفلها إلى أعلاها مبتدئاً بهذه الرتبة التي تخول صاحبها الارتقاء إلى رتبة (وكيل الخراج) بشرط أن يكون أكثرهم قدماً وقد وصل إلى هذه الرتبة أعداد كبيرة من اليولداش في الإيالات الثلاث، ففي إيالة الجزائر مثلاً بلغت نسبة حاملي هذه الرتبة إلى 3% من مجموع رتب الجيش الأخرى، وذلك في السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر الميلادي⁽⁴⁾.

وعلى الرغم من أن هذه النسبة بالمقارنة مع نسبة رتبة اليولداش السابقة في الإيالة نفسها في تلك الفترة إلا أنها تمثل عدداً كبيراً بالمقارنة مع الرتب العليا الأخرى، كما أن أصحاب هذه الرتبة كانوا يتقاضون مرتباً أعلى بمرتين من أصحاب الرتبة السابقة⁽⁵⁾.

يمكن لوكيل الخراج أن يرتقي إلى رتبة (الأوضي باش) أي عريف أو قائد الغرفة الذي يعد مسؤولاً عن قيادة فرقة عسكرية يتراوح عدد أفرادها بين 10-15 جندياً أو أكثر⁽¹⁾ ويليه

(1) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عامر، مرجع سابق، ص 134.

(2) S. 208 (مرجع سابق غير مترجم) Midhat ser oğlu .

(3) جودت، مصدر سابق، ج 9، ص 420.

(4) تشارشلي، أوجاق الغرب، مرجع سابق، ص 354.

(5) جودت، المصدر السابق، ج 9، ص 422.

في المرتبة البلوكباش أي رئيس رؤساء الأقسام⁽²⁾ أو قائد الكتيبة وكل هؤلاء البلوكباشيون يشكلون الديوان وأغلبهم كان متقدماً في السن وربما يفسر هذا بقلة عدد من وصل إلى هذه الرتبة في إيلات المغرب العربي فقد كانوا قليلي العدد، ففي إيالة الجزائر مثلاً بلغ عدد حاملي هذه الرتبة 28 شخصاً فقط من المجموع العام للجيش بين عامي 1699-1701م والبالغ عدده ألف وخمسمئة نفر⁽³⁾ حيث كان أغلب ضباط الأوضي باش يتقاعدون قبل وصولهم إلى هذه الرتبة⁽⁴⁾، ويمكن للبولوكباشي الارتقاء إلى سلك الرتب العليا للمؤسسة العسكرية فيصل إلى رتبة الآغا وهي أعلى رتبة في الجيش وأكثر أهمية وشرفاً ورفعةً، فصاحبها "أي الآغا" يعد المسؤول الأول عن قيادة الإنكشارية وتنظيم جميع شؤونها الاقتصادية والعسكرية، فوحده له سلطة مطلقة عليها، ولكنه لا يتمتع بهذا المنصب إلا رداً معيناً من الزمن لأنها رتبة وقتية تتراوح من شهرين إلى ثلاثة أشهر⁽⁵⁾ بحيث تسند إلى غيره من الضباط بالتناوب حسب الأقدمية، وعلى الرغم من قصر الفترة الزمنية لهذا المنصب فقد تمكن بعض الآغوات مشاركة الباشا في القرارات السياسية المتخذة بالإيالة، وأصبح الآغا بذلك الرجل الثاني بعد الباشا في هذه الإيالات، كما تمكن أربع آغوات من الوصول إلى رأس السلطة العثمانية الحاكمة في إيالة الجزائر في الفترة الممتدة من سنة 1659م إلى سنة 1671م، ويصبح الآغا بعد تنازله عن منصب القيادة آغا شرفياً أو معزول آغا ويحال على التقاعد⁽⁶⁾ وتسند له الوظائف المدنية ولاسيما الوظائف الإدارية السامية فيتولى منصب

(1) عباد، مرجع سابق، ص 112.

(2) عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر-تونس)، مرجع سابق، ص 95.

(3) رضا نور، عثمانلي تاريخي، مصدر سابق، ص 313.

(4) هلايلي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ص 38 .

(5) تشارشلي، أوجاق الغرب، مرجع سابق، ص 370.

(6) قاسم، أوضاع إيالة تونس على ضوء فتاوى ابن عثوم، مرجع سابق، ص 134.

«الخانجي»⁽¹⁾ أي الأمين على مفتاح خزانة الإيالة وكان يلقب بـ (كاهية)^(*) وهو مساعد الباشا أو الداوي، وعلى الرغم من أن هذه الرتبة تعادل رتبة (المكتابجي) أي الكاتب العام وكان يلقب بـ(الخوجة) إلا أن رتبة الخانجي تخول صاحبها أن يترشح لمنصب (الداوي)⁽²⁾ وهي كلمة تركية تعني خال وهو لقب شرفي عند العثمانيين قديماً ولكنها حديثاً أصبحت كلمة داي تستخدم كوظيفة عسكرية في إيالات المغرب العربي، ويعدّ الداوي الحاكم المطلق للإيالة وقراراته غير قابلة للنقاش أو الطعن، ومن أهم الشروط لتولي هذا المنصب إثبات الجدارة في كل القضايا العسكرية والبحرية، وكان بإمكان أي إنكشاري يولدش أن يصل إلى هذا المنصب الذي يعد أعلى منصب في الإيالة مروراً بالرتب الأخرى، وهناك أمثلة كثيرة تدل على ذلك فمثلاً الداوي محمد بكطاش في إيالة الجزائر الذي جاء من إستانبول وتقلد رتبة يولدش سنة 1675م ثم ارتقى إلى رتبة وكيل الخراج في سنة 1700م ثم أخذ يتدرج في الرتب إلى أن تولى منصب الداوي على إيالة الجزائر سنة 1707م⁽³⁾، وعليه يمكن القول إنه لا يمكن لأحد أن يصل إلى هذا المنصب إلا بعد الخدمة العسكرية والإدارية لفترة طويلة في الإيالة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه عندما اشتد ساعد الإنكشارية اندفع داياتها للسيطرة على الحكم في إيالات المغرب بدءاً بإيالة تونس، فقد وصل الدايات إلى رأس السلطة العثمانية الحاكمة بالإيالة المذكورة مابين 1590 إلى 1631م، وفي إيالة طرابلس مابين 1606 إلى 1711م، وفي الجزائر مابين 1671-1830م⁽⁴⁾.

(1) معاشي، مرجع سابق، ص 27.

(*) كاهية: تقييد المنصب الذي يشغله نائب الوالي أو الكاتب العام.

(2) الجزائري، المرأة (لمحة تاريخية) مرجع سابق، ص 105.

(3) معاشي، المرجع السابق، ص 38-39.

(4) الأنصاري، مصدر سابق، ص 350.

أما عن تشكيلات القولوجية في الإيالات الثلاث فعلى الرغم من المحاولات العديدة لإبعادهم عن المشاركة في فرق الجيش الإنكشاري⁽¹⁾ في بداية الأمر وطردهم من الوظائف الحكومية إلا أنه مع مرور الزمن سمح لها بالانتساب إلى الجيش الإنكشاري ولاسيما في فرقتي السباهية «الخيالة» والمدفعية⁽²⁾، وأصبحت هذه الخدمة العسكرية تنتقل إليهم بالوراثة، كما أنهم أصبحوا يشكلون تشكيلات خاصة، وكان على رأسهم شخص معين من قبل الحكومة يدعى باش آغا⁽³⁾، وفيما يتعلق بترقياتهم العسكرية فإن أغلب القولوجية حرموا من الحقوق والواجبات في المناصب الحكومية العليا العسكرية والمدنية⁽⁴⁾ وذلك من قبل الإنكشارية مخافة السيطرة على مقاليد الأمور في الإيالات الثلاث وبالتالي كان يعزل أغلبهم عندما يصلون إلى بعض الرتب العليا⁽⁵⁾ ومن المؤكد أنهم حرموا من تولي منصب المكتابجي الخوجة وبقيت حكراً على الإنكشارية في العهد العثماني المبكر، ولكن مع مرور الزمن تمكن بعضهم من الوصول إليها ولاسيما تولي منصب حاكم عام في جميع الإيالات، ففي إيالة الجزائر تمكن حسن بن خير الدين القولوجي الأصل من حكم الجزائر لمرتين (1544-1551م ثم 1557-1567م)⁽⁶⁾، وفي إيالة تونس وصل القولوجي حسين بن علي إلى حكم الإيالة في سنة 1705م، وكذلك الأمر في إيالة طرابلس فقد وصل القولوجي أحمد باشا القرمانلي إلى منصب الحاكم العام للإيالة في سنة 1711م.

(1) هلايلي، مرجع سابق، ص 80.

(2) تشارشلي، مرجع سابق، ص 375.

(3) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عامر، مرجع سابق، ص 228، ولفظة آغا متداولة بكثرة لدى الأتراك وتعني الأب الكبير، أو الأخ الأكبر في العائلة أو الأسرة، وتعني في استخدامها أفندي أي السيد، ومصطلح أفندي يطلق بشكل خاص على العلماء، للمزيد: مدحت سرت أوغلو، مرجع سابق غير مترجم إلى العربية، ص 5.

(4) بجوى، مصدر سابق، ص 400.

(5) الجزائري، مصدر سابق، ص 126.

(6) سليمان قوجسه باشي، التدخل الأجنبي في الثورات العثمانية، استانبول 1993م، ص 78.

ب - ثكناتهم :

منذ أن وصل الجيش الإنكشاري إلى مناطق المغرب العربي خُصص له في كل إيالة ثكنات عسكرية يقيم فيها ولاسيما في وقت السلم، وقد عُرِفَت هذه الثكنات أو المعسكرات (بالقشلات) (*) والقشلة من اختراع الأتراك، وما أن أتموا السيطرة على هذه الإيالات حتى أسرعوا في بناء هذه الثكنات التي اختلف تاريخ بنائها من ثكنة إلى أخرى ومن إيالة إلى أخرى، إلا أن أغلبها شيد في النصف الأول من القرن السادس عشر⁽¹⁾ بالقرب من مراكز هذه الإيالات لتكون المقر الدائم للجنود ومكان إقامتهم، وبعضها أنشئ خارج مراكز الإيالات لتكون أيضاً بمثابة مقر أو مأوى لتلك الحاميات المرابطة في أطراف كل إيالة، وهذا ما تؤكدُه أغلب الدراسات التي تشير إلى تلك الفترة وتؤكد بأن جميع الثكنات في إيالات المغرب العربي ولاسيما في الجزائر كانت قد بنيت على النمط الهندسي المعماري ذي الطابع العثماني المكون من طابقين أرضي وعلوي⁽²⁾.

ومن الطبيعي أن يتشابه الطابق العلوي مع الطابق الأرضي في التخطيط لأنه يقوم على الجدران نفسها وقوامه مجموعة من الغرف كل واحدة تحمل رقماً⁽³⁾، وتصميمها مناسب من حيث التهوية والإضاءة والمساحة فغرف ثكنات الجزائر مثلاً كانت تكفي لإقامة ثلاثة جنود⁽⁴⁾ وهناك من أشار إلى أنها تكفي أو تؤوى من 8 إلى 12 جندياً وقد تصل إلى 20

(*) قشلة أو قشلات: هي لفظة تركية بمعنى «المستى» وصارت فيما بعد اصطلاحاً يطلق على ثكنة الجند أي مكان تعسكر الجند، وبمرور الزمن تغير اللفظ ليصبح على ما هو عليه "قشلة" وذلك بسبب صعوبة لفظها على اللسان العربي.

(1) جوزيف فون هامر، التاريخ العثماني الكبير، ج1، استانبول 1989م، ص 425.

(2) هلايلي، مرجع سابق، ص28.

(3) الجزائري، مصدر سابق، ص96.

(4) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عامر، مرجع سابق، ص133.

جندياً⁽¹⁾، وكانت هذه الغرف مزينة بشكل جميل، ولم تكن هذه الثكنات تحوي غرف الجنود فقط، بل كانت تضم كل ثكنة غرفة خاصة بالضباط وأخرى خاصة بالأسلحة فضلاً عن وجود المرافق الخدمية المكملة كالمطبخ والحمام ومكان للوضوء ومسجد أو مصلى⁽²⁾ وكافة حاجاتهم المدنية، والتخطيط نفسه بالنسبة للثكنات التي تقع في أطراف الإيالات المخصصة لإقامة الحاميات العسكرية خاصة في فصل الشتاء، والاختلاف الوحيد جعل هذه الأخيرة تتكون من طابق واحد وهذا ما تؤكد بعض الدراسات التي تشير إلى إحدى الثكنات في إيالة طرابلس الغرب آنذاك فتؤكد على تكونها من طابق واحد قوامه قاعات كبيرة مبنية حول صحن واسع وربما كان سبب اتساعه إقامة التدريبات والتمارين العسكرية للجنود⁽³⁾.

ومهما يكن من أمر هذه الثكنات وتخطيطها المعماري الذي لا يختلف كثيراً عن ثكنات الإنكشارية في استانبول، فإن جميع إنكشاريي مناطق المغرب العربي ملزمون بالعيش داخل هذه الثكنات طوال مدة خدماتهم العسكرية وخاصة العزاب منهم، وامتازت حياتهم بالبساطة والتواضع داخل هذه الثكنات المغلقة التي كانت لها قوانين منظمة ودقيقة وعلى الجنود الإنكشاريين عدم تجاوزها، ومن أهمها التقيد بأوقات الخروج من الثكنة وعدم الابتعاد عنها والالتحاق بها قبل ساعات الليل⁽⁴⁾ أي قبل قفل أبوابها تقادياً للمشاكل وأعمال الشغب التي عادةً ما تحدث في الليل.

ومن قوانينها شغل أوقاتهم بالرياضة البدنية والتمارين على الحركات العسكرية⁽¹⁾ والتدريب على السلاح، والمحافظة على نظافة الثكنة، وعدم مضايقة الخدم الذين يختارون

(1) تشارشلي، التاريخ العثماني، لواء الإنكشارية، المجلد الثاني 1984، ص 177.

(2) المرجع السابق، ص 25.

(3) سعدي إبراهيم الدراجي، زليتن دراسة في العمارة الإسلامية، منشورات القيادة الشعبية الاجتماعية، زليتن، ليبيا، 2003م، ص 256.

(4) سانتفورد شو، الدولة العثمانية وتركيا الحديثة، استانبول 1982م، ص 353.

(1) الغازي، مرجع سابق، ص 60.

من الأسرى المسيحيين عند مباشرة أعمالهم في القيام بعملية التنظيف داخل الثكنة⁽¹⁾، وعدم الامتناع أو الإضراب عن نوعية الطعام الذي يقدم لهم في ثكناتهم، وغيرها من القوانين الانضباطية الأخرى كالطاعة العمياء لضباطهم وعدم الاتصال أو زيارة أقاربهم وعدم إطالة لحاهم⁽²⁾ وإلى غير ذلك من القوانين المعروفة والخاصة بالجيش الإنكشاري. ومن قوانين الثكنة أيضاً خضوعها في أغلب الأحيان إلى سلطة الآغا وليس إلى سلطة الداي باعتبار الآغا هو الشخص الوحيد الأمر والنهي لهؤلاء الجنود بصفته الرئيس الأعلى لهم⁽³⁾.

أما بخصوص أعداد هذه الثكنات في الإيالات الثلاثة فليس هناك ما يشير إلى أعداد ثابتة وواضحة وخاصة في إيالتي طرابلس الغرب وتونس، أما بالنسبة لإيالة الجزائر فقد تضاربت المصادر التاريخية بخصوص أعداد الثكنات الموجودة بمدينة الجزائر مركز الإيالة، فهناك من يشير إلى خمس ثكنات وهناك من يشير إلى سبع ثكنات والأغلبية تشير إلى ثماني ثكنات⁽⁴⁾ خلال تلك الفترة وهي ثكنة باب عزون التي تعد أقدم الثكنات بالجزائر حيث تأسست سنة 1548م أي في عهد حسن بن خير الدين باشا (1544 - 1551م)، ويوجد بها 28 غرفة (أوضه) تضم 1661 إنكشارياً⁽¹⁾ وتأتي من حيث الأقدمية ثكنة دار الإنكشارية (المكررين) التي يعود تاريخ بنائها إلى عهد قلع علي باشا (1568 - 1587م)

(1) معاشي، المرجع السابق، ص 24.

(2) فون هامر، مرجع سابق، ج 4، ص 134.

(3) أرشيف رئاسة الوزراء، استانبول، وثيقة رقم 214، خط همايوني (H - H). وكانت فرمانات السلطانية ترسل إلى آغا الجند في الإيالة، يحذره من الإخلال بالنظام المتبع، ولهذا كان الوالي يطلب من الآغا إعلامه عن الخلل مهما كان بسيطاً.

(4) عائشة غطاس، مظاهر من الحياة اليومية للجيش الإنكشاري في الجزائر في أواخر العهد العثماني، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، منشورات مؤسسة التميمي، تونس، العدد الخامس والثلاثون، 2007م، ص 308.

(1) أرشيف رئاسة الوزراء، استانبول، وثيقة 17461.

ويوجد بها 27 غرفة يسكنها 899 إنكشارياً⁽¹⁾، ثم ثكنة صالح باشا وعلي باشا (ثكنة الخراطين) التي أنشئت في سنة 1599-1600م وقوامها 30 غرفة يسكنها 2782 إنكشارياً⁽²⁾، أما عن ثكنة الرحبة القديمة أو الفوقانية فقد بنيت في سنة 1667م وتتكون من 31 غرفة يسكنها 1089 إنكشارياً، وبالنسبة لثكنة أسطى موسى (ثكنة باب البحر) فيعود تاريخ بنائها إلى سنة 1675م ويوجد بها 31 غرفة يقيم فيها 1833 إنكشارياً.

يضاف إلى الثكنات السابقة ثكنة بالي وتسمى أيضاً بدار الدروج، وثكنة العريش، وثكنة التماقين، وفي حقيقة الأمر لا تمدنا المصادر بالمعلومات الكافية عن هذه الثكنات الأخيرة وخاصةً عن تحديد سنة تاريخ بنائها، وكل ما هناك أن ثكنة بالي تعد أصغر ثكنة في مدينة الجزائر⁽³⁾ باعتبار أن غرفها لا تزيد عن 15 غرفة يسكنها 602 إنكشارياً⁽⁴⁾.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن بعض هذه الثكنات اختلفت المصادر والمراجع التاريخية في ذكر أسمائها وعن أسباب تسميتها فمثلاً تسمية الثكنة التي بنيت في عهد قلج علي باشا (1568-1571م) يسميها البعض بثكنة دار الإنكشارية مقرون والبعض الآخر يسميها ثكنة مقرر، وذهب جميع هؤلاء إلى أن التسمية جاءت بناءً على أن ساكنيها كانوا من الجند المسنين الذين اعتادوا في غذائهم على أكلة المكرونة، وهناك من يسميها بثكنة المقرئين نسبةً إلى وجودها في حي يسكنه أهل القرآن من الطلبة، أما البعض الآخر فيذكرها بثكنة المكررين لقربها من المسجد الذي يذهب إليه القاطنين بها وخاصةً في شهر رمضان لترتيل القرآن الكريم أي تكرار القرآن⁽¹⁾ فجاءت التسمية بالمكررين، وعلى الأرجح أن هذه التسمية هي الأصح لأن الجميع يؤكد على وجود مسجد بالقرب منها⁽²⁾.

(1) معاشي، مرجع سابق، ص 23.

(2) أرشيف رئاسة الوزراء، استانبول، وثيقة رقم 17354 (خط همايون H - H).

(3) أرشيف رئاسة الوزراء، وثيقة رقم 17349 (خط همايون Hat - H).

(4) أرشيف رئاسة الوزراء، استانبول، تصنيف جودت عسكرية وثيقة رقم 7654.

(1) هلايلي، مرجع سابق، ص 30.

(2) أرشيف رئاسة الوزراء، استانبول، مهمة دفتر، رقم 617، ص 40.

وإلى جانب هذه التكنات التي بنيت لإيواء الجند داخل مدينة الجزائر كانت هناك تكنات أخرى خارجها موزعة على عدة مراكز عسكرية في إيالة الجزائر ومنها في بجاية، وتلمسان، وقسنطينة، والمدية، ومليانة، ومستغانم، وتبسة، ووهران، وبسكرة، ومعسكر، وسوق حمزة، وسوق الغزلان، وغيرها⁽¹⁾.

أما في إيالة طرابلس الغرب فقد توزعت تكنات الجيش الإنكشاري داخل مدينة طرابلس مركز الإيالة وليس هناك معلومات دقيقة عن أعدادها ومواقعها أو عن التاريخ المحدد لبنائها ماعدا المعلومات التي تشير إلى قلعة طرابلس بأنها بنيت منذ عهد الرومان وأعيد بناؤها في العهد العثماني، وقد استخدمت كسكن للجند في تلك الفترة وبأن عدد غرفها وساكنيها كان كثيراً، وربما كان سبب كثرة الجنود في هذه التكنات لحماية مركز الإيالة من الأخطار الخارجية، وهذا لا يعني بأنه لم تكن هناك تكنات خارج مدينة طرابلس لأن فرق الجيش الإنكشاري كانت موزعة في كافة أنحاء الإيالة كتاجوراء وفزان وبعض المواقع الأخرى التونسية التي كانت بيد حكام إيالة طرابلس الغرب في تلك الفترة كسوسة والقيروان والمنستير⁽²⁾، والأمر نفسه فيما يتعلق بتكنات الجيش الإنكشاري في إيالة تونس التي تركزت هي الأخرى في مدينة تونس كتكنة البشامقية والعطارين والزنايدية وسوق الوزر وسيدي عامر⁽³⁾، هذا بالإضافة إلى عدة تكنات في بنزرت وطبرقة وبجاية، وفي بعض المناطق المجاورة كباجة التي تقع جنوب غرب مركز الإيالة حيث كان بها 500 جندي إنكشاري سنة 1685م، وكانت هذه الحامية تقيم بالقصبة كبقية الحاميات الأخرى بالقلاع التونسية⁽¹⁾.

(1) المصدر السابق، مهمة دفنري، رقم 1107، ص 21.

(2) إسماعيل حقي، أوجاق الغرب، مرجع سابق، ص 472.

(3) البارون ألفونسو روسو، الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، ت: محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاربيونس، بنغازي، 1992م، ص 291.

(1) إبراهيم السعداوي، التحولات العمرانية والبشرية بمدينة باجة في العهد العثماني، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، منشورات مؤسسة التميمي، تونس، العدد الثالث والثلاثون، 2006م، ص 138-139.

وإلى جانب الثكنات، سكن إنكشاريو إيالات المغرب العربي الفنادق (الخانات)⁽¹⁾ التي كانت مفتوحة على الدوام لاستقبال الغرباء من كل إيالة، ففي إيالة الجزائر سكن بعض جنود الإنكشارية الخانات التي وصل عددها في مدينة الجزائر وحدها إلى 30 خاناً⁽²⁾، وكذلك الأمر بالنسبة لإيالة طرابلس الغرب، فوجود الإنكشارية والأعلاج زاد من إقامة الفنادق داخل مدينة طرابلس، فقد كانت لهم فنادق خاصة لإيوائهم، ففي فترة تولي عثمان باشا الساقلي 1649م كان هناك فندق داخل المدينة يعرف بفندق سكن عزاب الجند⁽³⁾، هذا بالإضافة إلى فنادق أخرى داخل المدينة كان لها دور كبير في إيواء الجند الإنكشاريين مثل فندق الطبقية، وفندق جيجة، فقد كان هذا الأخير يسكنه رجال المدفعية⁽⁴⁾. وفي إيالة تونس أيضاً هناك إشارات واضحة تذكر وجود فنادق إلى جانب الثكنات كانت تستخدم لإيواء الجند داخل مدينة تونس⁽⁵⁾، إلى جانب الثكنات والفنادق تشير بعض الدراسات إلى وجود بعض المساكن ولا سيما في إيالة طرابلس الغرب استخدمت لهذا الغرض وبالتحديد في عهد الوالي إبراهيم مصرلي أوغلي (1675-1676م) أشارت إلى وجود بيت معد كان يسكنه عزاب جنود الإنكشارية، كما كانت لهم بيوت خاصة أخرى مثل الرباع التي أعدت خصيصاً لسكن الجند⁽¹⁾.

أما فيما يخص المتزوجين من جنود الإنكشارية فإنه من المعروف في قانون الإنكشارية لا يجوز لهم الإقامة في الثكنات بعد زواجهم وربما كان ذلك لقلة الاستفادة من نشاطهم في الدولة لذلك كان على الجندي الإنكشاري في إستانبول بعد زواجه عليه أن يقيم

(1) الخانات: مفرداها خان، ويجمع اللغويون العرب على أن الخان كلمة فارسية معربة وقد عرفت الفنادق منذ أيام المماليك بالخانات.

(2) معاشي، مرجع سابق، ص 25. البشامقية.

(3) رشاد أكرم قوجسي، الإنكشارية، استانبول 1964م، ص 513.

(4) المرجع السابق، ص 380.

(5) قاسم، مرجع سابق، ص 135.

(1) إسماعيل حقي، أوجاق الغرب، مرجع سابق، ص 431.

مع أسرته أو في بيت خاص به، ويصبح مفصلاً عن الأوجاق ولا يذهب إليه إلا مرة واحدة في الأسبوع وذلك لرؤية الضباط⁽¹⁾.

ولكن الأمر مختلف تماماً بالنسبة للجنود الإنكشاريين المتزوجين في إيلات المغرب العربي ولاسيما في إيالة الجزائر، فقد سمح للجنود المتزوجين بالإقامة في التكنات ولم تنقطع صلتهم بها حتى بعد زواجهم، فعلى سبيل المثال كان أحد الجنود من رتبة اليولداش في إيالة الجزائر تزوج في مدينة المدية، وكان يقيم في تكنة الخراطين وغيره كثيرون من مدينة المدية ومعسكر فقد تزوجوا وحافظوا على حق إقامتهم بالتكنات⁽²⁾ ولم يمنعهم أحد من ذلك، وعلى الرغم من السماح لهم بالسكن في التكنات إلا أن أغلب المتزوجين منهم غادروها وسكنوا بيوتاً خاصة⁽³⁾ ولكنهم لم يكونوا حياً خاصاً بهم في مختلف الإيالات وإنما توزعوا في جميع نواحي كل إيالة مندمجين في تلك المجتمعات.

وكذلك الأمر بالنسبة لأبنائهم القولوجية في الإيالات الثلاثة، فلم يقيموا في التكنات وإنما كانوا يقيمون في بيوتهم، ففي إيالة الجزائر سكنت القولوجية في المدن والأرياف بل وسكنوا في أجمل وأحسن حي ولاسيما في تبسة والحامة وميلة وبنوا فيها المساكن الواسعة⁽¹⁾ التي مازالت آثارها باقية حتى اليوم، كما انتشرت مساكنهم بشكل كبير في مدينة تلمسان ووادي الزيتون، هذا بالإضافة إلى أنهم سكنوا المناطق كافة التي كان بها الإنكشاريون وخاصةً إنكشاريو الحاميات⁽²⁾، وفي طرابلس الغرب أيضاً كثرت مساكنهم في المناطق العسكرية وما يجاورها وتعد نواحي المنشية والعلونة والساحل والرقيعات وورشفانة والعزيزية أهم المناطق التي عرفت تجمعاً مهماً للقولوجية في إيالة طرابلس، والأمر نفسه في إيالة

(1) البناء، مرجع سابق، ص 140.

(2) غطاس، مرجع سابق، ص 308.

(3) قوجسي، مرجع سابق، ص 520.

(1) معاشي، مرجع سابق، ص 357.

(2) الجزائري، مصدر سابق، ص 127.

تونس، فقد سكنت قولوغلية تونس في المناطق الداخلية والمدن الساحلية التي كانت تتمركز فيها الإنكشارية⁽¹⁾.

ج- مهامهم :

من المعروف أن مهام الجيش العسكري في أي مكان وزمان تتحصر في الدفاع عن البلاد المتواجد فيها من الاعتداءات الخارجية التي قد تتعرض لها والمحافظة على أمنها، وبحكم هذه الأهمية كلفت قوات الإنكشارية في مناطق المغرب العربي بطرد الاستعمار الأسباني الذي احتل هذه المناطق التي كانت تعاني ضعفاً عاماً آنذاك ولاسيما الضعف العسكري لمقاتليها بالمقارنة مع عدوهم الجيش الإسباني⁽²⁾.

وبالفعل فمنذ وصول القوات الإنكشارية إلى هذه الديار باشرت وعلى الفور أولى مهماتها وجاهدت بالنفس والنفيس ضد المسيحيين في كثير من الحروب، وحققت خلالها عدة انتصارات حاسمة حتى تمكنت من طردهم من هذه المناطق التي غدت بفضل قوات الإنكشارية إيالات عثمانية متمثلة بالجزائر 1518م، وطرابلس الغرب 1551م، وتونس 1574م، وبعد أن أنهى الجيش الإنكشاري مهمته الأولى والصعبة باشر بمهمة رئيسة أخرى وهي تثبيت دعائم الوجود العثماني في الإيالات الثلاثة والسهل على تطبيق الأوامر السلطانية، وبذلك عُدَّ هؤلاء الجنود دعامة نظام البكريك أو أمرة الأمراء في الإيالات⁽¹⁾، وإلى جانب هذه المهمة قدمت فرقة الإنكشارية والفرسان عدة أعمال جلية داخل كل إيالة لتولي مهمة حفظ الأمن والنظام العام فيها والدفاع عنها، وقد كان لهم دورٌ كبيرٌ في صد

(1) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: أدهم، مرجع سابق، ص 227.

(2) سجلات الديوان الهمايوني، سجل رقم 472، ص 5.

(1) سرداح، الجهاد العثماني لإنقاذ المغرب، مرجع سابق، ص 221.

هجمات الأسبان وأعوانهم، ففي إيالة الجزائر سنة 1539م، وفي إيالة طرابلس سنة 1560م، وفي إيالة تونس 1576م⁽¹⁾.

وقد كانت الخدمة تنقسم بين أفراد الإنكشارية إلى عدة أقسام فالقسم الأول وهم الجنود اليولداش (الأغر) فقد كلفوا بالتعليم والتدريب ضمن مواقعهم العسكرية، والقسم الثاني منهم ويمثله المتدربون الذين ينقسمون إلى قسمين: الفعال، والمقاتل، أما القسم الثالث فيمثله القدامى والمتقاعدون وكلاهما يستخدمون في الخدمات الثابتة⁽²⁾.

وإلى جانب فرقة الإنكشارية والفرسان كانت فرقة المدفعية (الطوباجية) التي لعبت الدور المهم في حسم العديد من المعارك وتدمير القلاع الكبيرة والمحصنة ومنها قلعة صخرة الجزائر سنة 1529م، وقلعة طرابلس الغرب سنة 1551م، وقلعة حلق الوادي سنة 1574م، ولم تقتصر مهام فرق الإنكشارية في الدفاع عن مركز الإيالات فقط وإنما اتسعت مهمة الدفاع لتشمل تأمين المنطقة الحدودية لكل إيالة وحراسة سواحلها، فمنذ بداية تواجد القوات الإنكشارية في هذه الإيالات تأسست حاميات من الإنكشارية كلفت بهذه المهمة فتوزعت في أنحاء كل إيالة لحماية تلك القلاع والمقاطعات والعمل على استقرار الأوضاع فيها⁽³⁾.

ومن المهام التي كلفت بها الإنكشارية داخل الإيالة أيضاً قمع الثورات والانتفاضات الداخلية التي كانت تنتشب باستمرار واخضاع القبائل المتمردة على السلطة وتأديبها والأمتلة على ذلك كثيرة ففي إيالة الجزائر تمكنوا من إخضاع مملكة كوكو وبسكرة لسلطة حسن آغا سنة 1542م ومدينتي تغرت وورقلة لسلطة صالح رايس سنة 1552م⁽¹⁾، وفي إيالة طرابلس الغرب تمكنوا بقيادة طرغوت باشا (1555-1560م) من تأديب المناطق الثائرة كغريان وبني

(1) إسماعيل حقي، لواء الإنكشارية، مرجع سابق، ص 440.

(2) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عامر، مرجع سابق، ص 134.

(3) سرداح، المرجع السابق، ص 221.

(1) عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، مرجع سابق، ص 74.

وليد وتاورغاء⁽¹⁾ وضمها إلى مقاطعات الإمبراطورية العثمانية باسم السلطان العثماني، وفي إيالة تونس تمكنوا بقيادة حمودة باشا (1631-1666م) من إخضاع القبائل المتمردة كأولاد سعيد وقبائل أولاد شنوف⁽²⁾.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن القوات الإنكشارية كانت لديها عادة تقليدية متبعة تقوم بها قبل خروجها إلى المعارك الحربية وهي تنظيم مسيرة استعراضية بالشوارع الرئيسية بالإيالات ولاسيما بإيالة طرابلس الغرب، وربما لزيادة وإثارة الحماس في نفوسهم وبأنهم على استعداد تام لخوض هذه المعركة. ويصف لنا الأب فرانثيسكو روفيري في كتابه «عرض للوقائع التاريخية البرقاوية» لهذه المسيرات الاستعراضية للإنكشارية بالشوارع فيقول: (حيث تجلس إحدى الفتيات الشابات مرتدية ملابس جميلة براقّة على ظهر جمل في المقدمة يقوم بضرب الطبل أي الطبالة وتعرف باسم «جياشا» وكانت محل تبجيل ... يتحتم على الجنود المشتركين كافة في المعركة الدفاع عنها حتى آخر قطره من الدم، هذا ويشترط أن تكون الشابة التي يطلق عليها "جياشا" أو حاملة الراية شجاعة مقدّامة لا تهاب الموت وتواجه الأخطار كافة والعدو ببسالتها وشجاعته وتثير الحماس في نفوس المقاتلين وتحملهم على القيام بالأعمال البطولية الجريئة وتركها تقع فريسة في يد العدو يعدّ وصمة عار وشنار وخزي ما بعده خزي)⁽³⁾.

ومن مهام الإنكشارية داخل الإيالة غير الحرب والقتال أنيط بها مهمة مرافقة باشا الإيالة أينما حل وارتحل⁽¹⁾، حيث تشكلت فرقة خاصة من صفوف الحاميات في كل إيالة لإنجاز هذه المهمة؛ بل قامت بمهام حراسية أخرى ففي إيالة الجزائر، إلى جانب الفرقة

(1) أرشيف رئاسة الوزراء، علم وخبر دفتري، رقم 457، ص 42.

(2) أرشيف رئاسة الوزراء، كلان كدان دفتري رقم 378، ص 9.

(3) الأب فرانثيسكو روفيري، عرض للوقائع التاريخية البرقاوية (1551.1911م)، ت: إبراهيم المهدي، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2003م، ص 174.

(1) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عامر، مرجع سابق، ص 148.

المشكلة من السباهية التي اقتصر دورها على حراسة البايات في عواصم المقاطعات كوهران وقسنطينة وغيرها التي أطلق عليها فرقة صولاق، تشكلت فرقة أخرى قوية من الإنكشارية اختلفت في أعدادها من باشا إلى آخر لحراسة قصر الجينية والمحافظة عليه⁽¹⁾، وفي إيالة طرابلس الغرب تشكلت فرقة من بين صفوف الحاميات أيضاً لحراسة الممثلين الدبلوماسيين حيث كانت ترافق هؤلاء القناصل وتؤمن الحماية لهم ولأسرهم أثناء تجولهم في شوارع الإيالة، كما تشكلت فرقة أخرى خاصة لحراسة قلعة طرابلس مركز حكومة الإيالة وضعت تحت قيادة (الكاهيا) نائب الباشا⁽²⁾، وفي إيالة تونس كلفت الإنكشارية بحراسة بعض القرى التابعة للإيالة، هذا بالإضافة إلى أنها كلفت حتى بمهمة حراسة الأسواق والسهرة على نظافة الإيالة التي أوكلت في بداية الأمر إلى أحد الإنكشاريين⁽³⁾.

ومن بين الوظائف التي أختص بها الجند الإنكشاري في الإيالات هي مراقبة الأحياء الصغيرة في مركز الإيالة ولاسيما في مدينة الجزائر، وكذلك مراقبة الجنود الإنكشاريين والقبض على المتهمين منهم⁽⁴⁾، وبخصوص مراقبة كل ما يجري بمركز إيالة طرابلس قام محمد باشا الساقلبي (1631-1649م) بتنظيم تشكيل أمني أشبه ما يكون بشرطة سرية للقيام بهذه المهمة، هذا بالإضافة إلى أنه أنشأ نقاط حراسة وتفتيش في بعض المناطق الاستراتيجية حيث أنشأ نقطة حراسة بالقرب من ملاحه زوارة سنة 1642م نظراً لأهميتها الاقتصادية المتمثلة في استخراج الملح وبيعه إلى تجار البندقية بمكاسب مالية كبيرة تعود إلى خزانة الإيالة، لذلك خصص لهذه النقطة حامية لحراستها قوامها 40 جندياً إنكشارياً و ست مدافع وضعت تحت قيادة ضابط يدعى (ببلوك باشي)⁽¹⁾، وكذلك الأمر بالنسبة لإيالة

(1) أرشيف رئاسة الوزراء، تصنيف عسكري، وثيقة رقم 4875، ص 174.

(2) روسي، مرجع سابق، ص 257. صولاق ومعناها مستنقع، وهناك تصنيف يسمى الصولاقية مهمته مرافقة السلطان.

(3) السعداوي، التحولات العمرانية والبشرية بمدينة باجة في العهد العثماني، صفاقس 1991م، ص 124.

(4) هلايلي، مرجع سابق، ص 36.

(1) إحسان ثريا صرما، مساوئ التنظيمات، د. ط.م، 1988م، ص 89.

تونس حيث أرسلت قوة من الجيش الإنكشاري كمحافظين إلى مناطق الأرياف لملاحقة اللصوص الذين كانوا يقطعون الطرق⁽¹⁾ والعمل هناك على حفظ الأمن وبث الاطمئنان لدى الأهالي.

والى جانب المهام الأولية الدفاعية والأمنية التي كلفت بها الإنكشارية في إيلات المغرب العربي، فقد كلفت في تلك الفترة بمهمة رئيسة أخرى وهي التوجه إلى دواخل كل إيالة لجمع الضرائب العينية والنقدية من الأهالي خلال مواسم معينة وذلك للمساهمة في إثراء الخزينة بهذه الواردات الضريبية، وعلى الرغم من أن الجيش الإنكشاري لم يكن وحده من كلف بهذه المهمة فقد اشترك معه العنصر المحلي مشكلين بذلك المحلة^(*) أو المحلات التي عرفت إيلات المغرب العربي منذ العهد الحفصي واستمر العمل بها خلال العهد العثماني⁽²⁾ إلا أنه انفرد بمكانة مميزة في المحلة على حساب العناصر المحلية، وربما كان ذلك راجعاً إلى حسن تنظيم هذا الجيش وانضباطه الصارم وخبرته الكبيرة في أساليب الحروب النظامية وتسليحه بالأسلحة النارية وخروجه بكامل التجهيزات، لذلك كانت له هبة خاصة ومكانة مميزة تمتع بها ولاسيما في الرواتب والمواقع الأولية⁽³⁾، وقد أطلق على هذه الفرقة المميزة من الإنكشارية في العديد من المصادر بمحلة الترك ولاسيما في إيالة الجزائر وتونس ولم تكن أعدادها كبيرة وخاصةً في إيالة تونس فلم يتجاوز عدد عناصر هذه الفرقة 300 جندي إنكشاري في بداية القرن السابع عشر، ولم يختلف ذلك العدد بكثير فيما بعد⁽¹⁾، وقد كان يطلق على قائد هذا الجيش لقب (باي المحلة) أو المكلف بسفر الأمحال⁽²⁾.

(1) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: أدهم، مرجع سابق، ص 238.

(*) المحلة: هي مؤسسة عسكرية جبائية وقضائية وتفقدية متنقلة.

(2) التر، المصدر السابق، ص 239.

(3) الأرقش وآخرون، مرجع سابق، ص 136.

(1) قوجسي، مرجع سابق، ص 490.

(2) روسو، مصدر سابق، ص 122.

وكما هو معروف فإن مهام محل الترك تنحصر في جمع المجابي المقررة على الأهالي، ففي إيالة الجزائر انقسمت إلى ثلاث محال وهي محلة الغرب، ومحلة الشرق، ومحلة التيطري⁽¹⁾، وتخرج هذه المحال مرة واحدة في السنة بدايةً من شهر نيسان، فتخرج الأولى من مدينة وهران مركز بيلك الغرب ولا تنتهي من أعمال الجباية إلا بعد أربعة أشهر، وتخرج الثانية وهي محلة الشرق من قسنطينة وتعود بعد ستة أشهر، أما بالنسبة لمحلة التيطري فتخرج من عاصمة البايليك ميديا فتجوب المناطق الداخلية والأرياف⁽²⁾ وترجع بعد ثلاثة أشهر وتعد مدة كافية لإنهاء جولاتها، أما في إيالة طرابلس الغرب فتخرج هذه الفرقة من الإنكشارية مرتين في السنة⁽³⁾ تجوب كل مقاطعات الإيالة لتجميع الضرائب وكان ذلك بمساعدة القائد المختص بجمع الضرائب في تلك المقاطعات الذي كان يستعين عادةً بقوة الإنكشارية والفرسان في حالة الامتناع عن دفع الضريبة⁽⁴⁾، وكانت هذه الفرقة عندما تخرج إلى أطراف الإيالة تتزود بتجهيزات خاصة ولاسيما الخيام الكبيرة التي يقيم فيها هؤلاء الجنود حيث تؤوى 20 جندياً وأنواع الأسلحة كافة التي يستعملها جنود الإنكشارية⁽⁵⁾، وكذلك الأمر بالنسبة لإيالة تونس حيث تخرج الفرقة المكلفة بهذه المهمة مرتين في السنة صيفاً وشتاءً فتخرج الأولى وهي محلة الشتاء من مركز الإيالة تونس باتجاه الشمال الشرقي للإيالة مروراً بمناطق الوسط والجنوب الشرقي والساحل التونسي وصولاً إلى الجنوب الغربي للإيالة، وقد تستغرق ما يزيد عن شهرين لإنهاء هذه الجولة⁽¹⁾، أما محلة الصيف فتنتقل هي الأخرى من مركز الإيالة تونس إلى ناحية الشمال ومناطق الجنوب مروراً بباجة ومنها تنفرع إلى

(1) هلايلي، مرجع سابق، ص 109.

(2) الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 135.

(3) بروشين، مرجع سابق، ص 49.

(4) حراز، مرجع سابق، ص 79.

(5) برنيا، مرجع سابق، ص 126.

(1) خليل ساحلي أوغلو، خزينة عامره واردة، استانبول 1984م، ص 215.

فرق باتجاه مجردة العليا كجندوبة وفطناسة ومرنيسة، وباتجاه المناطق الجيلة الواقعة على الحدود الجزائرية كوشاتنة والشيحية وغيرها⁽¹⁾.

ومن بين العادات التقليدية المتبعة لدى محلة الصيف قبل خروجها لجمع المجابي الضريبية قيامها بمهرجان احتفالي منظم حيث تضرب فيه الطبول والدفوف والنوبة من قبل فرق متخصصة، ويشارك في هذا الحفل معظم أهالي مدينة تونس⁽²⁾، ومن بين الأمور المتعارف عليها والمتبعة أيضاً عند خروج هذه المحلة إلى أي منطقة لجمع الضرائب يتحمل سكان تلك المنطقة طيلة مدة الإقامة نفقات إطعامها ومصاريفها⁽³⁾؛ بل وكان هذا الأمر سائداً في جميع الإيالات المغربية الثلاث.

ومن المهام الموكلة إلى الإنكشارية في إيالات المغرب العربي أيضاً المشاركة في القوات البحرية (الخدمة البحرية) على الرغم من اختلاف تنظيمها عن تنظيم الجيش البري إلا أنها انخرطت مع الأساطيل البحرية حقبة الجهاد البحري، واشتركت مع تلك الأساطيل البحرية العثمانية في حرب مالطا سنة 1565م بقيادة طرغوت باشا، وفي معركة ليبانتو البحرية سنة 1571م بقيادة قلع علي وغيرها من المشاركات البحرية الأخرى⁽⁴⁾.

وهكذا ظلت الإنكشارية دعامة أمن التنظيمات الأمنية ودعامة أمن واستقرار الإيالات المغربية الداخلي والخارجي وذلك لفترة طويلة من الزمن.

أما عن مهام القبولوغلية فكلفت هي الأخرى بالعديد من المهام داخل إيالات المغرب العربي وفي مقدمتها المهمة الدفاعية، وخاصةً بعدما سمح لها بالانضمام إلى صفوف الإنكشارية، فكانت ترافق الإنكشارية على هيئة وحدات مسلحة لتشاركها خوض المعارك،

(1) أوغلو، المرجع السابق، ص 220،

(2) سليم طوبال زاده، إيالة تونس خزينة يه كلان، أنقرة 1987م، ص 321.

(3) عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر - تونس)، مرجع سابق، ص 104.

(4) قوجسي، مرجع سابق، ص 57.

فعلى سبيل المثال شارك عناصر قولوغلية طرابلس الغرب فرق الإنكشارية في مواجهة التونسيين الذين هجموا على طرابلس في عهد الداوي بالي باشا (1672-1675م) حتى وصل العدد إلى 2500 مشارك ما بين إنكشاري وقولوغلي في هذه المواجهة⁽¹⁾.

وفي الوقت ذاته كان يناط بها الخدمة في القلاع العسكرية، ولكنها تحت قيادة ضباط إنكشاريين، كما كانت الإيالات تعتمد على القولوغلية في تسيير بعض الحملات التأديبية لضرب القبائل المتمردة والثائرة⁽²⁾ وكذلك في فض المنازعات التي تحدث بين القبائل من حين إلى آخر، ومن أبرز مهام تشكيلات القولوغلية فرض الأمن والسلم والنظام في الإيالات الثلاث والسهر على حراستها والعمل على إقامة العدل والطمأنينة لأهاليها⁽³⁾.

ففي إيالة الجزائر لم تقتصر مهام القولوغلية في الحفاظ على الأمن والنظام في الداخل والقيام ببعض الوظائف المساعدة الأخرى بل اتسعت مهامهم لتشمل قمع ثورات الإنكشارية حيث استعان بها خضر باشا سنة 1596م للتخلص من شوكة الإنكشارية، إلا أن محاولته لم يكتب لها النجاح⁽⁴⁾. أما في إيالة طرابلس فقد تشكلت منها وحدات أمنية عسكرية أنيط بها مهمة المحافظة على الأمن خارج السور⁽⁵⁾، وربما كان ذلك لأن وظيفة الحارس خارج المدينة وقائده الذي يدعى بقائد الفحص في نظر الإنكشارية من الوظائف غير الشريفة⁽¹⁾، لذا تخلوا عنها للقولوغلية وكلفوا الدرك (الجندرية) بمهمة المحافظة على الأمن داخل السور، وهذا ما يؤكد عزيز سامح النتر عن تقاسم هذه المهام بين الدرك والقولوغلية فيقول (وكان البوليس الرسمي للولاية والجندرية ينظر فيما هو داخل السور أما خارج السور فكانت

(1) بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث، مرجع سابق، ص 70.

(2) طوبال زاده، مرجع سابق، ص 350.

(3) البربار، مرجع سابق، ص 66.

(4) أوغلو، خزينة وارداتي، مرجع سابق، ص 490.

(5) تشارشلي، غرب أوجاق تنظيماتي، أنقرة 1968م، ص 117.

(1) النتر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عامر، مرجع سابق، ص 144.

المحافظة على استتباب الأمن والسكينة خارج السور منوط بالقول (أوغليين)⁽¹⁾ أي أنها كلفت بخدمات الشرطة خارج المدينة إلى جانب مهمة المحافظة على القلعة والسهر على حراسة الأسواق وجمع الضرائب من الأهالي باستمرار، كما أدى عناصر القولوغلية دوراً واضحاً في تاريخ إيالة تونس خلال العهد العثماني حيث استعان بهم الداوي يوسف (1610-1637م) في حربه ضد دايات الجزائر، كما استعان بهم حسين بن علي (1705-1740م) في تثبيت سيطرته على الإيالة وخاصةً في السنوات الأولى من حكمه⁽²⁾.

والجدير بالذكر أن الدولة العثمانية في مقابل هذه الخدمات لم تكتفِ بإعطاء الرواتب للإنكشارية والقولوغلية في الإيالات المغربية فقط، وإنما كافأت كل من بذل جهداً كبيراً لخدمة السلطان والدولة، فمنحت الإنكشارية مقابل خدماتها الاقطاعات على شكل تيمار وزعامت ليعيشوا منها زمن السلم، وبعضهم منح مكافآت مالية وهدايا أو عوائد من مختلف المناطق بالنسبة لجامعي الضرائب وخاصةً ذوي الرتب العليا منهم التي تصل إلى 3000 ريال للآغا المكلف بجمع الضرائب والأمثلة على ذلك كثيرة، ففي إيالة الجزائر منح التيمار والزعامت لبعض القواد والجنود الإنكشاريين، فقد خصص في عهد حسن باشا "فاننزيانو" (1577-1580م) للقائد عمر بن مصطفى تيمار بمنطقة سكتوار بقيمة 6000 أقة⁽³⁾، وفي سنة 1582م حصل بعض الجنود الإنكشاريين الموجودين في المنصورة على مكافأة مالية اختلفت من جندي إلى آخر وذلك على حسب نوعية الأعمال الجليلة التي بذلوها في المنطقة المذكورة⁽¹⁾، وفي إيالة طرابلس الغرب ارتفع عدد الزعامت الممنوحة للجنود الإنكشاريين بعد عهد حيدر باشا فوصلت إلى 30 زعامت، كما منح الإنكشاري أونودعمي راتب يومي يقدر بـ 20 أقة سنة 1574م عندما تم نقله إلى إيالة طرابلس وذلك لخدماته في

(1) تشارشلي، غرب أوجاق تنظيماتي، مرجع سابق، ص 280.

(2) الأرقش وآخرون، مرجع سابق، ص 158-159.

(3) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عامر، مرجع سابق، ص 35.

(1) التميمي، مرجع سابق، ص 294.

القوات البحرية التي استمرت أكثر من 15 سنة⁽¹⁾، وكذلك الأمر بالنسبة لإنكشارية إيالة تونس فقد منحت أيضاً مبالغ مالية كبيرة على شكل رواتب زعامت وتيمار سنة 1574م لبعض القادة الإنكشاريين الذين بذلوا جهوداً كبيرة في عملية فتح حلق الوادي وتونس ومنهم القائد محمد بن مصطفى الذي منح 1500 أجرة كمكافأة له على ذلك، بل وصل المبلغ إلى 14000 أجرة الذي منح لعلي جاويش لما قام به من خدمات⁽²⁾.

أما بالنسبة للقولوغلية فقد تمتعت هي الأخرى بعدة امتيازات مادية ومعنوية مقابل الخدمات التي كلفت بها، فإلى جانب الرواتب من خزينة الإيالة أعفيت هذه الفئة من الضرائب وكان الإعفاء كاملاً عن كل ما تملك، ومنحت الترقيات طبقاً لقواعد الأقدمية⁽³⁾، كما تم منحها المناصب السامية وسمح لها بالقيام بالأعمال التجارية وامتلاك الأراضي الخصبة والعقارات وتسجيل أبنائها كمتطوعين في الجيش الإنكشاري⁽⁴⁾، وغيرها من الامتيازات النقدية أو العينية الأخرى.

ثانياً - الأوضاع الاجتماعية:

أ - ظاهرة زواجهم :

يعدّ حظر الزواج على الإنكشارية من أهم بنود القانون الأساسي للإنكشارية وذلك منذ بداية تأسيسها أي منذ بداية القرن السادس عشر، حيث كان أفرادها لا يتزوجون على الإطلاق⁽¹⁾، وقد أقر سلاطين تلك الفترة ذلك القانون الذي يمنع حق الزواج للإنكشارية لأنه سيشكل عائقاً أمام أعمالهم الحربية، فانشغالهم بتكوين عائلة وزيادة عدد الأطفال وما يترتب

(1) مدحت سرت أوغلو، التاريخ العثماني المصور، مرجع سابق، ص 220.

(2) تشارشلي، غرب تنظيماتي، ص 284.

(3) قوجه باشي، التدخل الأجنبي في الثورات، اسطنبول 1918، ص 320.

(4) الجزائري، مصدر سابق، ص 127.

(1) البناء، فرقة الإنكشارية نشأتها ودورها، مرجع سابق، ص 138.

عليه من زيادة تكاليف المعيشة اليومية⁽¹⁾ والعمل ليلاً نهاراً لتغطية نفقاتها وبالتالي فإن روابطهم الأسرية وعواطفهم نحوها وأوقاتهم المشغولة لن تسمح لهم بتلبية نداء الجهاد في أي وقت والاستماتة في القتال ولا حتى الاستعداد للتدريب على أعمال الجندية وسيميلون إلى الحياة المدنية ويفقدون مهماتهم العسكرية لأنهم سيُعدون عن الثكنات وربما يؤدي ارتفاع الأسعار خارج الثكنة وانخفاض المستوى المعيشي لحياتهم الجديدة إلى تحولهم أداة نهب واعتداء على الأموال والأرواح⁽²⁾، ويصبحوا نقمة على الدولة والرعية، ولهذه الأسباب لم يكن يُسمح لهم بالزواج. واستمر ذلك الحظر بموجب هذا القانون ولم يجر أي تعديل له لفترة من الزمن، وقد التزمت الإنكشارية بتنفيذ هذا القانون الذي يهدف إلى بناء جيش قوي توجه عواطفه نحو الإسلام والسلطان وتبعده عن الزوجة والأبناء.

ومن أجل الحد من عملية زواج الإنكشارية وتقليلها لضمان خدماتهم العسكرية شدد هذا القانون العقوبات على كل من يتزوج من الإنكشاريين وذلك بطرده نهائياً من الثكنة العسكرية التي كان يقيم فيها ويشطب اسمه من قائمة جنود العزب ويحرم من الامتيازات التي يتمتع بها زملاؤه العزب داخل الثكنة⁽³⁾ ويحرم من نظام الترقية إلى الرتب التصاعدية⁽⁴⁾، ويعامل هذا المتروج على أساس أنه أقل درجة من الأعزب، هذا بالإضافة إلى حرمانه من تولي بعض المناصب المهمة والحساسة كمنصب الخوجة (الكاتب)، ومنصب بيت المال (المخزنجي)⁽¹⁾، وعلى الرغم من الامتيازات المتعددة لحياة الإنكشاري الأعزب وفرض العقوبات المادية والمعنوية لمن يتزوج منهم إلا أن ذلك لم يمنع بعض أفراد الإنكشارية من الإقبال على الزواج منذ نهاية القرن السادس عشر، غير أن الأمر اقتصر

(1) الغازي، مرجع سابق، ص 177.

(2) جودت، مصدر سابق، ج 9، ص 669.

(3) معاشي، مرجع سابق، ص 173.

(4) جودت، مصدر سابق، ج 9، ص 671.

(1) معاشي، مرجع سابق، ص 173.

في البداية على كبار السن من الإنكشارية⁽¹⁾ وعُدل بند هذا القانون على هذا الأساس بالسماح لكبار السن بشرط موافقة السلطان على ذلك ولا يتم الزواج إلا بعد تقاعدهم⁽²⁾. هذا بالإضافة إلى الشروط السابقة المتمثلة في حرمانهم من امتيازات الإنكشاري الأعزب كافة ولم يبق لهم إلا راتبهم الرسمي فقط⁽³⁾.

ومع مرور الوقت أصبح هذا الحق يسري حتى على أصحاب الرتب العليا في الجيش الإنكشاري، ومع نهاية القرن السادس عشر ولاسيما بعد انخراط أعداد كبيرة من المسلمين في الجيش الإنكشاري⁽⁴⁾ ألغي ذلك الحظر المفروض على أفراد الإنكشارية بعدم الزواج وأصبح حق الزواج قانونياً للجميع، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع عدد المتزوجين منهم من مختلف الرتب وأصبح الإنكشاري يقدم على الزواج من نساء مختلف الأراضي المفتوحة بصورة عادية ولاسيما مناطق المغرب العربي التي تزامن فتحها مع صدور قرار إلغاء الحظر المفروض على أفراد الإنكشارية بعدم الزواج من قبل السلطان سليمان الأول (1520-1566م)⁽⁵⁾ ومنذ ذلك الحين كان بإمكان أي جندي أو ضابط إنكشاري أعزب وصل إلى هذه المناطق أن يتزوج من النساء المحليات (الجزائر - طرابلس - تونس)، وهذا ما حدث فعلاً بمصاهرة الإنكشارية للأهالي على الرغم من محافظة المجتمع المغربي على التماسك الأسري والحرص على الزواج من الأقارب⁽¹⁾ غير أنهم وافقوا على تزويج بناتهم من أفراد الإنكشارية وربما كان ذلك لغرض المصلحة لعلهم يلتصقون من وراء هذه المصاهرة الحماية

(1) البناء، المرجع السابق، ص 138.

(2) البناء، مرجع سابق، ص 41 .

(3) قوجسي، مرجع سابق، ص 518.

(4) الغازي، مرجع سابق، ص 176 .

(5) المرجع السابق، ص 177.

(1) سرداح، مرجع سابق، ص 239.

الفعالة⁽¹⁾، وربما رأى بعضهم الآخر مصاهرة كبار الموظفين من الإنكشارية قد توصلهم إلى الثروة والجاه. وهذا لا يعني بأن كل الأهالي وافقوا على مصاهرة أفراد الإنكشارية فهناك من رفض حتى مصاهرة الحكام العثمانيين، فمثلاً رفض الشيخ عبد العزيز العباسي زعيم أسرة المقراني المرابطة في بايلك قسنطينة الجزائر في منتصف القرن السادس عشر طلب حسن باشا بن خير الدين⁽²⁾ الذي رغب في الزواج من ابنته وربما كان سبب الرفض لنسله الشريف أو لغير ذلك من الأسباب.

أما عن مصاهرة أفراد الإنكشارية للأهالي فإن البعض منهم قد يكون إقدامه على الزواج من بنات الأهالي ليس لغرض الاستقرار الأسري وإنما كان لأغراض ومصالح مادية إذا تزوج إحدى بنات أثرياء الإيالة أو من ذوي المناصب العليا وبالتالي تغنيه عن الامتيازات المادية التي كان يتمتع بها داخل الثكنة العسكرية وهو عازب وغيرها من المصالح الخاصة، وربما كان العامل الديني من أكثر العوامل التي ساعدت على إقامة علاقة المصاهرة بين الإنكشارية والأهالي⁽³⁾.

ومهما يكون من أمر دوافع وأسباب هذه العلاقة إلا أنها تكونت بين الطرفين على الرغم من الاختلاف العرقي بينهما، فقد تزوج الإنكشاريون من مختلف الأسر بالريف وخاصةً الريف الجزائري والتونسي ومدن الإيالات الثلاث كافة⁽⁴⁾ التي شهدت عقود زواج من هذا النوع مبيناً فيها قيمة الصداق أو المهر الذي يعد الحق الشرعي للزوجة متفقين عليه بالتراضي والقبول وعادةً ما تختلف قيمته من زوج إلى آخر وذلك على حساب الوضع المالي للزوج، فعلى سبيل المثال كان أفراد الإنكشارية من رتبة يولداش المرابطون في ببايك قسنطينة في إيالة الجزائر يدفعون صداقاً قدره 100 ريال⁽¹⁾ ولا يزيد عن ذلك إلا في حالات

(1) صولاق زاده، مصدر سابق، ج2، ص 412.

(2) معاشي، مرجع سابق، ص 123.

(3) قوجه باشي، مرجع سابق، ص 392.

(4) بن موسى، مرجع سابق، ص 27.

(1) قوجه باشي، التدخل الأجنبي في الثورات، مرجع سابق، ص 400.

نادرة، بينما كان الحكام منهم يدفعون مبالغ للصدّاق بدون حساب فقد وصلت قيمة الصداق لأم هاني ابنة الغيث القشاش من إيالة تونس عند زواجها إلى 4000 دينار ناهيك عن 14 قرطاساً الحوائج الثمينة و4 أرطال جوهر نفيس⁽¹⁾.

إن مصاهرة هذه الأسر لم تكن مقتصرة على الحكام والدايات والبايات وكبار الموظفين بل تعدتها إلى مختلف العناصر الإنكشارية المتواجدة في هذه المناطق، فقد شملت حتى كبار السن والمتقاعدين من الإنكشارية وهو ما أشار إليه حمدان خوجة بقوله (وجل أعضاء هذا الديوان متقدمون في السن ومتزوجون من بنات أهل البلد)⁽²⁾. كما شملت ظاهرة الزواج أفراد اليولداش وهم الفئة الأكثر عدداً ضمن عناصر الإنكشارية، حيث تشير إحدى الدراسات إلى أفراد اليولداش المرابطين في ببايك قسنطينة بإيالة الجزائر إلى أن نسبة المتزوجين منهم وصلت إلى 4.9٪ وذلك في 1699-1701م⁽³⁾.

وقد كانت الحياة الزوجية للكثير منهم مستقرة بعدما استخدموا ثروتهم في بناء البيوت الجميلة في الأرياف والمدن⁽⁴⁾ بالإيالات الثلاثة واتجهت الحياة إلى الصناعة والفلاحة، فعلى سبيل المثال استقرت عائلات إنكشارية الأصل في القرن السادس عشر بجزيرة جربة في إيالة تونس ومنها عائلة عبد الرحمن الإنكشاري البرجي الطيبي الذي تزوج من لؤلؤ بنت بحرون الخرجاني وأنجب أربعة أبناء وهم رمضان وسعيد وعمر ومسعودة⁽¹⁾، واندمجت هذه الأسرة في المجتمع الجربي واتجهت لممارسة النشاط الاقتصادي الصناعي والفلاحي ففي سنة 1649م اشترى عبد الرحمن الإنكشاري «رب هذه الأسرة» النول المعد لصناعة الحياكة من البائعين له

(1) قاسم، مرجع سابق، ص 231 .

(2) الجزائري، المرأة، مصدر سابق، ص 97.

(3) سجلات الديوان الهمايوني، رقم 66 ص 11 (4 ذي الحجة لسنة 1101هـ/1689م.

(4) فارس، مرجع سابق، ص 85.

(1) الهادي بن يونس الإنكشاري، الدولة العثمانية ودور الإنكشارية (إنكشارية جربة نموذجاً)، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، 2009م، ص 124. 125.

سعيد بن يونس من القبيل والتمون بعزير⁽¹⁾، كما أنه كان مهتماً بالفلاحة وتعمير الأراضي ففي سنة 1652م اشترى من أبي القاسم الصدغياني قطعة أرض مشجرة بحومة البرج والقريبة من محل سكناه⁽²⁾.

وبالرغم من أن المجتمعات المغربية في تلك الفترة كانت تتقبل ظاهرة تعدد الزوجات وبأن عقود زواج الإنكشارية لم يشترط فيها الالتزام بعدم الزواج بأكثر من واحدة إلا أن إنكشاريي الإيالات الثلاث لم يمارسوا التعددية الزوجية، وإن وجدت فهي حالات نادرة وربما كان ذلك لتخوفهم من عدم المقدرة على تغطية النفقات المالية لأسرهم التي سيزداد عدد أفرادها مع الأيام ناهيك عن ما سيدفعونه من صداق إلى الزوجات الجدد، أو لتخوفهم من المشكلات التي ستحدث داخل كل أسرة من شقاء الضرة، وما سيحدث عند انعدام العدل بين الزوجات أو أبنائهن داخل الأسرة الواحدة. كل هذه الأسباب كانت عائقاً أمام الإنكشاريين لممارسة التعددية الزوجية وخاصةً الفقراء منهم⁽³⁾.

وفيما يتعلق بظاهرة زواج القولوغلية في المغرب العربي فعلى الرغم من أن الدولة العثمانية وضعت العراقيل والقيود أمام جنود الإنكشارية للتقليل من ظاهرة زواجهم وخاصةً بالنساء العربيات وذلك خوفاً من تحول هؤلاء الجنود وأبنائهم فيما بعد إلى قوة محلية تقلق وجودهم في كل إيالات المغرب العربي عندما يتحالفون مع الأهالي للصلة العرقية بدلاً من تحالفهم مع الإنكشارية، وعندها يصعب محاولة كسر التحالف بينهما⁽¹⁾.

وعلى الرغم من كل ذلك أقدم هؤلاء الإنكشاريون على الزواج من النساء المحليات وكما هو معروف فإن الأبناء الناتجون من ذلك الزواج كانوا فئة القولوغلية التي لم يكن عناصرها بمعزل عن المجتمع المغربي فكانوا أكثر اختلاطاً بالأهالي من الإنكشارية حيث

(1) الإنكشاري، الدولة العثمانية ودور الإنكشارية، مرجع سابق، ص 77.

(2) خير الله أفندي، مصدر سابق، ص 470.

(3) قاسم، أوضاع إيالة تونس العثمانية، مرجع سابق، ص 32.

(1) معاشي، مرجع سابق، ص 173.

كانوا يعملون معهم وفيهم باعتبار أن أمهاتهم من تلك المجتمعات المغربية وغير تركيبات وبالتالي فالأهالي يعدون أخوالهم⁽¹⁾. وعليه فإن صلة القرابة أو الانتماء الوطني ساعد أفراد القولوجية على إقامة علاقات مصاهرة مع الأهالي بصورة عادية لا يعيقها أي مانع في الإيالات الثلاث، وغدت ظاهرة اجتماعية عامة بين القولوجية والأهالي وخاصة بعدما أصبحت فئة القولوجية تشكل شريحة كبرى من سكان الإيالات المغربية.

ب - حياتهم اليومية (الأكل، اللباس، النشاط الحرفي):

من المعروف أن الإنكشارية كانت تعيش داخل الثكنات العسكرية التي كان لها نظام خاص في غاية الدقة ولا أحد منهم يستطيع أن يخترق ذلك النظام والقوانين المعمول بها وخاصة في المرحلة الأولى فكانوا ملتزمين بنظام معين في الأكل واللباس وممارسة نشاطات حرفية محددة.

أ - الأكل: لكي يؤدي الجندي دوره في زمن السلم والحرب لابد من أن تتوفر له جميع التجهيزات والاحتياجات الضرورية ولاسيما الخدمات التموينية اللازمة لتأمين معيشته والمحافظة على صحته التي تتطلب الغذاء الجيد⁽²⁾، ومن أجل ذلك اهتمت الدولة بالنظام الغذائي للجيش في الإيالات وصرفت مبالغ مالية لسد احتياجاتهم من المواد الغذائية فخصصت لكل أشرطة ضابط يدعى وكيل الخراج الذي يعد المسؤول الأول عن توفير المؤنة للجنود⁽¹⁾ وعن شراء أدوات المطبخ وغيرها من المستلزمات الخاصة بالتموين وكيفية توزيعه على العساكر داخل الثكنة ولاسيما في أيام السلم التي اختلفت فيها الحصص الغذائية للجندي عن أيام خروجه لجمع الضرائب أو خروجه في مهمة بحرية، ففي أيام السلم كانت

(1) خير الله أفندي، مصدر سابق، ص 450.

(2) إسماعيل حقي، أوجاق الغرب، مرجع سابق، ص 379.

(1) هلايلي، مرجع سابق، ص 39.

الإيالة تخصص لكل جندي داخل الثكنة طعامه الذي يشمل بعض المواد الغذائية الأساسية فتوزعه على الجنود مجاناً وبصورة يومية ومنظمة، وتتكون هذه الحصّة الغذائية اليومية للجندي في إيالة الجزائر من أربع خبزات وزنها نصف رطل مصنوعة من القمح والشعير⁽¹⁾ وضعف هذه الكمية بالنسبة للضابط من صف البلوكباشي⁽²⁾، كما تشمل الحصّة الغذائية اليومية على الأرز المطبوخ بالزبدة وهذا الصنف يدعى بأرز بلاو. هذا بالإضافة إلى البرغل وبعض أنواع فاكهة الموسم وماء، وأما التين المجفف فيقدم لهم مرة واحدة في الأسبوع⁽³⁾ وكذلك الأمر بالنسبة للحم الذي يقدم لهم مرة واحدة أو مرتين فقط في الأسبوع⁽⁴⁾، وبالنسبة للعساكر اليولداش الذين يخدمون في قصر الجنيّة والقصبة يقدم لهم خروف ونصف كل أسبوع، كما يختلف الأمر في أيام الأعياد وخاصةً في عيد الأضحى فكانت تعطى لهم لحوم حية لتذبح عند أورطاتهم⁽⁵⁾. أما إذا كان هؤلاء الجنود خارج الثكنة للقيام بحملة لجمع الضرائب من إحدى بابليك الجزائر فيقدم لهم الطعام المكون من الأرز والكسرة والمرق، وفي العادة كان يرافقهم طبّاخ لإعداد الوجبات الميدانية مثلما كان سائداً في إيالة طرابلس حيث التزمت فرقة خاصة أغلبها من الزوج ترافق فرقة الإنكشارية عند قيامها بجمع الضرائب أو أثناء خروجها للحرب لتقوم بالطبخ وإعداد الوجبات. ويختلف ما كان يقدم للجنود الذين يخدمون في سلك البحرية أو عند القيام بمهمة بحرية فمعظم غذائهم يعتمد على مواد غذائية جافة التي تبقى لمدة طويلة ولا تتعفن كالتين الجاف واللحم الجاف والخل والزيتون وزيت الزيتون والبسكويت⁽¹⁾.

(1) تشارشلي، أوجاق الغرب، المرجع السابق، ص 384.

(2) هلايلي، المرجع السابق، ص 147.

(3) نمير، مرجع سابق، ص 155.

(4) قوجسي، مصدر سابق، ص 650.

(5) البناء، مرجع سابق، ص 181.

(1) نمير، تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ص 155.

وفي حقيقة الأمر فإن المصادر والمراجع لا تمدنا بالمعلومات الكافية عن مكونات الحصة الغذائية اليومية التي كانت تقدم للجندي الإنكشاري في إيالة طرابلس وتونس، وباعتقادنا أنها كانت مشابهة ولا تختلف كثيراً عما كان يقدم لأقرانهم في إيالة الجزائر.

أما أطعمة أفراد القولوجية في الإيالات الثلاث فلم يكن لهم نظام معين لأنهم مسئولون عن طعامهم بأنفسهم إلا في حالة خروجهم لمرافقة فرقة الإنكشارية لجمع الضرائب فيكون لهم ما لأفراد الإنكشارية من حصة الغذاء المجاني الذي كان يقدم لهم يومياً⁽¹⁾.

وعلى الرغم من اندماج عناصر القولوجية مع الأهالي في الإيالات الثلاث حتى أصبحوا يجهلون لغتهم وثقافتهم إلا أنهم بقوا متمسكين بالعديد من تقاليدهم الشرقية وخاصة المأكّل والملبس⁽²⁾.

ب- اللباس: منذ بداية تأسيس الجيش الإنكشاري وضع له زي عسكري خاص وذلك لتمييزه عن القوات الأخرى، ولهذا اهتمت الدولة العثمانية بالزي وأولته عناية خاصة فجعلته متماشياً مع التقاليد والأعراف العثمانية⁽³⁾، وبذلك كانت الملابس العسكرية التي توزعها الدولة على الجيش لم تختلف كثيراً عن لباس العثمانيين العادي⁽⁴⁾. ولكنه كان الأساس في التفريق بين الرتب العسكرية في الجيش فتختلف ملابس قادة الإنكشارية الذين يلبسون الحرير ويتزينون بريش النعام عن ملابس الجنود الذين لا يلبسون الفاخر من الثياب وإنما لباسهم موحد من القماش العادي⁽¹⁾ الذي كان يميزهم عن غيرهم من الضباط العسكريين وعن أصحاب الوظائف الإدارية السامية التي كانت تسند إلى غيرهم من الإنكشارية، ولكن لباسهم الإنكشاري المتميز كان يختلف في حد ذاته إلى ملابس يومية وملابس خاصة

(1) سجلات الديوان الهمايوني، رقم 259، ص 51.

(2) سالم، مرجع سابق، ص 203.

(3) تاريخ الأندرون لعطا باشا (كل رجل ينتسب للديوان الملكي الهمايوني يدعى أندروني سواء في مركز الدولة) أو في ولاياتها.

(4) تاريخ لطفي، مصدر سابق، مجلد 8، ص 7.

(1) قاسم، مرجع سابق، ص 135.

بالحرب وملابس أخرى خاصة بالأيام الرسمية أي المراسم وهذه الأخيرة يلبسها الضباط فقط، وكلها كانت توزعها الدولة مجاناً على فرق الإنكشارية كافة وإذا أتلفت من أحد فهو ملزم بشرائها فوراً وعلى نفقته الخاصة⁽¹⁾.

وبالنسبة للجيش الإنكشاري في إيلات المغرب العربي فقد كان له زي عسكري استقدموه معهم إلى هذه الإيلات وكان زيهم العسكري الخاص على غرار أزياء تشكيلات الجيش العثماني باعتبارهم جزءاً منه وتابعين له، وقد كان زيهم الرسمي يتشكل من غطاء من القماش الصوفي وقميص ذي أكمام طويلة وصدريّة وسروال من كتان يهبط إلى أسفل القدمين تشده شمالة وشاش أحمر يستعمل كحزام وقبعة مصنوعة من الصوف توضع على رؤوسهم وزوج من الأحذية مصنوعة من الجلد مصفح من الأسفل بصفائح حديدية⁽²⁾.

واللباس نفسه بالنسبة للمجندين الجدد الذين كانوا يأتون إلى هذه الإيلات ولاسيما إيالة الجزائر التي قامت بعمليات تجنيد واسعة فبمجرد وصولهم وإتمام إجراءات تسجيلهم في دفتر الإنكشارية فإن الحكومة تلتزم بتقديم بدل عسكرية لهم مجاناً وهي متشابهة تماماً للبدل التي يرتديها زملاؤهم الإنكشاريون القداماء في الإيالة.

أما بالنسبة لأزياء آغا الإنكشارية في الإيلات الثلاث فهي أيضاً لا تختلف عن أزياء آغاوات الإنكشارية العثمانية التي كانت تتشكل من قلنسوة بيضاوية الشكل تلبس على الرأس عليها علامة حمراء وقطع من القماش من الأمام⁽¹⁾، وقفطان^(*) يلبس على بقية الجسم

(1) البناء، مرجع سابق، ص 160.

(2) إسماعيل حقي تشارشلي، أوجاق الغرب، مرجع سابق، ص 450.

(1) البناء، مرجع سابق، ص 161.

(*) القفطان: كلمة تركية الأصل وهو ضرب من لباس مطرز مفتوح من الأمام له كمان ضيقان، وكان القفطان شعار لسلطين الممالك الإسلامية ولبشوات ودايات مناطق المغرب العربي. أنظر: الجزائري، مصدر سابق، ص 97.

وتحتة العنتري^(*) والسروال الأحمر والحزام الذي يلتف حول منطقة الوسط «الحصر» مثبتاً فيه الخنجر، ومستاً «الخف الأصفر» وبابوياً "الحذاء القصير" تلبس في القدمين⁽¹⁾.

وقد بقي الجيش الإنكشاري محافظاً على لبسه المتميز طيلة مدة تواجده في هذه الإيالات المغربية، ولم يتغير شيء من تلك الأزياء ماعدا القفطان الذي كان يرتديه الجنود استبدل بالبرنوس البربري وخاصةً في إيالة الجزائر، وربما كان ذلك لتأثر الجندي الإنكشاري باللباس الجزائري، وأصبح البرنوس البربري اللباس الرسمي لهم أثناء خروجهم للحملات وخاصةً التي تقام في فصل الشتاء⁽²⁾.

ج - النشاط الحرفي: من المعروف أنه عندما تأسست فرقة الإنكشارية وضعت لها قواعد أساسية التي من بينها أن تقتصر مهنتها الأساسية على الأعمال الجندية ولا تتصرف عنها لغيرها⁽³⁾ من المهن الأخرى، ولكن مع مرور الزمن تم تعديل هذه القاعدة في عهد السلطان سليمان الأول (1520-1566م) أباح لهم طبقاً لقرار خاص بممارسة جميع الأنشطة الحرفية التي يتقنونها⁽⁴⁾، وبإمكانهم ممارسة التجارة أيضاً وخاصة في أوقات السلم، وربما كان غرض السلطان المذكور بالسماح لهم بالأعمال الحرة بعدما كانت محرمة عليهم هو شغل أوقات فراغ الجيش الإنكشاري ولاسيما في الأيام العادية وبالتالي لا وقت لديهم للتفكير في إثارة الفتن وارتكاب المعاصي والقيام بالثورات، ومن أجل ذلك جاء صدور القرار ليتخلص من مشاكلهم وأن يأمن شرهم، وهذا القرار هو ما أرادته الإنكشارية من أجل خدمة

(*) العنتري: هو ملبس طويل ويصنع من القماش الرقيق ويلبس تحتة القميص. ينظر: البناء، مرجع سابق، ص 161.

(1) نعيسة، عامر، مرجع سابق، ص 89.

(2) سجلات الديوان الهمايوني، رقم 265، ص 125.

(3) محمد مصطفى بازامه، تاريخ برقة في العهد العثماني الأول، دار الحوار الثقافي، قبرص، 1994م، ص 377.

(4) بروشين، مرجع سابق، ص 45.

مصالحتها باعتبار أن هدفها الرئيس من القدوم إلى مناطق المغرب العربي هو تحسين مستوى أفرادها المادي والمعيشي لذلك باشرت فوراً بتنفيذه، واندفعت بقوة إلى ممارسة النشاطات الاقتصادية منذ أواخر القرن السادس عشر إلى جانب عملها العسكري وأصبح انخراطها في الحياة الحرفية ظاهرة عامة لم يقتصر المنخرطون منها على رتبة معينة وإنما شمل مختلف الرتب من اليولداش والأوضي باش والبلوكباش والآغا⁽¹⁾، فضلاً عن المتقاعدين الذين كانوا بمجرد انتهائهم من خدماتهم العسكرية يقتحمون ميادين الحرف لتحسين أوضاعهم وتنمية ثرواتهم بعد التقاعد⁽²⁾.

ولم يقتصر الأمر أيضاً على ممارسة مهنة معينة وإنما شمل مختلف الأنشطة الاقتصادية ولاسيما التجارة، فهم يبيعون أي شيء مادام يوفر لهم قسطاً من المال فيبيعون الدجاج والعجول والأعلاف والفواكه⁽³⁾ وغيرها. وكانوا يشترون الأراضي والعقارات الزراعية وخاصةً في ضواحي المدن الكبيرة في جميع الإيالات وكانوا يشرفون بأنفسهم على بيع محاصيلها الزراعية⁽⁴⁾. ومن الحرف والصنائع التي مارسها الجيش الإنكشاري أيضاً بناء البيوت⁽⁵⁾ وصناعة الأسلحة وصناعة الحياكة التي وجدت رواجاً في الداخل والخارج ولاسيما بجزيرة جربة في إيالة تونس التي ازدهرت فيها هذه الصناعة فالكثير من إنكشاريها هم أصحاب أنوال يهتمون بصناعة الحياكة لهم أو لغيرهم⁽¹⁾، وفي بايلك قسنطينة بإيالة الجزائر مارس إنكشاريوها الحرف المربحة التي لا تتطلب مهارة وجهد كبير ومنها حرفة البلغجي (صناعة البلغة) وهي من الحرف التي جلبها الإنكشاريون عند قدومهم، كما أنها من الحرف

(1) سجلات الديوان الهمايوني، رقم 120، ص 207، (أواخر ربيع الآخر 1132هـ).

(2) سجلات الديوان الهمايوني، رقم 129، ص 353.

(3) عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، مرجع سابق، ص 357.

(4) أسعد أفندي، كاتب الوقائع لسنة 1137-1240هـ، مخطوط نور عثمانية، رقم 2678، ورقة 22.

(5) سجلات الديوان الهمايوني، رقم 105، ص 83، أواخر جمادى الأولى لسنة 1133هـ.

(1) الإنكشاري، مرجع سابق، ص 131.

التي احتكروها وبقيت حكراً على أفراد الجيش، ومن الحرف الأخرى المربحة أيضاً حرفة القهوجي وحرفة الخراز وحرفة السراج⁽¹⁾ والحلاقة⁽²⁾.

أما عن عناصر القولوجية فهم أيضاً إلى جانب خدماتهم العسكرية مارسوا التجارة وحرفة الزراعة بشكل واسع باعتبارهم كانوا من كبار ملاك الأرض وخاصةً في إيالة الجزائر وتونس، ومن أهم الصنائع التي امتهنها أفراد القولوجية صناعة السروج وصناعة القاوقجية (صناعة أعقاب البنادق) التي كانوا يتقنونها بشكل جيد، كما مارسوا حرفة باش تررزي وخاصةً خياطة وتطريز القفطان التي لم يزاحمهم فيها أحد وغيرها من الحرف المربحة والأقل ربحاً التي كانت تدر على أصحابها أموالاً إضافية⁽³⁾.

ج - علاقاتهم مع السكان المحليين :

إن طبيعة تكوين الجيش الإنكشاري جعلته غير متجانس مع السكان المحليين لأن نظامهم تأسس على العزلة التامة فالزمامهم بالعيش داخل التكنات جعلهم يعيشون غالبية حياتهم في عزلة شبه تامة عن بقية عناصر المجتمع، الأمر الذي جعلهم مجتمعاً مغلقاً على ذاته⁽⁴⁾، وعندما أرسل هذا الجيش إلى مناطق المغرب العربي منذ بداية القرن السادس عشر كان من الطبيعي أن يعرفوا ومنذ اللحظة الأولى بأنهم غرباء لا يتكلمون لغة الأهالي ولا يعرفون تقاليدهم ولا أسلوب معيشتهم ولا عن الحرف التي يمارسها الأهالي أو أي اختلاط أو ذكريات مع أي جيل من سكان هذه المناطق ولا رابط يربطهم مع السكان سوى الدين

(1) المرجع السابق، ص 168-169.

(2) عائشة غطاس، مظاهر الحياة اليومية للجيش، مرجع سابق، ص 307.

(3) معاشي، الإنكشارية والمجتمع ببايلك قسنطينة، مرجع سابق، ص 168.

(4) بازامه، برقة في العهد القرمانلي، مرجع سابق، ص 377.

الإسلامي والجهاد والعدو المشترك⁽¹⁾، وعلى الرغم من وجود هذه الروابط إلا أنهم بقوا معزولين عن السكان المحليين وخاصةً الفئة الحاكمة منهم لإحساسها بذاتها⁽²⁾ بحكم عملها السياسي والعسكري الذي جعلها في قمة الهرم الاجتماعي؛ بل إن كافة أفراد الإنكشارية كانوا يفاخرون لدرجة التعصب بلغتهم وأصالتهم، فلم يسمح للأهالي بالتسجيل في فرقهم لأنهم يعدّونه في مرتبة أدنى منهم وأقلّ صلاحية⁽³⁾ وبالتالي لا يمكن إشراكهم في الحكم والإدارة وكل الوظائف تعطى لمن هو من أصل تركي ولم تسند لأبناء المحليين اللهم إلا بعض الوظائف الثانوية التي لا غنى عن العرب في تقلدها مثل شيخ القبيلة ومدير الناحية⁽⁴⁾، بل وكان على الأهالي تقديم فروض الطاعة والخضوع الكامل للإنكشارية وتوفير احتياجاتها من الأموال، الأمر الذي أدى إلى زيادة الهوة بينهما وخلق عدااء وكره السكان المحليين للإنكشارية بسبب ممارستها للظلم والسلب ونهب الأموال والأرزاق وزهق الأرواح وغيرها من الجرائم البشعة التي يرتكبها أفرادها ضد الأهالي باعتبار أن انتداب هؤلاء الجنود الإنكشاريين كان يتم دون تثبت أو انتقاء فإن بعضهم كان يتصف بالغلظة وسفك الدماء وارتكاب الفواحش⁽⁵⁾، فعلى سبيل المثال ما حدث في سنة 1568م إذ اعتدى أحد أفراد الإنكشارية على فتاة من مدينة قسنطينة بإيالة الجزائر ونفس الحادثة تكررت في سنة 1642م في نفس المدينة المذكورة مما تسبب في صراع دامي بين أسرة تلك الفتاة وأفراد الإنكشارية المتمركزين بالمدينة⁽¹⁾، هذا بالإضافة إلى ما كان يعانيه سكان إيالة الجزائر من

(¹) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500. 1830م)، ج:1، دار الغرب الإسلامي، ط: 2، 2005م، ص190.

(²) مذكرات الدفتردار سامي بك لسنة 1675هـ، استانبول 1934م، ص 175.

(³) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عامر، مرجع سابق، ص133.

(⁴) الطوير، مرجع سابق، ص111.

(⁵) قاسم، مرجع سابق، ص 191.

(¹) معاشي، مرجع سابق، ص 134.

أعمال الظلم وممارسة الضغط عليهم لأخذ أموالهم ولاسيما بعدما انخفضت أرباح القرصنة ففرضت عليهم ضرائب لا طاقة لهم باحتمالها، كما أجبروهم على إعطاء الخيول والشعير لقادة الإنكشارية المتواجدون في الأمحال بإيالة الجزائر⁽¹⁾.

ولم يختلف الأمر بالنسبة لأهالي إيالة طرابلس الغرب حيث استولت الإنكشارية على ممتلكاتهم من أموال وأراضي وحيوانات كافة لا بل أجبرت غيرهم على شرائها بثمن مرتفع، ولم يستطع الأهالي معارضتهم وذلك لشدة بطشهم⁽²⁾ الأمر الذي أدى بالأهالي إلى رفع العديد من الشكاوي والتظلمات إلى الباب العالي باستانبول، ورداً على ذلك وصلت في سنة 1582م أوامر إلى بيلربي طرابلس تأمره برفع الظلم عن الأهالي⁽³⁾ الذين اشتكوا من ظلم واستبداد جنود الإنكشارية وحكامهم الذين أخذوا مال الضعفاء والفقراء، وفي سنة 1586م وصل أمر آخر يتعلق بالشكوى المقدمة من الأهالي ضد الإنكشارية لفرضها مهمة الحراسة عليهم بالقوة والجبر وبدون حق⁽⁴⁾.

ولم يكن حال سكان إيالة تونس أحسن من جيرانهم فقد تعرضوا إلى عمليات الظلم أيضاً وسلب الأموال من قبل الجند والحكام ففي عهد رجب باشا الذي تولى حكم إيالة تونس سنة 1567م أعطى تصريحاً واضحاً للإنكشارية بالهجوم على الأهالي ونهب أموالهم⁽⁵⁾ في وضح النهار، وفي عهد رمضان باي (1694-1696م) تأخر أهل السدادي بإيالة تونس عن دفع الضرائب المقررة عليهم فاتهمهم هذا الباي بالثورة على الحكومة فقتل معظم رجالهم وسبى نساءهم وباع الباقي في الأسواق كبيع الأنعام⁽¹⁾.

(1) مذكرات سامي بك، مصدر سابق، ص 200.

(2) الطوير، مرجع سابق، ص 110.

(3) طوبال زاده، مرجع سابق، ص 310.

(4) المرجع السابق، ص 271 .

(5) قاسم، مرجع سابق، ص 140.

(1) مذكرات سامي بك، ص 220.

هذا بالإضافة إلى أعمال الظلم الأخرى كتعيين حراس إضافيين من الأهالي لا حاجة لهم وفي مناطق غير صالحة، كما فرضت الإنكشارية على أهالي تونس ضريبة عرفت بضريبة الضيافة في المناطق التي يحلون بها وينهبون أملاك أهاليها ويغتصبون غلاتهم، ونتيجةً لتكرارها أصبحت عملية اغتصاب الغلات عادةً مألوفة لدرجة أن فقهاء تلك الفترة عدّوا ذلك التصرف سيئاً⁽¹⁾.

وقد أورد عزيز سامح وثيقة عثمانية وهي أمر مبعوث لكل من والي تونس وطرابلس في سنة 1579م تلخص هذه الوثيقة ما كان حاصلًا في إيالة تونس من ظلم «بلغني أنها تجرى في إمارة تونس أمور منافية للقانون لا تتناسب مع ما تجري في غيرها من الممالك المحروسة وتخترع أنواع البدع، والذي يجبى من الرعايا يدخل جيوب الذين يجيبوها ولا تعطى للخزينة والإنكشارية والموظفون يغتصبون أراضي الأهالي فيزرعونها ويحصدوننها ولا يدفعون أعشاراً للدولة، ويسجلون أبناءهم وخدامهم غير القادرين على الخدمة في قوائم المرتبات ويقبضون مخصصاتهم عن ثلاثة شهور سلفاً، وكانوا يجرون ترقيات لا لزوم لها فيبددون أموال الخزينة ويظلمون الرعايا...»⁽²⁾.

وكل هذه المآسي أدت إلى خلق نوع من العداء والكراهية فكره الأهالي الإنكشاريين وبدأت ردود الفعل تظهر ضد الإنكشارية جاءت في عدة ثورات وتمردات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ثورة القبائل سنة 1643م في إيالة الجزائر والتي تعرف تاريخياً بثورة الشرق الجزائري⁽¹⁾ وتعد من أكبر الثورات خلال العهد العثماني التي قام بها الأهالي بسبب ظلم الإنكشارية وزيادة الضرائب، وهذه الثورة شجعت بقية الأهالي في مناطق الإيالة كافة للقيام بمثلها⁽²⁾، وكذلك ثورة يحيى بن يحيى السويدي سنة 1587-1590م وهو من أحد

(1) التميمي، مرجع سابق، ص 273.

(2) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: أدهم، مرجع سابق، ص 271.

(1) عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر - تونس)، مرجع سابق، ص 129.

(2) طوبال زاده، مرجع سابق، ص 225.

زعماء تاجوراء بإيالة طرابلس وقد أعلن ثورته بسبب تعدد الضرائب أيضاً وممارسة الاضطهاد عليهم من قبل الإنكشارية وازدياد طغيانها وفسادها، وقد رغب هؤلاء الزعماء وغيرهم من الثائرين عند قيامهم بهذه الثورات بحصولهم على استقلال مناطقهم وتخلصها من ظلم واستبداد الإنكشارية وتحسين أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية المتردية، إلا أن هذه الثورات لم تحقق لهم رغباتهم لأنها كانت عديمة التأثير على وجود الإنكشارية⁽¹⁾ ولم يكن لها تأثير ملموس على تغيير سياستها الظالمة تجاه الأهالي، بل ويمكن القول بأن هذه الثورات زادت من توتر العلاقات بين الطرفين فزاد روح العداء والكره المتبادل وانعدام الثقة بينهما⁽²⁾.

ورغم ما قلناه عن العلاقات العدائية بين أهالي الإيالات المغربية والإنكشارية وما وصفناه من ظلم واستبداد فإن هناك علاقات مصاهرة قامت بين الطرفين في ذلك العهد بغض النظر عن دوافعها السياسية والاقتصادية، ففي إيالة الجزائر صاهر أفراد الإنكشارية مختلف الأسر الريفية ولاسيما ببايلك قسنطينة⁽³⁾، ولم يكن الإنكشاريون وحدهم الساعين لمصاهرة هذه الأسر بل كانت مصاهرة متبادلة فالكثير من أبناء هذه الأسر الريفية قدموا على الزواج من بنات الإنكشارية فمثلاً تزوج الشيخ القيدم وهو من أبناء أسرة بوعكاز الدواودة من أم هاني بنت الباي رجب (1666-1674م) كما تزوج الأبناء الثلاثة من أسرة المقراني وهم الحاج بوزيد المقراني، وأحمد بورنان، وعبد الله بن أبي الفضل، من بنات باي قسنطينة علي بن صالح (1710-1713م)⁽¹⁾.

وبالنسبة لعلاقة الإنكشارية بالقبائل المحلية البعيدة عن مراكز المدن التي لم تخضع يوماً للسيطرة العثمانية التي كانت تتمتع بنوع من الاستقلال طوال العهد العثماني مقابل

(1) الغربي، مرجع سابق، ص 29.

(2) نمير، مرجع سابق، ص 256.

(3) معاشي، مرجع سابق، ص 111.

(1) تشارشلي، أوجاق الغرب، مرجع سابق، ص 465.

دفعها إتاوات سنوية للحكومة في الإيالات الثلاث، فكانت العلاقة بين الطرفين متأزمة في معظم الأحوال وخاصةً عندما تتصادم مصالح الطرفين فيكون اللجوء إلى العنف والنزاع المسلح شبه مستمر بينهما الأمر الذي أدى إلى زيادة كراهية المحليين الحارقة للإنكشارية والعكس تماماً.

وفيما يخص علاقة القولوغلية بالسكان المحليين فعلى الرغم من جريان الدماء العربية في عروق القولوغلية من جانب أمهاتهم وما يربطهم من أواصر اجتماعية قوية والمتمثلة في صلة القرابة وغيرها من الروابط الموحدة دينياً ولغوياً وارتباطهم بهذه الأرض التي ولدوا فوقها وتربوا بين أهلها⁽¹⁾، وعلى الرغم أيضاً من مشاركتهم في عدة مرات مع الأهالي في ثوراتهم ضد الإنكشارية التي خرج معظم أفرادها عن النظام وأصبحوا مصدر تعب للأهالي في مناطق المغرب العربي، وكما أن الأهالي كانوا ينظرون إلى عناصر القولوغلية على أنهم عرب أكثر من كونهم أتراكاً إلا أن أفراد القولوغلية عندما أصبحوا قوة اجتماعية وسياسية مهمة على مر الزمن بعدما كانت مهمشة ومبعدة سياسياً ومنذ ذلك الحين بدؤوا ينظرون إلى السكان المحليين نظرة استعلاء واحتكار⁽²⁾ بل وياشرت في استغلالهم، ولم يكن أفراد الإنكشارية وحدهم من اتصف بالطمع والجشع وممارسة القهر والاستبداد بل صفة اشترك فيها أبناؤهم عموماً، وكل ذلك كان سبباً في تأزم العلاقة بين السكان المحليين والقولوغلية وأصبح الأهالي يعانون من ظلم القولوغلية بنفس ما كانوا يعانون من الإنكشارية⁽¹⁾، وهذا لا يعني بأن كل أفراد القولوغلية كانت لهم علاقات سيئة مع الأهالي فقد اندمج البعض منهم في هذه المجتمعات وقاموا بعلاقات مصاهرة⁽²⁾ تجاوزت الأغراض المادية والسياسية وتحولت إلى علاقة اجتماعية محضة.

(1) بن موسى، مرجع سابق، ص 27.

(2) سعد الله، مرجع سابق، ص 153.

(1) تشارشلي، أوجاق الغرب، مرجع سابق، ص 270.

(2) سالم، مرجع سابق، ص 203.

استنتاج الفصل الثالث

استولى العثمانيون على مناطق المغرب العربي، وحكموا تلك المناطق واتبعوها لإدارتهم وأطلقوا لعساكرهم حرية إدارتها وضبطها وجمع ضرائبها، وتجاهلوا عن قصد أو دون قصد السكان الأصليين وفي أحيان كثيرة أوجعهم تنكيلاً وضرباً، وأبقوا أوضاع الولاية على حالها بل زادوها سوءاً وتراجعاً.

ورغم كل ذلك قبل السكان الأصليون الأتراك على أساس أخوة في الدين ولم ينظروا إليهم على أنهم غرباء، وحينما بالغ العثمانيون وولاتهم وعساكرهم في ضرب الأهالي أرغم الأهالي على رفع عصا الطاعة وألقوا بهم هزائم كثيرة، وعلى الرغم من ذلك كانوا يمتنعون عن مواجهتهم لأسباب دينية محضة.

لقد قسم العثمانيون المغرب إلى ولايات، وفي سنة 1629م بدؤوا يرسمون الحدود، وخصصوا لكل ولاية عساكرها الخاصة ومنحوها امتيازات متفاوتة وفضلوا ولاية على ولاية ووالٍ على آخر، كما تعددت تقسيمات عساكرهم وتنوعت، ففي بعض الولايات أقاموا لهم ثكنات خارج مركز الولاية أو في مينائها، غير أن مهامهم الحربية تشابهت في التصدي للأوروبيين الطامعين بمناطقهم، كما تشابهت في ضبط الأمن، وتفيد الوثائق العثمانية أن الفرمانات السلطانية تشابهت في تحذير الولاة من السماح للإنكشارية بممارسة الظلم على الأهالي، وهذا كان وفقاً على الوالي الحاكم، فإذا كان قوي البأس فإن العساكر تخافه وتهابه، وإذا كان ضعيفاً فإن الأهالي يكونون عرضة للممارسة المغلوطة سواء من قبل الإنكشارية أو القولوغلية. أما من ناحية أوضاعهم الاجتماعية، فقد انعكس على الأهالي، فالزواج زاد من ضغط العساكر على الأهالي، وبما أن القانون الذي يلزم الإنكشارية بعدم الزواج قد فسد، فإن العساكر بزواجها زادت ممارستها للظلم ليس من خلال اعتماد العنف بل من خلال جمع الضرائب لعدة مرات في السنة نظراً لحاجتها إلى المال، كما أن زواج الإنكشارية من

نساء محليات زاد من عبء الأكل واللباس، وبما أن رواتبها لم تعد كافية لإطعام عائلات الإنكشارية فقد لجأ قسم من العساكر إلى ممارسة مهن مختلفة، فقلت فرصة العمل أمام الشبان، فاضطر بعضهم إلى الهجرة أو الالتحاق بالقبائل لممارسة أعمال غير المشروعة مثل اعتراض القوافل التجارية العابرة للصحراء وشطب البضائع التي كان الأجانب يقومون بالاتجار بها، هذا التصرف الذي مارسه الشبان عرض الأمن للاضطراب، فتوقفت التجارة حيث امتنع التجار الأجانب عن المرور في أراضي الولاية وهذا بحد ذاته حرم قسم كبير من القبائل البدوية من تأجير جمالها، أو تكليفها بحماية القوافل عبر الصحراء فساءت علاقة الإنكشارية بالأهالي. وازداد الجفاء بينهما، وهذا زاد الكراهية بين الطرفين، فعمدت الإنكشارية إلى زيادة ممارسة الظلم والقهر ضد الأهالي كما عمدت إلى استلاب خيراتهم وأرزاقهم متذرة بأسباب كثيرة، فلجأ الأهالي إلى القبائل وشكوا لهم حالها، فهاجمت القبائل الإنكشارية في ثكناتها، وقد نتج عن ذلك توقف الحياة وتخوف الأهالي في المدن من الخروج وظلت الولاية تعاني من هذا التجاذب سنوات إلى أن يأتيها وإلٍ شجاع قادر على ضبط هذا الشغب الذي يكلف الأهالي الكثير ويعرض الإنكشارية إلى قتل يخلو من الرحمة، فضلاً عن ذلك فإن نظرة الأهالي إلى الأتراك تغيرت وشعروا بأنهم لا يختلفون عن غيرهم.

يعدّ عصر الدايات الذي شهدته الولاية من 1606-1711م من أكثر المراحل الإدارية للأتراك سوءاً، لأنه بالكاد يخلو أسبوع من قتل وضرب ما بين الإنكشارية ورجال البحر، وما بين الأهالي والإنكشارية، وما بين الإنكشارية والقبائل، وهذا يعني أن الولاية بركان من القتل والضرب، وهذا يعني أن الحياة الاقتصادية متوقفة وبصعوبة يستطيع الفرد من الأهالي الحصول على لقمة العيش أو جني محصول ما، وإذا كان الأمر كذلك، فأبي جميل سيحمله الأهالي العثمانيين يا ترى !؟

الفصل الرابع

ثورات وتمردات الإنكشارية والقولوغلية في مناطق المغرب العربي

أولاً - الإنكشارية :

- أ - ثورات الإنكشارية وتمرداتها في إيالة الجزائر.
- ب - ثورات الإنكشارية وتمرداتها في إيالة طرابلس الغرب .
- ج - ثورات الإنكشارية وتمرداتها في إيالة تونس .

ثانياً - القولوغلية :

- أ - ثورات القولوغلية وتمرداتها في إيالة الجزائر .
- ب - ثورات القولوغلية وتمرداتها في إيالة طرابلس الغرب
- ج - ثورات القولوغلية وتمرداتها في إيالة تونس .

- استنتاج الفصل الرابع .

أولاً - الإنكشارية :

تعددت الأسباب التي أسهمت في زعزعة نظام الإنكشارية الذي امتاز بدقته في إدارة شؤون الدولة وبخاصة من الناحية العسكرية، وهذه الدقة هي التي وصلت الدولة العثمانية إلى تحقيق انتصارات على مختلف الجبهات، لكن سلاطين العقد الأخير من القرن السابع عشر بدؤوا بتجاهل الإنكشارية، ولم يكتفوا بذلك بل قدموا لها الرشوة والهدايا والرتب العسكرية والنياشين بالمجان، لأن المنافسة على العرش بين أبناء السلطان الحاكم اتخذت الطابع العلني السافر، وكان أولياء العهد المتنافسين على العرش من أمهات متعدّدات الجنسيات، فلهجوا إلى القوى المدنية من تجار وغيرهم للتخلص من الأكثر تقرباً من أبيه السلطان الحاكم، وشيئاً فشيئاً بدأت الإنكشارية تنهار وتبحث عن مغانمها، وكثرت احتجاجاتها، وقد أطلق عليها ثورات بحسب وجهات السلطان الحاكم أما التلكؤ في تنفيذ أمره عدّه تمرداً.

من هذا المنطلق وبالاستناد إلى المصادر والوثائق، أثر البحث عدّ التمرد على السلطان ثورة وعدّ عدم الإسراع في تنفيذ أمره تمرداً، وكانت ولاية (إيالة) تونس أكثر الإيالات تمرداً على السلطان وثورة على واقعها، في حين كانت ثورات إيالة طرابلس الغرب وتمرداتها قبلية الطابع قادتها شخصية قبلية بعضها أهين من قبل الوالي الحاكم، وبسبب عدم إدراك الولاة الطبيعية الحياة البدوية انتشرت أعمال الغموض بشكل غير معقول، وبخاصة في عهد الدايات الذي استمر من سنة 1606م حتى سنة 1711م قطعت خلالها رؤوس كثيرة من الإنكشارية والقولوغلية، وكان مردّها الخلاف على تعيين الداوي، أما أن يكون من رجال البحر أو من الإنكشارية، وهذا يعني أن الإنكشارية تتمرد على النظام المفروض من الدولة، وأما الجزائر فتعدّ أكثر الإيالات انضباطاً بسبب قوة إنكشاريتها وشجاعة ولاتها الذين ضربوا بشدة الثورات والتمردات وبخاصة حسن باشا ابن خير الدين،

غير أن الإنكشارية طعنت بإدارته مدعية أنه يحاول بالتعاون مع الأهالي الانفصال عن الدولة العثمانية فأمر السلطان بعزله من إيالة الجزائر.

إن ثورات الإنكشارية وتمرداتها في مناطق الشمال الأفريقي أسهمت باعتماد إدارة جديدة خاصة بتلك المناطق، هذا التغيير أوصلت القولوجية للسلطة من خلال تمرداتها التي تطورت إلى ثورات عندما رأت أن السلطان الحاكم غير قادر على توجيه حملات تأديبية ضدها، وأن إنكشاريته المتواجدة في الإيالة غير قادرة على تنفيذ أوامره وهي الأخرى أيضاً نائرة ومتمردة على واقعها المضطرب سياسياً واقتصادياً.

أ - ثورات الإنكشارية وتمرداتها في إيالة الجزائر:

إن الجيش الإنكشاري الذي وطئت أقدامه إيالة الجزائر، بل وكل إيالات المغرب العربي وجد نفسه أمام واقع يأباه، وعبر عن ذلك الرفض في تلك المناطق بإعلان التمرد والثورة^(*)، ولم يكن اندلاعهما حادثين منعزلين؛ بل شكلاً جزءاً من ظاهرة عامة في التمرد العسكري السائد في الإمبراطورية العثمانية، الذي عرفته منذ عهد السلاطين الأوائل ابتداء بتمرد إنكشارية أدرنة في أواخر عهد السلطان مراد الثاني (1421-1451م)⁽¹⁾ عندما تنازل لأبنة محمد الفاتح، الذي لم ترض به الإنكشارية سلطاناً عليها، لصغر سنه وعدم مقدرته على الحكم، وهذا ما أجبر السلطان مراد الثاني على العودة ثانية إلى الحكم⁽²⁾ لإخماد هذه الثورات.

(*) يقصد بالثورة في هذه الدراسة تلك الحركات المسلحة التي قامت بها إنكشارية وقولوجية مناطق المغرب العربي نتيجة لتراكمات من الظلم والتعسف والاستبداد والحرمان، دفعها على رفع السلاح لتغيير الواقع الذي تشكو منه، وكل ثورة تبدأ بتمرد الذي يعدّ هو الآخر كل حركة يقوم بها صاحبها لتغيير واقعها نحو الأفضل، ولكنه لا يرقى إلى مرتبة الثورة.

(1) الصلابي، مرجع سابق، ص 86.

(2) أرشيف رئاسة الوزراء، إرادة خارجية رقم 10208 ذي الحجة لسنة 1277.

وبمرور الزمن انتقلت التمردات إلى إيلات المغرب العربي، وذلك منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر واستمرت طيلة القرن السابع عشر؛ وعلى الرغم من تفاوت خطورتها، وفرص نجاحها، واختلاف محاولات إخمادها من إيالة إلى أخرى، إلا أنها كانت متشابهة الأسباب في كل الإيالات، والتي من بينها أسباب عامة تتعلق بالأوضاع العسكرية والاقتصادية للدولة العثمانية آنذاك جعلت الإنكشارية أينما وجدت تتمرد على سياسة الدولة، وأسباب خاصة تتعلق بإيالات المغرب العربي بالذات.

وبالرجوع إلى توضيح الأسباب العامة فيما يتعلق بالأوضاع العسكرية العثمانية شهدت ضعفاً واضحاً، وخاصةً بعد وفاة السلطان سليمان الأول (1520-1566م) لأن السلاطين الذين تولوا العرش بعده كانوا ضعاف الشخصية، ولم تتوفر فيهم الشجاعة والمقدرة على ضبط الإنكشارية، التي بدأت تتخلى عن نظامها⁽¹⁾ ولاسيما التقاعس عن أداء مهامها العسكرية، بعدما ازداد نفوذها وأصبحت قوة تتحكم في كل الأوضاع، وخاصةً بعد الانتصارات التي حققتها وما أصابها من غرور وشعور بالتميز⁽²⁾، وكل ذلك غير من أخلاقها فمالت إلى السلب والنهب والاعتداء على السلاطين بخلعهم بل وبقتلهم؛ ومن الطبيعي أن ينتقل ذلك الانحلال إلى الإنكشارية المرابطة في مناطق المغرب العربي، فغدت هي الأخرى لا تتقيد بالضبط والربط العسكري⁽³⁾.

أما الأوضاع الاقتصادية للدولة العثمانية آنذاك فكانت متدهورة هي الأخرى، وخاصةً بعد انخفاض قيمة العملة العثمانية، ويعود السبب في ذلك إلى أن الدولة عندما عجزت عن تلبية الحاجة المتزايدة للعملة، وزيادة ارتفاع سعر الفضة، قامت بخلط النقود ببعض المعادن التي لا قيمة لها⁽⁴⁾، فأصبحت العملة مغشوشة ومزيفة، وبالتالي فقدت قيمتها الشرائية، ولم

(1) عامر، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، ص 268.

(2) الغازي، مرجع سابق، ص 177.

(3) صولاق زاده، مصدر سابق، ص 470.

(4) رافق، مرجع سابق، ص 123.

يكن أمام الإنكشارية التي تتقاضى المرتبات إلا نهب الأموال، وقبول الرشى لتعويض قيمة مرتباتها، بل وإعلان التمردات في حين أن خزينة الدولة فارغة بسبب نقص وارداتها الضريبية، وجميع مواردها المالية نتيجة لتقلص الفتوحات وتوقفها.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان لزيادة أعدادها عندما سمح للعمامة بالدخول إلى صفوفها طمعاً في تلك الرواتب، غدت الإنكشارية تشكل عبأً كبيراً على كاهل خزينة الدولة، فارتبك الاقتصاد العثماني تبعاً لذلك⁽¹⁾.

وتأثرت إيلات المغرب العربي بدورها من ذلك التدهور الاقتصادي، فأصبحت هي الأخرى عاجزة اقتصادياً، ونفقات خزينتها لم تعد تكفي لدفع رواتب الجند فعجزت عن دفعها في أكثر من مرة، وهذا ما أدى إلى اتساع دائرة الفوضى، ودفع الإنكشارية إلى التمرد على قياداتها، من أجل المطالبة بزيادة الرواتب والمنح وتحسين وضعها الاقتصادي.

وفيما يتعلق بالأسباب الخاصة، والتي ترتبط بإيلات المغرب العربي، فتتمثل في تسامح الدولة العثمانية مع إنكشارية تلك المناطق، حيث تركوا لهم حرية التصرف بشؤون الإيلات⁽²⁾، وربما لبعدها عن مركز الدولة العثمانية، ولوقوع هذه الإيلات بالقرب من المناطق المناوئة للدولة التي تشن حرباً دائمة، وعليه لابد من إعطاء حرية التصرف لهؤلاء العسكر لصد الأعداء دون الرجوع إلى السلطان في مركز إستانبول؛ كما أن التسامح مع هؤلاء الجند سيجعلهم يتمتعون بنفوذ قوي لفرض سلطتهم على الأهالي⁽³⁾ الذين قد يفكرون في الاستقلال عن الدولة.

إلا أن التسامح المشار إليه كانت نتيجته سلبية انعكست على استقرار الأوضاع داخل هذه الإيلات، فقد استغل الولاة ذلك بوصفه ضعفاً لهيبة الدولة، فعاملوا من دونهم من

(1) Yılmaz öztuna, Türkiye tarihi. Ankara, 1992, s. 169.

(2) أرشيف رئاسة الوزراء، إرادة داخلية رقم 47923 تاريخ جمادى الآخرة 1921م.

(3) المرجع السابق، ص 165.

العسكر بكل قسوة وعنف وتسط وظلم، وعبر الجنود الإنكشاريون عن رفضهم لهذه المعاملة بطريقتهم الخاصة، فقاموا في هذه الإيالات⁽¹⁾ بسلسلة متواصلة الحلقات من المؤامرات والانتفاضات والمذابح، وكان إنكشاريو الجزائر هم أول من قام بذلك في إيالات المغرب العربي منذ وقت مبكر في عهد البكركي (1551-1606م) فبعد وفاة صالح رايس سنة 1556م الذي لم يمهلهم مرض الطاعون طويلاً⁽²⁾، لكي يبدي رغبته في التنازل عن الحكم لأحد ولو لفترة قصيرة أو يترك فرصة للدولة العثمانية لكي تعهد لوالي يدير حكم الإيالة، فاستغلت الإنكشارية ذلك وأعلنت بالإجماع مبادرتها لتعيين من تحبه وهو القائد حسن قورصو^(*) ليتولى هذه المهمة وبدون علم السلطان العثماني.

وعلى اعتبار أن حسن قورصو كان قائداً عاماً للجيش فالجميع ملتزم بتنفيذ أوامره التي تقضي بالزحف الفوري لحصار مدينة وهران⁽³⁾، وقد نفذ تلك المهمة بدون أوامر من السلطان العثماني، الأمر الذي أغضب هذا الأخير وذلك لعدم رضاه على تلك التصرفات الخاصة التي ربما تكون غير محمودة العواقب، ومن ثم أمره بسحب الأسطول والعودة إلى الجزائر، ثم عزله وعين محمد باشا لتولي إدارة الجزائر⁽⁴⁾، فعارضت الإنكشارية هذا الأمر بشدة، ولم يستقبلوا قدوم هذا الباشا الجديد، بل واعترضوا طريق دخوله إلى الإيالة، وظلوا في بداية الأمر متمسكين بحسن قورصو، ولكن دون جدوى من ذلك فقد تمكن محمد باشا من دخول الجزائر وفرض سيطرته الكاملة، وقام بسحق كل معارضييه وأنزل بهم أشد عقاب،

(1) Mahir Aydin, Sultan Mahmud Dönemi, Istanbul 1990, S. 81082.

(2) عباد، مرجع سابق، ص 81.

(*) يذكر عباد في كتابه ص 81 بأن حسن قورصو هو علج كورسيكي كان مملوكاً لصالح ريس. وتؤكد بعض المصادر الأخرى بأنه كان وكيل لصالح باشا. للمزيد أنظر: التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عامر، مرجع سابق، ص 196.

(3) أرشيف رئاسة الوزراء، دفتر علم وخبر، رقم 387، ص 26.

(4) أرشيف رئاسة الوزراء، مجلس والاي، أحكام عدلية.

وعلى رأسهم القائد السابق حسن قورصو⁽¹⁾، فزاد من غضب الإنكشارية التي كانت منزعة أصلاً من قرار سحب الأسطول العثماني وعودته إلى البلاد بعد حصاره الخانق على وهران، وكذلك من القراصنة لدعمهم لمحمد باشا، وكل ذلك أثار سخط ونقمة عناصر الإنكشارية عليه فتآمروا على الإطاحة به فاغتالوه سنة 1556م بعدما تمكنوا من كسب ثقته واطمأن لهم، ولم يكتفوا بقتله بل وعلى الفور عينوا من قتله حاكماً لهم وهو القائد يوسف^(*)، وكما أن عملية تعيينه لم تكن الأولى التي تتم بدون علم السلطان العثماني الذي أدرك أنه لا بد من تعيين شخصية قوية ومعروفة تستطيع إنهاء تلك الفوضى في الإيالة، فعين حسن باشا بن خير الدين للمرة الثانية على رأس الجزائر سنة 1557م⁽²⁾، وبالفعل تمكن من إعادة الهدوء والاستقرار لعدة سنوات بفضل خبرته وشجاعته، فلم يثق يوماً في الإنكشارية وهذا ما دفعه إلى تشكيل قوة عسكرية أخرى من قبيلة زواوة المحلية⁽³⁾ لتسانده، وخاصةً عند خروجه من الإيالة وربما لأنه من القولوغلية فقد دفعته عاطفته لقيام بمثل هذا العمل.

ومهما يكن من أمر هذا الفعل إلا أنه تمكن من تشكيل فرقة عسكرية من الأهالي، وهذا غير مقبول ومرفوض من الإنكشارية باعتباره يحد من نفوذهم مما زاد من حقدهم على السلطان ونظام سلطته الجديد، لذلك تمردوا عليه وأشعلوا نار الفتنة مشيعين شتى أنواع الأكاذيب على أنه يريد القضاء على إنكشارية الإيالة⁽⁴⁾، وبأنه ينوي الاستقلال عن السلطان، وفي صيف سنة 1561م نجحوا في القبض عليه وقاموا بأسره واكتفوا بإرساله إلى إستانبول مصفداً بالسلاسل بعد التعذيب دون أن يقطعوا رأسه، وذلك لأن فكرة القتل ستزيد من غضب الجميع عليهم فتفادوا خطرهم⁽⁵⁾.

(¹) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عامر، مرجع سابق، ص 198. 199.

(*) يذكر عباد في كتابه ص 83 بأن القائد يوسف هو علج كورسيكي كان قائد تلمسان وهو من قتل الباشا وتولى بعده، إلا أن وباء الطاعون هاجمه فمات بعد ستة أيام فقط من توليه الحكم.

(²) أوليا جلبي، وقعة نويس، استانبول 1319، ص 42.

(³) S. 326. (مرجع سابق) Reşad Ekrem Koç, Yeniçeriler

(⁴) نمير، مرجع سابق، ص 86.

(⁵) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عامر، مرجع سابق، ص 211.

استمرت الأحوال هادئة إلى عهد جعفر باشا (1580-1581م) ويرجع ذلك الهدوء النسبي إلى أن ولاية تلك الفترة كانوا أكفاء، فقد استطاعوا بقسوتهم وجبروتهم من التغلب على تمردات الإنكشارية، وحتى الوالي جعفر باشا في الحقيقة لم يتهاون معهم وعاملهم معاملة قاسية للتقيد بالنظام⁽¹⁾، ولكنهم تحدوا هذا الوالي وعزموا على التخلص منه ومن عدالته، فكلما فشلوا في خطة لقتله دبّروا غيرها تعتمد على أعمال أكثر جرأة وأكثر ذكاء، وكان أخطرها تلك المؤامرة التي اشترك فيها القائد التركي ابن دالي⁽²⁾ إلا أن جميعها باءت بالفشل؛ فقد تمكن من إخماد هذه التمردات بقطعه لمعظم الرؤوس المدبرة لها وإبعاد من بقى منها⁽³⁾.

وبسبب قوة هؤلاء الشخصيات السياسية والعسكرية أي البكربكات ومحاولاتهم المتكررة لتجنيد الأهالي، خشيت السلطات العثمانية الحاكمة من قيامهم بمحاولة الاستقلال عن الدولة العثمانية، فعملت على إلغاء منصب البكربكي (البالرباي) واضطرت إلى تعيين باشوات يديرون الإيالة لمدة زمنية لا تزيد عن ثلاث سنوات⁽⁴⁾، ونتج عن ذلك آثار سلبية، فهؤلاء الباشوات المعينون اهتموا بجمع المال وبأمورهم الخاصة، أكثر من اهتمامهم بترسيخ بقاء سيادة العثمانيين في الإيالة، وبشؤونها الأخرى ولاسيما العسكرية، وهذا ما جعل دور الإنكشارية يتنامى حتى أصبحت القوة الفعلية في عهد أولئك الباشوات الذين لم يعد لهم أي نفوذ، فغدوا ألعوبة في يد عناصر الإنكشارية الذين توالى تمرداتهم وثوراتهم على الباشوات والأهالي معاً⁽⁵⁾ بشكل لم يخطر على بال أحد، متخذين أسباباً واهية، وذلك لاعتقادهم بأن لا أحد بمقدوره أن يعاقبهم أو يقلص من نفوذهم، وخاصةً بعد نجاحهم في مؤامرة خلع خضر باشا عند إعادة تعيينه للمرة الثانية للإيالة سنة 1595م، والذي حاول وبكل قوة الحد

(1) المرجع السابق، ص 263.

(2) S. 654. (مرجع سابق) Ismail Hakki, Osmanli devlet (لفظة دالي تعني المجنون).

(3) التمر، المرجع السابق، ص 263.

(4) فارس، مرجع سابق، ص 58.

(5) جودت، مصدر سابق، ج 6، ص 654.

من تصرفاتهم وإبطال مفاسدهم، واستعان بالقولوغلية من أجل تحقيق ذلك، ولكنه فشل في نهاية الأمر من مواجهة الإنكشارية التي أصبحت مثل الطوفان الجارف بحيث لم تترك له فرصة البقاء على رأس السلطة فخلعته سنة 1596م، قبل إكمال مدته القانونية وعُين مكانه مصطفى باشا في السنة نفسها ، إلا أنه أصبح هو الآخر هدفاً للمؤامرات والدسائس من قبل الإنكشارية، ولم يكن أمام السلطان العثماني إلا عزله سنة 1599م⁽¹⁾.

واستمر الحال على هذه الوتيرة إلى سنة 1659م التي شهدت فوضى عارمة في الإيالة لم تشهد لها مثيلاً، وذلك بسبب سياسة إبراهيم باشا المالية المتطاوله على رواتب الجند والتلاعب بها، واختلاس أموال الخزينة، ونهب الضرائب، وأخذ حصته من المساعدات المرسلة من إستانبول لدعم أسطول الإيالة وتقويته⁽²⁾؛ ناهيك عن عدم كفاءته وضعف شخصيته، لذلك قرر الإنكشاريون من خلال ديوانهم إعلان التمرد المقبول في أسبابه للمطالبة بحقوقهم، وتحول تمردهم إلى ثورة استمرت عدة أيام، فكانت نقطة تحول خطيرة في تاريخ الإيالة. فبعدما ألقوا القبض على إبراهيم باشا سنة 1659م والتخلص منه برميهِ في السجن عينوا وباتفاق جميع أعضاء الديوان من بينهم أحد الضباط القدامى وهو خليل آغا لمدة شهرين فقط⁽³⁾، وهي المدة القانونية له ولمن يخلفه، وهكذا تمكنت الإنكشارية من الإطاحة بنظام الباشوات، واستولت على الحكم بصفة مباشرة في الإيالة، على الرغم من السماح للباشا بالبقاء في الإيالة لتمثيل السلطان فقط دون أي تدخل في الحكم⁽⁴⁾.

وقد خيل للإنكشارية والأهالي معاً بأن استلام الأغوات السلطة بعد هذه الثورة سيجلب لهم استقراراً سياسياً يحققون من خلاله طموحاتهم ويتمتعون بجميع حقوقهم دون أن يتعرض أحد لهم بالأذى.

(1) عباد، مرجع سابق، ص 109.

(2) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عامر، مرجع سابق، ص 380.

(3) عباد، مرجع سابق، ص 127.

(4) أرشيف رئاسة الوزراء، تصنيف جودت، داخلية رقم 5432 تاريخ 2 جمادى الآخرة 1276.

غير أن ما حدث جاء مخيباً لآمالهم تماماً وبالعكس ما كانوا يتوقعون، فقد تفاقمّت الاضطرابات السياسية وانتشرت الفوضى، وتعددت التمردات والثورات، التي بدأت بعد شهرين فقط من تولي الأغوات السلطة، عندما رغب الآغا الأول خليل في الاحتفاظ بالسلطة⁽¹⁾، وهو الأمر الذي عدّه الإنكشاريون مخالفاً لما أصدره ديوانهم العسكري، ومما زاد من حقدهم على الآغا نهبه للغنائم التي حصلوا عليها عندما طردوا الفرنسيين من جيجل⁽²⁾ وكانت أسباب كافية لإعلان الثورة على آغاهم والتي انتهت بإلقاء القبض عليه وقتله⁽³⁾؛ وهو جزاء كل من يقف بطريقهم، وبذلك راح ضحية هذا المنصب بل كل أغوات الإيالة الذين تولوا هذا المنصب خلال اثنتي عشرة سنة من (1659-1671م)، كانت نهايتهم مأساوية⁽⁴⁾ وذلك بسبب مناخ الضعف والفوضى الذي كان سائداً في الإيالة في تلك الفترة، ولم يتغير شيء من ذلك حتى بعد انتهاء عهدهم وبداية عهد الدايات الذين عجزوا أيضاً عن إعادة الهدوء والاستقرار والتخلص من سلطة الإنكشارية عليهم، فقد تعرضوا لثورات جند الإنكشارية والتي من بينها الثورة التي أعلنوها على حسين ميزومورتو سنة 1689م، ومن أسبابها أن الداوي حسين أبرم اتفاق سلام مع فرنسا في السنة نفسها⁽⁵⁾ لمدة مائة عام، وبذلك يكون قد رضخ لشروط فرنسا، والسبب الآخر كان ضد حملته التي أعدها على تونس سنة 1689م لمساعدة الداوي ابن شكر في انتزاع الحكم في تونس من الباي محمد بن مراد الثاني (1675-1696م) والإطاحة بهذا الأخير⁽⁶⁾.

(1) فارس، مرجع سابق، ص 67.

(2) جيجل: ولاية ساحلية تطل على البحر الأبيض المتوسط على مسافة تقدر بـ 120 كم، تمتد من شاطئ واد الزهور شرقاً في حدود ولاية سكيكدة إلى الشاطئ الأحمر غرباً في حدود ولاية بجاية، ومن الجنوب ولاية ميلة وولاية سطيف وهي منطقة جبلية .

(3) تاريخ عاشق زاده، نشره علي بك، استانبول 1332هـ، ص 358.

(4) أحمد عاكف، مناقب العارفين، استانبول 1979م، ص 420.

(5) بن خروف، مرجع سابق، ص 46.

(6) عاشق زاده، مصدر سابق، ص 257.

ولم يكن بمقدور الداوي حسين المواجهة لقمع هذه الثورة، فمنذ اندلاعها أدرك أنه أمام خصم قوي قادر على معرفة أساليبه وقمعه، لذلك قرر الهروب والتخلي عن منصبه للداوي إبراهيم خوجة(*) .

وللأسباب نفسها أيضاً تمرد إنكشاريو الجزائر على الداوي شعبان سنة 1695م، وقبل أن يهرب هو الآخر ألقوا القبض عليه وأودع في السجن وأذاقوه أشد العذاب ثم تخلصوا منه فقتلوه في السنة نفسها⁽¹⁾، وأجلسوا على كرسي الحكم الداوي أحمد بديلاً عنه، وسرعان ما أعلنوا ثورتهم ضده بحجة تباطئه في إرسال الإمدادات لقواته التي تحارب القوات المغربية على الحدود، ولقلة الإمدادات انسحبت مهزومة إلى الإيالة⁽²⁾، وعلى الرغم من عنف هذه الثورة إلا أن حظه كان أحسن من غيره فلم تصل أيادي الإنكشارية إليه، إذ تمكن من إخماد ثورتهم ومع هذا ظل خطر الإنكشارية يهدده طوال فترة حياته التي انتهت على فراش المرض سنة 1698م.

وهكذا توالى تمردات الإنكشارية في تلك الفترة، مستغلين انشغال الدايات في معالجة أوضاع الإيالة الصعبة، والمتمثلة في تقلب العلاقات مع جارتها تونس والمغرب، وكذلك مع دولة فرنسا الأوروبية؛ وقد وقع دايات تلك الفترة في حيرة من أمر الإنكشارية، فإذا مالوا إلى المسالمة مع خصومهم الخارجيين لتقادي شرمهم يكون ذلك سبباً في تمرد الإنكشارية ضدهم، وإذا قاموا بعكس ذلك وجددوا النزاع واستمرار العلاقات العدائية مع هذه الدول فإن الإنكشارية تتنمر ولا تترك للدايات فرصة تركيز جهودهم لمواجهة تلك الهجمات الخارجية.

(*) يذكر عباد في كتابه ص 145 بأن المصادر الفرنسية كانت تسمي إبراهيم خوجة بدولة إبراهيم.

(¹) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عامر، مرجع سابق، ص 499.

(²) عاشق زاده، مصدر سابق، ص 385.

فعلى سبيل المثال نجد الداوي حسن شاوش، يواجه ثورة من الإنكشارية سنة 1699م نتيجة لميله للمسالمة مع المغرب وكادت أن تطيح به⁽¹⁾، ويواجه ثورة أخرى سنة 1700م بسبب عجز قواته عن مواصلة القتال في الغرب ضد القوات المغربية؛ وفي الشرق ضد القوات التونسية، وانتهت هذه الثورة بإجباره عن التنازل عن الحكم لمن تختاره الإنكشارية ونفيه من إيالة الجزائر⁽²⁾.

ولم تكن الأوضاع السياسية المتردية للإيالة فحسب هي التي زادت لهيب ثورات الإنكشارية في تلك الفترة، وإنما أيضاً الأوضاع الاقتصادية المتمثلة في خلو خزانة الإيالة من الأموال، التي عرضت الكثير من دايات تلك الفترة إلى مواجهة أعنف الثورات، فمثلاً أطيح بالداوي حسن خوجة سنة 1707م نتيجة لعجزه عن دفع رواتب جند الإنكشارية⁽³⁾، وللسبب نفسه أعلنت الإنكشارية تمرداً على الداوي محمد بكداش سنة 1710م الذي راح ضحية ذلك التمرد⁽⁴⁾، والأمثلة كثيرة على التمردات والثورات التي أثاروها في الإيالة خلال تلك الفترة.

أخلص مما سلف إلى أن الظروف الداخلية والخارجية لإيالة الجزائر خلال القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين دفعت الإنكشارية التي تزايدت أعدادها وتعاظم نفوذها إلى القيام بسلسلة من التمردات والثورات والمذابح، وتزايدت بشكل أكبر عندما استقلت الإيالة عن الباب العالي وهذا ما دل عليه تعدد الأحداث الدموية التي راح ضحيتها كل الأغوات (1669-1671م) ومعظم دايات الفترة الممتدة من (1671-1711م).

كما تعرضت البلاد إلى فوضى عارمة، عانى منها الحكام والأهالي والإنكشارية على حدٍ سواء قبل غيرهم من إيالات المغرب العربي الأخرى؛ وهكذا تحولت الإنكشارية عن

(1) عاكف، مناقب العارفين، مصدر سابق، ص 456.

(2) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عامر، مرجع سابق، ص 452.

(3) عاشق زاده، مصدر سابق، ص 510.

(4) التر، المرجع السابق، ص 461-462.

مبادئها، وانحرفت عن الهدف الذي أنشئت من أجله، وأصبحت تبحث عن مكاسبها المادية في الإيالة، وتنتشر الفساد، وترفع السلاح في وجه كل من يعترض طريقها، ولا يستطيع أحد معارضتها لشدة بطشها.

ب - ثورات الإنكشارية وتمرداتها في إيالة طرابلس الغرب:

لم يختلف الوضع في إيالة طرابلس عن إيالة الجزائر حيث شهدت هي الأخرى في بداية المرحلة الأولى من عهد البكري (1551-1606م) هدوءاً واستقراراً نسبياً⁽¹⁾، وكان ذلك بسبب قوة شخصية نواب السلطان وفرض سلطتهم الكاملة على الإيالة بما في ذلك الإنكشارية وطائفة الرياس؛ غير أن ذلك الهدوء لم يدم طويلاً فبدأت تظهر بوادر الفوضى في النصف الأول من هذا العهد، فبعد وفاة طرغوت باشا سنة 1566م بقيت الإيالة تنتظر وصول من يرسله السلطان لتولي حكمها، وقد استغلت الإنكشارية هذا التوقيت الذي يعد فاتحة تمرداتهم في الإيالة، وتقليدهم لتصرفات إنكشارية الجزائر، التي أعطتهم أول مثال على ذلك في القيام بتلك الحركات، وتوسيع دائرة الفوضى التي نتج عنها اضطرابات في كافة أوضاع الإيالة، على الرغم من قصر الفترة الزمنية التي تفصل ما بين وفاة طرغوت باشا وتعيين يحيى باشا الذي وصل في السنة نفسها 1566م وأنهى تلك الفوضى⁽²⁾.

وهذا لا يعني أن عناصر الإنكشارية توقفوا عن تمرداتهم وثوراتهم، فقد عادت بعد ذلك وازداد طغيانهم وبطشهم أكثر من ذي قبل، ليصل تطاولهم إلى عزل الولاة وقتلهم في أكثر الأحيان، كما حدث للوالي رمضان باشا الذي راح ضحية لهذا تسلط عندما ثاروا عليه وقتلوه سنة 1584م، بسبب تزايد النعمة عليه⁽³⁾.

(1) عاكف، مناقب العارفين، مصدر سابق، ص 470.

(2) جودت، مصدر سابق، ج5، ص 610.

(3) بروشين، مرجع سابق، ص 52.

ويعدّ ذلك من أول الأسباب التي دفعت الإنكشارية إلى إعلان هذه الثورة، حيث كان تزايد حقدهم وكراهيتهم على كل الولاة المرسلين إلى الإيالة، سواء الذين تميزوا بقوة شجاعتهم وصراحتهم وعدم ثقتهم بالإنكشارية ويجاهرون بقتل عناصرها المشاغبة، أو الذين تميزوا بضعف الإرادة، وعجزوا عن القيام بأعباء الحكم، وما خلفوه وراءهم من الفوضى أيام حكمهم الفاسد وما ترتب عنه من استنزاف خزينة الإيالة وقطع المرتبات⁽¹⁾ عن الإنكشارية سبباً حقيقياً لإعلان هذه الثورة وكل التمردات التي سبق ذكرها.

ويتمثل السبب الثاني لهذه الثورة في إصرار رمضان باشا سنة 1584م على الاستمرار في مواصلة القتال ضد القبائل المتمردة في الجبل الغربي لتأديبها على الرغم من المقاومة الشديدة لقبائل الدواخل ولاسيما أهالي ككلة الذين أجبروه على التراجع⁽²⁾، وغضب الجيش الإنكشاري الذي كان قد طفق به الكيل من كثرة الهزائم وعدد الموتى في صفوفه وحالة التعب والإرهاق الشديد الذي كان يعاني منه بسبب المسافة الطويلة التي قطعها^(*) وقلة المؤن وحرارة الشمس لأن الوقت كان صيفاً⁽³⁾، ناهيك عن تزايد الخوف والرغبة في قلوبهم من أهالي الجبل الغربي المتحفظة بقواتها باعتبارها في حالة دفاع، لذلك طلب الجيش الإنكشاري من رمضان باشا بالتوقف وعدم التوغل أكثر إلى الدواخل وليس باستطاعتهم التقدم أو التحرك خطوة واحدة إلا في اتجاه طرابلس.

(¹) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة 5/ ص 313.

(²) عامر، فارس، مرجع سابق، ص 181.

(*) يذكر كلاً من عامر وفارس في كتابهما ص 181 بأن الجيش الإنكشاري خرج من طرابلس باتجاه غريان أولاً وبتقديرنا تصل المسافة إلى 85 كم تقريباً، ثم التأكيد على توجه هذا الجيش من غريان إلى بني وليد وهي مسافة تزيد عن 180 كم تقريباً، وأخيراً الحديث عن توغل الجيش في الدواخل وصولاً إلى ككلة وهي مسافة تقدر بحوالي 60 كم من غريان إلى ككلة فقط دون تقدير مسافة الرجوع من بني وليد إلى غريان، وكل هذه الكيلو مترات قياساً بتلك الفترة تعدّ مسافة طويلة جداً.

(³) فيرو، مصدر سابق، ص 130.

إلا أن رمضان باشا رفض طلبهم وعدّه تقصيراً وتكاسلاً منهم لملاحقة ومعاقبة العصاة لسلطته، لذلك فإن الجيش الإنكشاري المرافق له لم يجد مفراً من تجريد السيوف وقتله هناك، وعادوا إلى طرابلس بخبر وفاته والتخلص من سيطرته⁽¹⁾.

وهكذا بدأت الإنكشارية بعملية إراقة الدماء في الإيالة، وأصبح عندها قتل الولاة القادمين سهلاً كذبح الدجاج⁽²⁾، ولأسباب واهية تتمرد عليهم وعلى قوانينهم وتفرض آراءها عليهم بالقوة، حتى أصبحت هي من تختار الولاة وتعزلهم، وأدت أفعالها السيئة هذه إلى زعزعة أمن واستقرار الإيالة الداخلي والخارجي، فقد تكررت حوادث السلب والنهب لأموال الأهالي ومارست عليهم الظلم والقهر، وهذا ما أدى إلى كثرة الثورات ضد الوجود العثماني، وعاشت الإيالة حالة اضطراب وفوضى دائمة. وعلى الصعيد الخارجي وصل الأمر إلى تحفيز القوة الأوروبية كالبرتغال وإسبانيا لمهاجمة سواحل الإيالة أكثر من مرة⁽³⁾، وقد عبر ابن غلبون عما آلت إليه الإيالة آنذاك بقوله « بتغلب الجند ولم يكن لواليتها من قبل السلطان تصرفاً، واضطرب أمرها، وفسد نظام الملك وكثر الهرج في الرعية... »⁽⁴⁾.

وقد أدت تلك الأوضاع المضطربة في الإيالة، الذي عجز الوالي بل والسلطات المركزية في إستانبول عن مواجهتها، إلى إحداث تغيير جذري في نظام الحكم بالإيالة سنة 1606م ، وتمثل الشكل الجديد للحكم بالموافقة للإنكشارية بفرض سلطتها في الإيالة من خلال ديوانها الخاص بها.

وهكذا وصل ضباط الإنكشارية إلى السلطة دون منازع ولقبوا بالدايات⁽⁵⁾، ولكن هذا الوضع الجديد زاد من طمعهم وسوء استخدامهم للسلطة، فمن أجل الاستحواذ عليها، كان

(1) عاكف، مصدر سابق، ص 532.

(2) محمد بن مسعود، خلاصة تاريخ ليبيا الحديث، مطبعة ماجي، طرابلس، د.ت، ص 9.

(3) مجموعة من التاريخ العثماني، إستانبول 1334هـ، ص 220.

(4) ابن غلبون، مصدر سابق، ص 143.

(5) بروشين، مرجع سابق، ص 59. (لفظة داي تعني خال، وهذا يعني أن القولوجية ازدادت قوة).

أول ما يقومون به هو القتل والنفي والضرب لكل مناوئهم من الإنكشارية والأهالي⁽¹⁾، وهي أسباب كافية أدت إلى تلاحم الإنكشارية والأهالي ودفعتهم إلى تدبير مؤامرات لعزلهم والتحريض على قتلهم، وهذا ما حدث مع أول داي ينتخبونه وهو صفر داي (1611-1615م) الذي تمادى في ظلمه للإنكشارية مما أثار غضبها عليه، وعندما فشلت جميع محاولاتها لقتله قررت الإنكشارية في نهاية الأمر تقديم شكوى ضده إلى السلطان⁽²⁾، الأمر الذي عجل بدفع صفر داي إلى القبر بعد التأكد من صحة الشكوى أعدم شنقاً على باب القلعة سنة 1615م⁽³⁾.

وفي سنة 1630م لقي الداى مصطفى باشا نفس المصير ولحق من سبقه بالمصير نفسه نتيجة لنظام حكمه الفاسد، وهكذا لم يخل الأمر من تدخل الإنكشارية في العمليات التي أدت إلى قتلها وهي من وضعتهم أصلاً⁽⁴⁾.

وعلى الرغم من وصول دايات أشداء إلى سدة الحكم في الإيالة بعد ذلك؛ إلا أن تمردات الإنكشارية لم تهدأ، بل استمرت تتفاعل معلنة رفضها لسياسة دايات تلك الفترة، المبنية على القسوة والسلب والنهب والملاحقة، ومنهم الداى محمد باشا الصاقللي الذي عين على الإيالة منذ سنة 1631م وأدركت الإنكشارية في بداية الأمر أنها أمام داي قوي مقتدر فالتزمت بالهدوء النسبي⁽⁵⁾، ولكن في السنوات الأخيرة من حكمه بدأ خوف الإنكشارية يتلاشى بالتدريج، وعادت إلى سابق عهدها فثارت عليه وقتلته؛ ولكن هذه المرة اختلفت نوعية المؤامرة عن سابقتها فلم يتم شنقه أمام الناس، بل مات متأثراً بالسم الذي دُسَّ له سنة

(1) عامر، فارس، مرجع سابق، ص 188.

(2) صولاق زاده، مصدر سابق، ص 617.

(3) أرشيف رئاسة الوزراء، دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة 28/ ص 129.

(4) Oğust kar, Osmanli Tarihi, Istanbul, 1311. S. 79.

(5) فيرو، مرجع سابق، ص 145.

1649م من قبل طبيبه الذي تمكنت الإنكشارية من استمالته لفهم فقتله بهذه الطريقة البشعة⁽¹⁾.

كما واجه المصير نفسه الداى عثمان الصاقلزى الذى يعد هو الآخر أعظم وأقوى شخصية إنكشارية، وقد انتخب داياً بعد مقتل محمد باشا الصاقلزى سنة 1649م، إلا أن هذه القوة والجبروت، لم تقف حائلاً أمام رغبات الإنكشارية لتنفيذ مآربها والمطالبة بحقوقها، لذلك أعلنت ثورتها ضده، لأنه انساق وراء الثروة بعد ثلاث وعشرين سنة من توليه هذا المنصب، وما عرف عن نزاهته وعدالته.

ولكنه فى سنة 1672م أعلن رفضه الكامل لتقسيم الغنائم البحرية على عناصر الإنكشارية⁽²⁾، على نحو ما كان معمولاً به فى السابق، وكان ذلك سبباً فى قيام هذه الثورة، التى استمر فيها رفع السلاح لمدة ثمانية أيام فى وجه الداى وأعوانه، وتمكنت الإنكشارية أخيراً من محاصرتهم داخل القلعة، ولما شعر الداى عثمان الصاقلزى بأنها ستتغلب عليه انتحر بتناوله السم فمات مسموماً خوفاً من بطش الإنكشارية⁽³⁾.

استمر انتخاب الدايات لتولى كرسي السلطة فى الإيالة بعد وفاة عثمان الصاقلزى نحو أربعين سنة، إلا أن معظمهم كانوا ضعاف الشخصية، لم يستطيعوا إنهاء مؤامرات الإنكشارية وعصيانها المستمر، الذى سبب فوضى كبيرة طوال هذه الفترة، فالإنكشارية كانت لأنفها الأسباب تعزل هؤلاء الدايات ولو بعد يوم واحد من وصولهم إلى السلطة، بل وصل الأمر إلى نفي بعضهم وقتل عدد كبير منهم وجرت مذابح هائلة بين الطرفين⁽⁴⁾.

فالبداية كانت مع الداى عثمان الذى انتخبوه مكان الداى عثمان باشا الصاقلزى سنة 1672م، ولكنه لم تطل فترة حكمه حيث ثارت عليه الإنكشارية بزعامة إبراهيم مصرلى

(1) عاشق زاده، مصدر سابق، ص 550. (الوثائق تفيد أن الطبيب كان يهودياً).

(2) التليسي، مرجع سابق، ص 169.

(3) التر، الأتراك العثمانيون فى أفريقيا الشمالية، ت: أدهم، مرجع سابق، ص 123.

(4) أرشيف رئاسة الوزراء، دفتر الديوان الهمايوني، نمرة 36/ ص 110.

أوغلو الذي لم يكن راضياً منذ البداية على انتخاب هذا الداى⁽¹⁾ فأوقد هذه الثورة التي أطاحت بهذا الداى، فقد تم قتله في السنة نفسها.

وفي سنة 1675م أعلنت ثورة أخرى ضد الداى مصطفى بهلوان بعد مضي عشرة أيام فقط من توليه هذا المنصب⁽²⁾، وتم خلعه هو الآخر وللأسباب نفسها ولكنه كان أوفر حظاً من الداى السابق، إذ لم يقتل وإنما تم نفيه إلى جزيرة جربة⁽³⁾. كما أن فترة الترازي إبراهيم داى الذي انتخب سنة 1687م لم تتجاوز عدة شهور، فقد ثار عليه الإنكشاريون وقتلوه في نفس السنة وانتخبوا الإمام محمد داياً بدلاً منه⁽⁴⁾.

استمرت الإنكشارية على المنوال نفسه في تمرداتها وعصيائها حتى أواخر عهد الدايات؛ وكان أهم تمرد آنذاك، حدث نتيجة لتولي الداى إبراهيم الأركليكي الذي اغتصب السلطة سنة 1709م⁽⁵⁾، والذي يعد من أكبر الطغاة، الذين مارسوا سياسة الغطرسة والوحشية، فأغضب الجميع من تصرفاته⁽⁶⁾، وفي هذه الأثناء اغتتم محمد بن الجن هذه الفرصة المناسبة وأسرع إلى إعلان التمرد على إبراهيم داى فقبض عليه ونفاه خارج الإيالة⁽⁷⁾، وكان ذلك آخر ما تتحمله الإنكشارية من محاولات لاغتصاب السلطة، وعدم ارتياحها لتولي هؤلاء الدايات الذين حاولوا إرغامها على القبول، وقد عبرت الإنكشارية على

(1) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: أدهم، مرجع سابق، ص125.

(2) فيرو، مصدر سابق، ص184.

(3) أرشيف رئاسة الوزراء، دفتر الديوان الهمايوني نمرة 42/ ص 248.

(4) التر، المرجع السابق، ص134.

(5) يسميه فيرو إبراهيم الأركلي - أليل، ويسميه بازامه إبراهيم الأليلي، وعند بروشين إبراهيم الإيالي، ويتفق التر وعامر على تسميته بإبراهيم الأركليكي وهذا الأخير على الأرجح هو الأصح.

(6) التر، المرجع السابق، ص 142.

(7) أرشيف رئاسة الوزراء، دفتر الديوان الهمايوني نمرة 42/ ص 290.

رفضها وغضبها بإعلانها للثورة في سنة 1711م وحققت مبتغاها عندما أُلقت القبض على محمد بن الجن وقتلته، وأجمعت على تنصيب الحاج مصطفى داياً في مكانه⁽¹⁾.

وعلى ما يبدو أنه لم ينل رضاها هو الآخر، فأعلنت الثورة عليه وعزلته في السنة نفسها ليصل آخر الدايات وهو محمود أبو موسى سنة 1711م⁽²⁾.

لم يطرأ على عساكر إنكشارية الجزائر هو ذاته ما حدث لإنكشارية إيالة طرابلس، من حيث تجاوزها اختصاصاتها كهيئة عسكرية محاربة، نتيجة لفقدانها للقاعدة الأساسية التي قامت عليها، لتصبح أداة تخريب تلجأ إلى العنف وهو الوسيلة المفضلة لديها لتنفيذ رغباتها المتزايدة، وكل من يحاول الوقوف للحد من طغيانها يتعرض للنفي أو الموت بالقتل أو الانتحار، وهذا ما جعل الإيالة لا تعرف الاستقرار في كثير من الأحيان، ولا سيما بعد وفاة طرغوت باشا سنة 1565م فقد قامت الإنكشارية بسلسلة من التمردات والثورات اتصفت بالعنف والبطش بسبب الأطماع والأحقاد والجشع والبشع الذي اتصفت به، وهذا ما يدل على مدى فساد الإنكشارية في الإيالة.

بالطبع هناك مسوِّغات دفعت الإنكشارية في إيالة طرابلس الغرب وغيرها من إيالات الشمال الأفريقي، أبرزها افتقارها إلى إدارة قوية تضبط تصرفاتها عندما تتجاوز حدودها، فضلاً عن ذلك نقص في رواتبها وعدم تبدلها كل ستة أشهر، كما نص قانون الاغتراب العسكرية، هذه العوامل إضافة إلى توقف الأعمال الجهادية أسهمت في هذه الثورات وتلك التمردات.

ج - ثورات الإنكشارية وتمرداتها في إيالة تونس :

لم تشهد إيالة تونس خلال المرحلة الأولى للحكم العثماني أي هدوء أو استقرار، فقد تميزت تلك المرحلة باضطرابات، وأعمال شغب مارستها الإنكشارية، وهو بعكس ما تميزت

(¹) أوغست كور، مصدر سابق (غير مترجم) ص 437.

(²) فيرو، مصدر سابق، ص 255.

به جارتها إيالتا الجزائر وطرابلس خلال الفترة الأولى من عهد الولاة الأقوياء الشجعان؛ الذين حققوا العدالة والطمأنينة والاستقرار، من خلال فرض إرادتهم على الإنكشارية وجعلها مسالمة وخاضعة، إلا أن نهاية هؤلاء العظماء سبقت تاريخ ضم البلاد التونسية إلى الإمبراطورية العثمانية⁽¹⁾، أي قبل تمركز حاميات الإنكشارية في الإيالة، وهذا ما يفسر كثرة الاضطرابات فيها منذ وقت مبكر، فلم يظهر فيها ولاه بذلك المستوى الحربي والسياسي، فقد تولى ما يناهز العشرة ولاه بداية من حيدر باشا سنة 1574م إلى عهد حسين باشا، الذي انتهى في سنة 1591م، حيث تميزت فترة حكمهم بالفوضى الداخلية، على الرغم من أن بعضهم حاول السيطرة على تمردات الإنكشارية في بداية الأمر، إلا أن الغلبة كانت في النهاية للإنكشارية⁽²⁾ بسبب ضعف شخصياتهم، وقلة خبرتهم في الشؤون السياسية والحربية، الأمر الذي ساعد على زيادة نفوذ الإنكشارية، وإظهار تمرداتها داخل الإيالة، والتي تعد من التمردات المقبولة في أسبابها، والتي من بينها الأزمة المالية الخانقة التي تعيشها الإيالة في تلك الفترة⁽³⁾ الأمر الذي عسّر دفع رواتب الإنكشارية وتأخرها لمدة طويلة، وقد فشل الولاة في إيجاد مخرج من هذه الظروف المتأزمة وتعللوا بأن مدخول الإيالة لا يغطي تلك الرواتب ولم يفكروا إلا بمنفعتهم الشخصية، وتلاعبهم بهذه الرواتب وإنفاقها على رفاهيتهم. وهذا ما لم تقبله الإنكشارية من هؤلاء الضباط الذين حملتهم مسؤولية تردي تلك الأوضاع⁽⁴⁾.

ومن بين الأسباب أيضاً ما اتصف به باشوات تلك الفترة فعلاوة عن عدم كفاءتهم ونهبهم لأموال الخزينة وتسلبهم لاحتكار القرار والامتيازات على حساب الجند⁽⁵⁾، زاد

(1) عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر. تونس)، مرجع سابق، ص 156.

(2) البشروش، المجتمع الليبي في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 50.

(3) أرشيف رئاسة الوزراء، دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة 12/ ص 571.

(4) عامر، مرجع سابق، ص 160.

(5) أرشيف رئاسة الوزراء، دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة 110/ ص 199.

طغيانهم وتماديهم على من دونهم من جند الإنكشارية فمارسوا عليهم كافة أنواع التعسف والاستبداد، بل وكانوا يقابلونهم بالاحتقار⁽¹⁾ والاستهزاء الذي وصل إلى حد تكليفهم بالاهتمام والعناية بخيل ضباطهم⁽²⁾، وكان ذلك آخر ما يتحمله هؤلاء الجنود الذين أحسوا بهذه الإهانة معتبرين ذلك تحقيراً لهم، ولم يكن أمامهم إلا العزم على رفع السلاح، والقيام بثورة عارمة ضد هؤلاء الضباط، للتخلص من ظلمهم ونظامهم الذي أصبح مكروهاً، إلا أن القيام بمثل هذا العمل لم يكن بالأمر السهل، لذلك قاموا بوضع خطة حدد فيه المكان والزمان والكيفية التي تمنع خصومهم من استعمال السلاح؛ حيث اتفقوا مع وكيل الخرج في الديوان وهو واحد منهم بأن يقفل البيت الذي فيه السلاح ويحمل معه مفاتيحه ويغيب في ذلك اليوم⁽³⁾ المعلوم لجميع أهل الديوان، وما هي إلا لمحة عين حتى سارع هؤلاء الجنود بالهجوم على الضباط المجتمعين في الديوان في الوقت المحدد وهو 18 أكتوبر سنة 1591م⁽⁴⁾، وجرت مذبحة مروعة راح ضحيتها ثمانون ضابطاً، ولم يكتفوا بذلك بل ألقوا بجثثهم أمام القسبة⁽⁵⁾ ثم دخلوا بيوت هؤلاء الضحايا ولم يتركوا بها أي ثمين أو رخيص إلا واستولوا عليه دون أن يرددهم أحد⁽⁶⁾.

وعلى الرغم من أنها كانت ثورة دامية، إلا أنها أعطت إحساساً لهؤلاء الجنود الإنكشاريين بأن جميع مطالبهم تحققت، التي من بينها تقليص نفوذ أولئك الباشوات وانتهاء صلاحياتهم، وصار الجنود هم من يختارون رؤساءهم المباشرين لعضوية الديوان أطلقوا

(1) أرشيف رئاسة الوزراء، كدان كلان دفترى، نمرة 5611.

(2) عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر - تونس)، مرجع سابق، ص 208.

(3) ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار أفريقية، دار المسيرة، لبنان ط 3، 1993، ص 224.

(4) أرشيف رئاسة الوزراء، دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة 126/ ص 258.

(5) عامر، مرجع سابق، ص 208.

(6) كامل باشا، التاريخ العثماني، استانبول 1329هـ، مجلد (1) ص 214.

عليهم لقب الدايات، فكان أول من اختاروه من أمراء الجند هو إبراهيم رودسلي سنة 1591م⁽¹⁾.

وهكذا هدأت أحوال الإنكشارية الثائرة قليلاً وعاد النظام والانضباط في الإيالة بعد هذه الثورة؛ ولكن هذا الهدوء لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما بدأت محاولات الإنكشارية للعودة إلى سابق عهدها، في نهاية عهد هذا الأخير الذي اضطر إلى مغادرة الإيالة سنة 1592م، وعين من بعده الداوي موسى، الذي لم يفلح هو الآخر في فرض نفوذه على الإنكشارية الثائرة⁽²⁾، إلا أن الأمر اختلف تماماً مع وصول الداوي عثمان إلى الحكم في سنة 1598م، الذي فرض نفسه على الجميع وضرب الإنكشارية بيد من حديد، حتى أعاد إلى صفوفها الانضباط، وتوقفت مشاغبات الضباط وتجاوزات الجند، وبذلك لم تشهد إيالة تونس أي تمرد للإنكشارية يذكر في عهده وعهد من جاء بعده من الشخصيات القوية⁽³⁾، حتى وفاة حمودة باشا إلى أن تولى ابنه مراد الثاني سنة 1658م.

ومنذ ذلك الحين عادت الاضطرابات والفوضى من جديد إلى الإيالة، وذلك بسبب التنافس بين نفوذ البايات والدايات⁽⁴⁾، واستغلت الإنكشارية ذلك للعودة إلى إعلان تمرداتها⁽⁵⁾ وخاصةً بعدما عين الباي مراد الثاني الداوي شعبان خوجة سنة 1669م، وما قام به هذا

(1) أرشيف رئاسة الوزراء، دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة /180/ ص 119 (أواسط شوال لسنة 1081).

(2) عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر - تونس)، مرجع سابق، ص 167.

(3) أرشيف رئاسة الوزراء، مهمة دفترني نمرة 23، ص 36.

(1) بدأ التنافس بين الدايات والبايات مع بداية بروز نفوذ البايات في عهد مراد الأول (1613-1631م)، وإلى أن أصبح نفوذهم أقوى من نفوذ الدايات في عهد مراد الثاني (1658-1675م) الذي سحب من الدايات كل نفوذ حقيقي في الإيالة، وعلى الرغم من محاولات الدايات المتكررة لاستعادة نفوذهم إلا أنهم فشلوا وانتهى الأمر بتحول السلطة من الدايات إلى البايات. للمزيد انظر: ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 228-250.

(5) رفيق، مصدر سابق، ص 473.

الأخير من اختلاس الأموال وإثارة الفتن للإطاحة بالباي مراد الثاني، الأمر الذي دفع الإنكشارية إلى إعلان التمرد عليه والتوعد بالانتقام منه، وأصبحوا يتحينون الفرصة المناسبة، حتى استطاعوا في سنة 1672م من اقتحام مقر إقامته بالقصبة، وانتهى تمردهم بعزله ونفيه إلى زغوان، وقد عين الباي مراد الثاني الحاج محمد المنتشه داياً في مكانه⁽¹⁾.

ولم تمض ثلاثة أشهر على تولي محمد المنتشه لمنصب الداوي حتى أعلنت الإنكشارية التمرد عليه هو الآخر، وربما لأنه تباطأ في تنفيذ أوامره، فقد انتهزوا فرصة خروج الباي من الإيالة في جولة لإخضاع القبائل الثائرة، كما استغلوا أيضاً نجاح تمردهم السابق دون أن يوقع الباي مراد الثاني عليهم العقاب اللازم، لذلك وبدون خوف قاموا بأعمال أكثر جرأة، فألقوا القبض على الداوي الحاج محمد ونفوه هو الآخر إلى زغوان، وعينوا مكانه من كانوا يريدونه وهو لازعلي⁽²⁾.

ومع تولي مراد الثالث الذي استقر له الأمر في سنة 1696م، قامت الإنكشارية بتمرد جديد، عندما أصر على قيادة حملة موجهة إلى الجزائر بما كان لديه من قوات، ولم تكن الإنكشارية راضية على الدخول في مواجهة غير متكافئة⁽³⁾، مما أدخل اليأس في نفوس عناصرها الذين استنفذت طاقاتهم، ناهيك عن إتباعه دائماً معهم أسلوب القوة والبطش والظلم، لذلك نقموا عليه واندفعوا إلى إعلان التمرد بزعماء إبراهيم الشريف آغا الصباحية آنذاك، وهم في الطريق بوادي الزرقاء بباجة^(*) شهبوا سيوفهم وقتلوا الداوي مراد الثالث وكان

(1) كامل باشا، مصدر سابق، مجلد (1) ص 219.

(2) ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 242.

(3) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: أدهم، مرجع سابق، ص 321.

(*) وادي الزرقاء: قرية سياحية تونسية تبعد عن العاصمة حوالي 100 كم، تقع ما بين مجاز الباب وجنوب شرقي مدينة باجة، وهي تابعة إدارياً لولاية باجة، وسميت بوادي الزرقاء تيمناً برجل صالح كان له فرس سماها الزرقاء وكلما سأل عنها قيل له تسرح في الوادي ومن ثم جاءت تسمية وادي الزرقاء.

ذلك في سنة 1702م⁽¹⁾، ولم ينته التمرد إلى هذا الحد، بل قاموا بعد عودتهم إلى تونس بارتكاب ثاني أبشع جرائمهم وهي قتل كل أفراد أسرته وأقاربه⁽²⁾، وبذلك عاقبت المذهب وغير المذهب على حدٍ سواء، الأمر الذي أفرع الأهالي والسلاطين الذين أيقنوا بأن هذه الأفعال الشنيعة والمخيفة، لا يمكن تقبلها وإن تكرر تجاوزاتها دليل على حدوث خلخلة في نظامها العام ما أدى إلى انحرافها عن وظيفتها الأساسية، وشمل ذلك كل الإنكشارية المتواجدة في إيلات المغرب العربي الثلاث، التي شهدت استمرار مسلسل التمردات والثورات الدائمة وما نتج عنها من قتل ونهب وانتهاك الحرمات وهتك الأعراض، علماً بأن تلك الأحداث لم تنته بنهاية سنة 1711م (نهاية فترة قيد الدراسة)، بل استمرت إلى ما بعده، إلى حين ظهور دلائل جديدة بدأت تشير إلى تعذر استمرار هذه الأوضاع المأساوية وتتبئ بقرب حدوث عاصفة تعجل بنهاية نظام الإنكشارية، وإنشاء جيش جديد ليحل محلها في الإيالات عامة وإستانبول خاصة، وهذا ما حدث في نهاية الأمر فعلاً، فقد تم القضاء عليها نهائياً سنة 1826م على يد السلطان محمود الثاني وبالتالي أنقذ البلاد والعباد من شرورها⁽³⁾.

أخلص مما سلف أنه على غرار ما حدث في إيالتي الجزائر وطرابلس من تمردات وثورات للإنكشارية، فقد شهدت إيالة تونس هي الأخرى ومنذ بداية السيطرة العثمانية في أواخر القرن السادس عشر تمردات وثورات، هي الأعنف من الثورات الأخرى، وتعد ثورة العساكر سنة 1591م، من أهم الثورات التي تعرضت لها الإيالة وأكثرها تنظيماً وانضباطاً، وقد أدت إلى تغير سياسي مهم، تمثل في إنهاء عهد الباشوات الذي لم يعمر طويلاً، ووصول الدايات للحكم بعد هذه الثورة، ومعظمهم كانوا من ذوي الكفاءة والمقدرة استطاعوا أن يرجعوا السكون على الإيالة.

(1) جودت، مصدر سابق، ج4، ص 357.

(2) أوغست كور، مصدر سابق، ص 358.

(3) كامل باشا، مصدر سابق، ص 470.

ومع تعاقب الأيام رجعت الاضطرابات من جديد، وبعد عهد مراد الثاني (1658-1675م) بداية ازدياد المشاكل من الإنكشارية التي تواصلت بكل وحشية حيث القتل والنفي وانتهاك حرمت المنازل ونهب الأموال وما إلى ذلك، واستمرت حتى بعد سقوط النظام المرادي وقيام الأسرة الحسينية سنة 1705م، ولكن بعد أن أدار الفلك دورته وكشر الزمن عن أنيابه تم إزالتها من الوجود.

ثانياً - القولوغلية :

أ - تمردات القولوغلية وثوراتها في إيالة الجزائر :

بعد أن تزايدت أعداد القولوغلية وتعاظم نفوذها قامت بعدة تمردات وثورات داخل الإيالة⁽¹⁾ نتيجة لظروف اجتماعية وسياسية، فقد تم تهميشها في ممارسة السياسة. فمذ آواخر القرن السادس عشر أخذت الإنكشارية تعزز سلطتها من خلال محاولة إبعاد فئة القولوغلية عن المشاركة في تسيير دفة الحكم مدنياً وعسكرياً بالرغم من رابطة الدم، وحرمانها من تولي المناصب العليا وخاصةً على مستوى المركز⁽²⁾ حتى لا يتم استغلال ذلك للهيمنة على الإنكشارية وخاصةً إذا تحالفت القولوغلية مع الأهالي بحكم القرابة التي تجمعهم، وبالتالي الانقلاب والاستعلاء على السلطة في الإيالة⁽³⁾.

لذلك حاولت الإنكشارية الحد من زيادة أعداد فئة القولوغلية وذلك بتشجيع العزوبية في وسطها، منذ بداية القرن الثامن عشر لكي يتم التغلب عليها⁽⁴⁾، وكذلك مراقبة أفرادها الذين

(1) هامر، التاريخ العثماني، مصدر سابق، كتاب رقم 30، ص 233.

(2) محمد أمين، ملاحظات حول سياسة التهميش ووضع المهملين بولاية الجزائر العثمانية، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، منشورات مؤسسة التميمي، تونس، العدد 15، 2002م، ص 23.

(3) أوغست كور، مصدر سابق، ص 485.

(4) المصدر السابق، ص 288.

سمح لهم بالخدمة في القلاع العسكرية، فقد تم وضعهم تحت قيادة ضباط إنكشارية⁽¹⁾، ومع ذلك فقد أخذت كل الحيلة والحذر من عامة القولوغلية وعدم الثقة بها.

إلا أن هذه السياسة العنصرية والمعاملة القاسية تركت في نفوس القولوغلية العداء والنفور وكرهيتها للإنكشارية، وكل ذلك ولد قطيعة بينها وبين الإنكشارية تجلت في رفع السلاح أكثر من مرة في وجه الإنكشارية، ولم تكن سياسة التهميش هذه لقولوغلية الجزائر وحدهم بل اتخذت هذه السياسة اتجاه قولوغلية إيالات المغرب العربي الثلاث (الجزائر - طرابلس الغرب - تونس) لأن فئة القولوغلية كانت ترى أنها أحق بالسلطة في الإيالة من الإنكشارية القادمة من الأناضول وغيرها من المناطق البعيدة الطامعين في حكم الإيالة⁽²⁾.

ومن الناحية السياسية أيضاً فإن الإيالة شهدت مع بداية مرحلة حكم الباشوات (1578-1659م) عدة خلافات داخلية، ولاسيما الخلاف بين طائفتي الرياس والإنكشارية⁽³⁾ هزت الوضع السياسي الداخلي وهيأت للإنكشارية فرصة التدخل في المسائل السياسية للإيالة، وكان لهذا أبلغ الضرر، حيث أصاب الإيالة حالة من الفوضى والاضطراب، هذا التدهور السياسي الذي ساد أنحاء الإيالة، وانشغال الإنكشارية وضعف السلطة الحاكمة ساعد القولوغلية لإعلان بداية تمرد لها نتيجة لاختلال الرقابة عليها.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الفوضى القائمة التي أوجدتها الإنكشارية داخل الإيالة، التي أصبحت تهدد مصير أولئك الباشوات وكان أولهم خضر باشا الذي اضطر

(1) فارس، مرجع سابق، ص 88.

(2) كامل باشا، مصدر سابق، ص 612.

(5) لقد كانت الإنكشارية في خصام دائم مع طائفة الرياس التي رفضت السماح للإنكشارية الانضمام إلى صفوفها والمشاركة في أعمال القرصنة، لأنها تحتقر الإنكشارية التي كانت تساند الولاة في امتناعهم من الاستجابة إلى كل طلباتهم، واستمر ذلك الصراع إلى أن تدخل محمد باشا ابن صالح ريس سنة 1568م وحل الخلاف القائم بينهما، وذلك بأن سمح لكل منهما بالانخراط في صفوف الآخر. للمزيد : شارل أندريه جولييان، تاريخ أفريقيا الشمالية (تونس - الجزائر - المغرب الأقصى منذ الفتح الإسلامي إلى سنة 1830م)، مطبعة شركة الفنون للنشر، تونس، 1983م، ص335. وكذلك ينظر: هلايلي، مرجع سابق، ص127-128.

للقوف موقف المدافع، فسلح القولوجية والأهالي بغية القضاء على الإنكشارية وإبادتها⁽¹⁾، وهكذا حصلت القولوجية على السلاح والبارود دون عناء، وعلى دعم قوي من مدبر هذه المؤامرة وهو خضر باشا الذي تولى إدارة الإيالة للمرة الثانية (1594-1596م)، كما أنها حصلت على تأييد كبير من أهالي مدينة الجزائر ورجال منطقة القبائل⁽²⁾، كل هذه الأمور دفعت القولوجية إلى إعلان أول تمرداتها ضد الإنكشارية سنة 1596م، واستمرت صفوفهم منضبطة تضرب وبكل قوة الإنكشارية ولمدة تجاوزت الشهر⁽³⁾، مما سبب مذابح دموية عنيفة ذهب ضحيتها الكثير من الطرفين، غير أن تفوق الإنكشارية، وخبرتهم في الحرب الدفاعية وميلهم لسفك الدماء مكنتهم من التغلب على القولوجية، وأفشلت محاولاتها هذه المرة من تحقيق كامل أهدافها، وعلى الرغم من فشلها إلا أنها تسببت في تغيير سياسة الإنكشارية الظالمة إزاء أفراد القولوجية، واضطرت إلى إتباع سياسة جديدة للتخفيف من جبروتها تجاه القولوجية⁽⁴⁾.

وهذا لا يعني أن الإنكشارية بعد هذه الثورة، مالت إلى المسالمة الحقيقية مع القولوجية وإنما تنبأت إلى خطرهم، وازدادت حذراً منهم، وأصبحت الإنكشارية تتشبث بالسلطة أكثر فأكثر، دفاعاً عن مصلحتها وخاصةً بعدما سعت القولوجية إلى التحالف مع منطقة القبائل والتي تعد من أشد المعارضين لحكم الإنكشارية⁽⁵⁾. وعلى الرغم من كل العواقب الإيجابية والسلبية التي ترتبت على ثورتها الأولى لم تؤد إلى تهدئتها، وإنما جعلتها في حالة ثورة مستمرة، فقد نظمت ما بين سنوات (1629-1633م) عدة ثورات ضد الإنكشارية بهدف إضعاف سلطتها والتقليل من دورها السياسي في الإيالة واستلام الحكم بدلاً منها⁽⁶⁾.

(1) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عامر، مرجع سابق، ص 277.

(2) مجموعة التاريخ العثماني، مرجع سابق، ص 763.

(3) المرجع السابق، ص 764.

(4) فارس، مرجع سابق، ص 61.

(5) عاكف، مصدر سابق، ص 518.

(6) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عامر، مرجع سابق، ص 256.

ويشير حمدان خوجة إلى إحدى هذه الثورات قائلاً « في حوالي سنة 1630م خطر ببال طائفة الكراغلة أن يستولوا على الحكم ويطردوا إباءهم الأتراك الذين قد كانوا رؤساء في الحكومة، فاجتمعوا من أجل هذا الغرض ببرج مولاي حسن، وكان الأتراك على علم بدسياسة الكراغلة، إلا أنهم تظاهروا بالغفلة لإفساد خطتهم وإحباط مؤامراتهم فاتفقوا مع عدد من عمال «بني ميزاب» على أن يلبسوهم لباس الإناث ويسلحهم ثم يرسلونهم إلى مكان اجتماع الكراغلة ليحبطوا تلك المؤامرة ويبددوا شمل المتآمرين.

وكان الأمر كذلك إذ بجماعة من بني ميزاب أخذت تقترب من مدخل الحصن وسرعان ما أزاحت ستار التتكر وأخرجت أسلحتها المخفية وهجمت على الكراغلة وبذلك باعت مؤامرة الكراغلة بالفشل وأصبحوا خاضعين للأتراك. وبعد هذه الحادثة لم يستطع الأتراك أن ينفوا أبناءهم الكراغلة من البلاد، بيد أنهم لا يسمحون لهم - أبداً - بأن يشغلوا مناصب سامية، كما أن جميع من كان يشغل منصباً منهم قبل هذه الحادثة عزلوه عنه من ذلك الحين»⁽¹⁾.

وفي سنة 1633م اندلعت ثورة أخرى التي تعد من أخطر ثورات القولوغلية⁽²⁾، وكان سببها الرئيس، هو القرار الصادر عن ديوان الإنكشارية الذي يقضي بطرد عناصر القولوغلية من مدينة الجزائر كمحاولة لتخفيض أعدادها⁽³⁾ التي كانت تتزايد بشكل كبير، وبالتالي إضعافها نظراً للسطوة التي بلغتها، وهكذا تضمن الإنكشارية إبعاد الخطر الذي يهددها، إلا أن سياسة النفي لم تأت بنتائج حسنة فقد زادت من هياج أفراد القولوغلية وأثارت غضبهم، الأمر الذي دفعهم إلى تدبير محاولة أخرى في السنة نفسها للعودة وقلب نظام

(1) سجلات الديوان الهمايوني، دفتر نمرة /72/ ص 140 و 274.

(*) اختلفت الدراسات التاريخية الحديثة في وصفها لهذه الثورات فيذكر هلايلي في كتابه ص 81 بأن اندلاعها كان خلال سنوات (1629-1633م)، ومن نتائج ثورة 1630م انفجار مستودع البارود الذي احتوى به عناصر القولوغلية، وبأنه في سنة 1633م قامت القولوغلية مجدداً بثلاث ثورات أخرى. بينما يشير نمير في كتابه ص 98. 99 بأن أولى الثورات كان اندلاعها في عهد خضر باشا (1595-1596م) والثانية في سنة 1633م وقد كان من إحدى نتائجها انفجار مستودع البارود. ويقول الغربي في دراسته ص 83 بأن ثورات القولوغلية وقعت ما بين (1610-1633م) ويعدد نتائج ثورة سنة 1633م ولم يكن من بينها حادثة انفجار البارود.

(3) سجلات الديوان الهمايوني، دفتر نمرة /73/ ص 447.

الحكم، حيث تجمعت القولوجية الثائرة في ضواحي مدينة الجزائر استعداداً لدخولها، واستقر رأي قادتها على أن يتسللوا إلى المدينة في الظلام، وأن يكونوا متكرين بزي الفلاحين⁽¹⁾ حتى يتم إخفاء الأسلحة الخفيفة التي يحملونها تحت ملابسهم هذه دون أن يحس بهم أحد، ثم بدؤوا يدخلون خفية على هيئة مجموعات صغيرة متتالية، وعلى الفور توزعوا في أحياء مدينة الجزائر⁽²⁾ وباشروا في الهجوم على ثكنات الإنكشارية وتمكنوا من السيطرة على بعض المواقع داخل المدينة⁽³⁾.

وعلى الرغم من تأييد الأهالي لهم إلا أن أفراد القولوجية فقدوا التأييد القوي الذي كانوا يعولون عليه من أشد أعداء الإنكشارية وهي طائفة الرياس التي خرج عناصرها إلى البحر آنذاك باعتباره وقت قرصنة⁽⁴⁾ الذي يتزامن مع وقت إعلان هذه الثورة. الأمر الذي سهل على الإنكشارية توجيه ضربة قوية للقولوجية⁽⁵⁾، وبعد أن أغلقت الإنكشارية أبواب القلعة لم يكن أمام القولوجية إلا الهروب إلى القلعة للاحتماء بها والاستيلاء على السلاح الموجود بها⁽⁶⁾. ومن سوء حظها انفجر مستودع البارود الموجود بالقلعة في هذه الأثناء وتسبب في دمار هذه القلعة وما يجاورها من منازل، وأدى إلى مقتل عدة آلاف من القولوجية وأهالي مدينة الجزائر⁽⁷⁾، ومن بقى من أفراد القولوجية لاحقتهم الإنكشارية وقتلت أكثرهم بكل وحشية وفر عدد قليل منهم خارج أسوار المدينة ومن ثم إلى بلاد القبائل⁽⁸⁾.

(1) أوغست كور، مصدر سابق، ص 57،

(2) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عامر، مرجع سابق، ص 356.

(3) عاكف، مصدر سابق، ص 589.

(4) فارس، مرجع سابق، ص 61.

(5) عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر - تونس)، مرجع سابق، ص 69.

(6) جودت، مصدر سابق، ج 5، ص 417.

(7) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: عامر، مرجع سابق، ص 356.

(8) فارس، المرجع السابق، ص 61.

وهكذا فقد تشتت تجمعات القولوغلية نظراً لاختيارها التوقيت غير المناسب لهذه الثورة، وتراجعت مكانتها بشكل كبير وخاصةً بعد معاهدة السلم التي عقدتها بلاد القبائل سنة 1639م مع ديوان الإنكشارية⁽¹⁾، واستمرت القولوغلية تعاني من هذا الضعف والعزلة، وعدم الاعتراف بحقوقها، إلى أن حدثت متغيرات داخل الإيالة وخارجها، تمثلت في تأخر وصول المجندين الإنكشاريين الجدد من الأناضول إلى الإيالة التي هي بحاجة إلى أعداد إضافية منهم وخاصةً بعد أن وقع الوباء في الإيالة سنة (1648-1650م) وأهلك الكثير منهم⁽²⁾، لذلك اضطرت الإنكشارية بعد كل هذا الخلاف إلى قبول أفراد القولوغلية في صفوفها كجنود عاديين وليس كضباط لهم مسؤولية، الأمر الذي جعل القولوغلية تكف عن تمرداتها وثوراتها لفترة من الزمن⁽³⁾.

وخلاصة القول إن أسباب تمردات وثورات القولوغلية تعود إلى بداية الوجود العثماني في الإيالة، لأن الإنكشارية سعت منذ دخولها إلى فرض حصار شديد حول نفسها، وحول مواقع القوة في أيديها حتى لا تتسرب إلى صفوفها أي فرق أخرى خوفاً من الطامعين في الحكم، وخاصةً القولوغلية المطالبة باستمرار بأن يكون لها الحق بحكم روابط الدم التي تجمعها مع الإنكشارية في مشاركتهم السلطة، لذلك قامت الإنكشارية بوضع العراقيل في وجهها لمنعها من ذلك. ولكن هذا الحال لم يستمر طويلاً، فقد استغلت القولوغلية ضعف السلطة الحاكمة في عهد الباشوات، وقامت بعدة تمردات وثورات لقلب نظام الحكم في الإيالة، إلا أن الإنكشارية أحست بذلك فقضت على هذه الثورات التي استمرت خلال سنوات متقطعة، وقد لقي الكثيرون من عناصر القولوغلية مصرعهم إثر ذلك، وفي النهاية استجدت أحداث في الإيالة داخلية وخارجية دفعت الإنكشارية إلى الاعتراف بحقوق القولوغلية

(1) أسعد أفندي، الوقائع، استانبول 1311، مصدر سابق، ص 114.

(2) سجلات الديوان الهمايوني، دفتر نمرة 110/ ص 539، (أواخر جمادى الأخرى 1110).

(3) سجلات الديوان الهمايوني، دفتر نمرة 159/ ص 34 و 258.

وإشراكهم في تسيير شؤون الإيالة. وهكذا حقق أفراد القولوغلية مبتغاهم وانتهى تمردهم خلال تلك الفترة.

ب - تمردات القولوغلية وثوراتها في إيالة طرابلس الغرب:

ازدادت الأحوال سوءاً في إيالة طرابلس، خلال آواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، أي في أواخر عهد الدايات (1607-1711م) بسبب الصراع على السلطة من قبل الحاشية المحيطة بالدايات حتى بين الدايات أنفسهم؛ وأدى ذلك إلى تعاقب الدايات سريعاً على الحكم، ولم يستطع أي واحد منهم إيقاف اندلاع التمردات والثورات التي كثرت وإعادة الهدوء والطمأنينة⁽¹⁾، بل لجئوا إلى ابتزاز الأهالي والقولوغلية دون تمييز، واستولوا على الخزينة ونهبوا كل ما يريدونه دون رادع⁽²⁾ وخاصةً الدايات الأربعة^(*) الذين تولوا في الفترة الأخيرة، فقد شهدت الإيالة في عهدهم أياماً عصيبة بمختلف مناطقها وتعرضت إلى جميع صنوف التعسف والظلم والإرهاب، وجعلت الجميع يطلبون الاستقرار ويتوقون إلى الأمن.

مهدت هذه الأوضاع إلى بداية النهاية لعهد الدايات، وبداية نضال سكان المدن والقبائل البدوية، على الرغم من النزاعات التي مزقت هذه القبائل⁽³⁾ وأخذوا جميعاً يقاومون مقاومة شديدة واستأثروا بكل سلطة حاكمة منتهزين ضعف الدايات وضعف قوات الإنكشارية

(1) أرشيف رئاسة الوزراء، علم وخبر دفتري، نمرة 279، ص 34 و 35 و 36.

(*) وهم على التوالي:

- إبراهيم الأركلي (1709. 1710م).

- حاج رجب داي 1711م.

- محمد بن الجن داي 1711م.

- محمود أبو موسى 1711م.

(2) أسعد أفندي، مصدر سابق، ص 210.

(3) المصدر السابق، ص 211.

بالإيالة⁽¹⁾، وبالتالي ظهور منافس ومنازع جديد للإنكشارية، كونته قوة القولوجية التي وجدت زعامتها وقيادتها السياسية أولاً في محمد بن الجن، ثم في أحمد يوسف القرمانلي⁽²⁾ وأدى كلٌّ منهما دوراً كبيراً في تاريخ إيالة طرابلس خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، عندما اغتنما الفرصة المناسبة لإعلان ثورتيهما المتتاليتين اللتين أفسحتا المجال للقولوجية لتصل إلى مرحلة تولي الحكم والتمتع بملذاته، بعدما كانت تعاني من التهميش السياسي لفترة طويلة. كل ذلك بفضل الشجاعة والجرأة التي مكنتهما من كسب ثقة أهالي الإيالة والالتفاف حولهما، وبكل تأكيد تمكنا من خلال هذه القوة الداعمة لهما من انتزاع السلطة من العناصر التركية الصرفة⁽³⁾.

ويعد عهد إبراهيم الأركلي (1709-1710م) فاتحة ثورات القولوجية في الإيالة، فقد استهل هذا الداي حكمه بارتكاب أبشع الجرائم في حق العناصر التركية، وخاصة المنحازين منهم إلى خليل باشا الداي السابق، حتى استطاع إضعاف شوكتهم⁽⁴⁾، واعتمد على العناصر المحلية حيث قرر عزل قاره محمد قائد جنده وهو تركي الأصل وأبعده عن الإيالة، وربما لعدم ارتياحه له ولغيرته منه⁽⁵⁾ وعين مكانه صهره القولوجي⁽⁶⁾ محمد ابن الجن قائداً للجند الذي كان على دراية واسعة بأمور الإيالة العسكرية والسياسية، القائمة على عدم وجود قاعدة ثابتة للجلوس على كرسي حكم الإيالة، وقد استغلها إبراهيم الأركلي لاغتصاب سلطة الداي، فضلاً عن معرفته أيضاً بنسبة المشاركين معه من عرب وقولوجية عندما أعلن ثورته، لذلك عمد أولاً إلى تحسين علاقاته مع أهالي الإيالة حتى يكسب مودة الجميع

(1) عامر، فارس، المرجع السابق، ص 208.

(2) بازامه، برقة في العهد العثماني الأول، مرجع سابق، ص 448.

(3) أوغست كور، التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص 717.

(4) بازامه، تاريخ برقة في العهد العثماني الأول، مرجع سابق، ص 454 455.

(5) المرجع السابق، ص 455.

(6) سجلات الديوان الهمايوني، نمرة 23/ ص 139 لسنة 1133 هـ.

وعطفهم، ومما ساعده على ذلك أنه قولوغي فيميلون إلى شخصه أكثر من غيره حتى أصبح يتمتع بشعبية كبيرة ونفوذ قوي، وعندما أحس بهذه القوة بدأ يخطط للإطاحة بالداي إبراهيم الأركليلي. ومع أول فرصة انقلب الوضع إلى ثورة فقد هاجم قصر الداى بقواته وتمكنوا من الدخول بعد حصار استمر لمدة 25 يوماً، فقبضوا عليه ولكنهم لم يقتلوه أو يعاقبوه العقاب الذي يستحقه لارتكابه أفع الجرائم وإنما اكتفوا بنفيه إلى الإسكندرية وكان ذلك في سنة 1710م⁽¹⁾.

وهكذا انتصر زعيم الثورة محمد بن الجن الذي يعد أول زعامة قولوغلية محلية قاومت الظلم الذي تمارسه الإنكشارية على بلادهم، وكما هو معروف عن درابته وخبرته ومعرفته بمصير سابقه، فقد عمد على أن يتولى قيادة الجيش بنفسه دون الاعتماد على أحد وأن يكون حاكماً فعلياً للإيالة، ورأى من الأفضل له أن يكون داياً من الناحية الشكلية فقط لتبرئة نفسه دائماً، وأن يعين إسماعيل خوجة داياً الذي لم يحكم الإيالة خلالها أبداً فقد كان العوبة في يد محمد بن الجن وهذا الأخير هو الذي يدير الإيالة كما يشاء⁽²⁾. ولكن الإنكشارية لم تكن راضية على هذا الوضع الذي جعلها تحت رئاسة شخص من القولوغلية، وخاصةً عندما أحست بأنه ينوي التخلص منها، لذلك أعلنت رفضها وعبرت عن ذلك بالبده في المحاولات لانتزاع السلطة واستعادتها إلى أن تمت عملية الاغتيال التي دبرها الخازندار محمود أبوميس، بالاتفاق مع أربعة من أعوانه حيث هاجموا القلعة مكان إقامته، وبشكل مفاجئ وثبوا عليه وهو نائم وذبحوه ولم يتمكن من الدفاع عن نفسه، وعلى الفور خرج محمود أبوميس وأعلن نفسه داياً سنة 1711م⁽³⁾، وانتهت ثورة القولوغلية ولم تنتج فيما أرادت، لكنها حققت نتائج مهمة تمثلت في تغيير واقع القولوغلية بتحطيمها لقيود سياسة التهميش رغم أنف الإنكشارية، وتشجعت على القيام بمحاولات أخرى لتحسين واقعها نحو الأفضل فقد

(1) مجموعة التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص 679.

(2) المصدر السابق، ص 680.

(3) أسعد أفندي، الوقائع، مصدر سابق، ص 469.

جاءت المحاولة الثانية والناجحة وكانت أيضاً في سنة 1711م التي قادها أحد محترفي الجندية وهو أحمد يوسف القرماني الذي ينتمي إلى طبقة القولوغلية العسكرية⁽¹⁾ وأصبح قائداً لفرقة مكونة من القولوغلية في طرابلس مركز الإيالة، وقد أحبه الجند وزعماء القبائل، ويحظى بعطف الأهالي جميعاً الأمر الذي أقلق الداوي محمود أبوميس وكان لابد من وضع خطة مدروسة للتخلص من هذه الشخصية القيادية التي يمكنها في أي لحظة القيام بالانقلاب عليه وبدأ بتنفيذها فعلاً، حيث كلفه بالتوجه إلى غريان بحجة مساعدة حاكمها في إخماد التمردات هناك وأن يسلمه رسالته السرية والتي مفادها تكليفه بقتل حامل هذه الرسالة عند وصوله إليه⁽²⁾.

ولكن هذه الخطة لم يكتب لها النجاح، لأن أحمد القرماني كان يشك في إخلاص الداوي له، فاستغرب أمر مهمته المفاجئ وأمر هذه الرسالة العاجلة فاضطر إلى فتحها قبل وصوله⁽³⁾ وعندها انقلب الأمر تماماً فقد عجلت هذه الرسالة بدفع محمود أبوميس إلى القبر بدلاً من أحمد القرماني الذي انزعج من هذا التصرف وزاد من درجة الحقد والكراهية وأثار غضبه الشديد، وبدون تردد قرر القيام بثورة حاسمة، ورأى أن الوقت قد حان لإعلانها ضد الداوي محمود أبوميس وعلى حزب الأتراك المناوئ له في الإيالة، فأسرع راجعاً بقواته إلى طرابلس، التي أقبل أهلها من القولوغلية والعرب على هذه الثورة وقدموا له المساعدة ففتحو أبواب المدينة في الوقت المناسب⁽⁴⁾ ودخلت هذه القوات الجرارّة تبحث في كل مكان عن محمود أبوميس الذي فضل الانتحار فشنق نفسه خوفاً من بطش القولوغلية ولم يَدُم حكمه

(1) محمد مصطفى بازامه، تاريخ برقه في العهد القرماني، دار الحوار، قبرص، 1994م، ص26.

(2) فيرو، المصدر السابق، ص264.

(3) عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى - ليبيا)، مرجع سابق، ص206.

(4) عاكف، مصدر سابق، ص475.

إلا 25 يوماً فقط⁽¹⁾، ودخل أحمد باشا القصر وقررت القولوغلية مبايعته في الشهر السابع لسنة 1711م⁽²⁾.

إلا أن أحمد القرماني لم يعبر عن فرحته بهذا النصر إلا بعدما دبر مكيمة قضى بها على ضباط الإنكشارية⁽³⁾ الذين استجابوا لدعوته بالحضور إلى قصره للاحتفال^(*) بتنصيبه قائداً للجيش وانتهى الحفل ولم يخرج من الضباط أحد، وليكمل المشوار الذي بدأه قام في اليوم الثاني بملاحقة كل المتمردين من الإنكشارية في الإيالة وأبادهم جميعاً سنة 1711م⁽⁴⁾. وهكذا نجحت خطته وهدأت الثورة وأصبحت القولوغلية صاحبة الكلمة العليا في الإيالة لأكثر من قرن كامل من الزمن.

وخلاصة القول إن إيالة طرابلس شهدت كما هو معروف مع بداية القرن الثامن عشر حالة من الغليان والاضطرابات على كافة الأصعدة ولاسيما الأوضاع الداخلية التي كان يكتنفها الكثير من التمردات والثورات، الأمر الذي ساعد ظهور قوة القولوغلية على المسرح السياسي، فاستطاعت بتقلبات هذه الظروف أن تعلن ثورتها وتصل إلى السلطة التي كانت تتطلع إليها منذ فترة ولم تياس أو تفقد الأمل في الحصول على هذا المطلب، إلى أن تهيأت لها الفرصة، فانتزعتها من الإنكشارية التي انتهى بها الأمر إلى أن تضعف فتستسلم لقوة

(¹) فيرو، مصدر سابق، ص 265.

(²) بازامة، تاريخ برقة في العهد القرماني، مرجع سابق، ص 53.

(³) سجلات الديوان الهمايوني، دفتر نمرة 36/ ص 110.

(*) في هذا السياق يشير فيرو في كتابه ص 272 إلى أن أحمد باشا القرماني دعا جميع الضباط الأتراك، وأمر حراسه بالاختباء في الحجر السرية المظلمة الموجودة على جانبي السقيفة المؤدية إلى صالة القصر، ويغتال كل من يصل إلى هذه السقيفة وبأن يخفوا الجثث على الفور، ونفذت تلك المهمة وذلك بخنق الواحد تلو الآخر إلى أن قضوا على كل المدعويين البالغ عددهم 300 ضابط إنكشاري.

(⁴) سجلات الديوان الهمايوني، دفتر نمرة 54/ ص 213.

جند القولوغلية، ليبدأ عهد مهم في التاريخ السياسي للبلاد تمثل في هيمنة طائفة القولوغلية وغدت الطبقة الحاكمة في الإيالة بعد مائة وستين سنة من الحكم العثماني.

ج - تمردات القولوغلية وثوراتها في إيالة تونس :

بعد انتهاء عهد الدايات (1590-1631م) عادت إلى الإيالة الفوضى والاضطرابات التي لا يمكن وصفها، فكانت مسرحاً لفتن جند الإنكشارية الذين وصلوا إلى أسوأ أحوالهم، ولفتن المراديين في نزاعهم على الحكم فيما بينهم، وبين الذين كانوا يثرون عليهم من حين إلى آخر⁽¹⁾؛ وظلت الإيالة تعاني طيلة عهد البايات (1631-1705م) من انتشار الفساد والفوضى القائمة ومن السياسة الظالمة التي اتبعتها آخر المراديين، وهو مراد الثالث (1699-1702م) والتي زادت من العداوة والقطيعة بين الأهالي والمراديين⁽²⁾، ومن بعده إبراهيم الشريف (1702-1705م) الذي سببت سياسته الظالمة هو الآخر في خلق تباعد بينه وبين أهالي الإيالة، فعاملهم معاملة قاسية بالقتل والتعذيب والسجن والتشريد، ونهب أموالهم وممتلكاتهم، لأنه كان متعصباً للعنصر التركي ويحقد على العنصر العربي⁽³⁾، لذلك عمد على الانتقام من الأهالي والقولوغلية الأمر الذي جعلهم ينفرون من هذا القائد التركي المستبد⁽⁴⁾ ويتربصون ساعة الخلاص من جبروته.

ولم يكن أهالي الإيالة يعانون فقط من السياسات الظالمة آنذاك، وإنما من الظروف الطبيعية والاقتصادية الحرجة أيضاً التي تعيشها الإيالة بسبب الجفاف والغلاء والوباء،

(1) سجلات الديوان الهمايوني، دفتر نمرة 63/ ص 23. (بعض المصادر تسميها الفترة المرادية).

(2) المرجع السابق، ص 124.

(3) عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر - تونس)، مرجع سابق، ص 179.

(4) عاكف، مصدر سابق، ص 634.

وتقلص مدخول الغزو البحري⁽¹⁾، فزاد شقاء الأهالي وبؤسهم وكان ذلك البؤس يساعد في قيام الاضطرابات فيها من حين إلى آخر⁽²⁾.

ومما زاد من اضطراب أمور الإيالة كذلك، حالة الحرب التي كانت قائمة بين إيالة تونس، وإيالة طرابلس. وأخفق إبراهيم الشريف في تحقيق أي مكسب منها إذ كبد الإيالة الكثير من الخسائر المادية والبشرية، وأفسد علاقته مع المناوئين له⁽³⁾، وأصبح موقفهم معادٍ له، بسبب سوء تدبيره وظلمه، وضياعه للأموال وللأرواح، وزادت عزلة إبراهيم الشريف بدخوله في حرب أخرى ضد الجزائر سنة 1705م⁽⁴⁾، فامتدت قبيلة أولاد سعيد وبعض القبائل التونسية الأخرى المشاركة معه في هذه الحرب انتقاماً منه، بل وأعلنت انضمامها إلى الجزائريين الذين كانوا في هذه المرة أكثر استعداداً وتنظيماً وعدداً من قوات إبراهيم الشريف⁽⁵⁾.

وهكذا فإن كل الدلائل تشير منذ البداية على أنها حرب غير متكافئة، وأن الكفة ترجح لصالح القوات الجزائرية، إلا أن إبراهيم الشريف تدارك الأمر وأصر على خوض هذه المعركة، بكل ما لديه من قوة، لذلك أمر آغا فرسانه السباهية وهو حسين بن علي بالمشاركة بالقوات التي تحت إمرته إلى جانبه⁽⁶⁾، ومن المعروف أن حسين بن علي، قد

(1) المرجع السابق، ص 61 .

(2) جودت، مصدر سابق، ج 9، ص 411.

(3) تشارشلي، أوجاق المغرب، مرجع سابق، ص 380.

(4) الأرقش وآخرون، مرجع سابق، ص 62.

(5) ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ص 83.

(6) عاكف، مصدر سابق، ص 690.

(*) تقلب الباي حسين بن علي في مناصب ومهمات عدة فمنذ سنة 1694م تمكن من تولي منصب خزندار في عهد محمد باي المرادي، ثم كاهية في عهد ابن شكر، وعمل بعد ذلك تحت إمرة رمضان باي في منصب آغا صبايحية الترك، وفي عهد مراد الثالث تولى قيادة الأعراض، ثم أصبح كاهية

تولى من قبل عدة مناصب، سياسية وإدارية وعسكرية متنوعة(*) في الإيالة، سمحت له بتكوين علاقات مع عدة أطراف اجتماعية مهمة وتحالفات مع الأهالي⁽¹⁾ خاصة أنه كان يرتبط معهم برابطة الدم فهو قولوغلي، وعندما تأكد من حبهم وإخلاصهم له، وبعد أن عمل على توظيف كل الظروف لصالحه بدأ في التخطيط للإطاحة بهذا الداي، لأنه لم يعد مقتنعاً بأن النظام التركي متلائم مع الواقع المحلي التونسي، لكنه تجنب الصراع مع النظام القائم حتى تحين له الفرصة، وفضل انتظار ما يأتي به القدر إلى أن كلف بهذه المهمة ورأى أن الوقت قد حان لإعلان تمرده على إبراهيم الشريف، الذي يحقد عليه ويكرهه، فرفض تنفيذ الأمر الصادر إليه، مستخدماً ذكاءه وصعود نجمه، الذي هيأته شجاعته، بحجة أن فرقة فرسانه التي تحت إمرته فرقة صغيرة، لا يمكنها مواجهة مثل هذه المعركة الكبيرة⁽²⁾، ولا بد من حمايتها من خطر الإبادة، ولم يخش من عاقبة هذا التصرف أبداً، ووصل به الأمر إلى أن يبعث إلى بقية القواد في الإيالة، ينصحهم بعدم المشاركة في هذه المعركة الخاسرة وألا يعرضوا أنفسهم للخطر، فقرروا هم أيضاً الانفصال عن إبراهيم الشريف والانضمام إلى الجزائريين⁽³⁾، هذا التراجع غيّر من ميزان القوة لصالح أعداء إبراهيم الشريف، وشعر بواقع العزلة والتهميش الذي أصبحت عليه قواته التركية، ومع هذا لم يفقد الأمل فنزل إلى أرض المعركة بجيشه القليل، الذي لم يستطع الصمود لوقت طويل حتى تشتت قواته ووقع هو في قبضة أيادي القوات الجزائرية فتم أسره سنة 1705م⁽⁴⁾.

للباي وكاهية بدار الباشا، وفي عهد إبراهيم الشريف عينه آغا السباهية. النائب، مصدر سابق، ص 19.

(¹) منصف التاييب، بلاط باردو في عهد حسين بن علي (1705-1735)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1990م، ص 19.

(²) سجلات الديوان الهمايوني، دفتر نمرة 85/ ص 111.

(³) سجلات الديوان الهمايوني، دفتر نمرة 110/ ص 19.

(⁴) الشريف، مرجع سابق، ص 81.

انتهت المعركة بغياب المسئول الأول عن الإيالة، التي أصبحت تعاني من الفراغ السياسي، وعندها أدرك الجميع بسرعة تعيين مسئول جديد ينقدها من حالة الفوضى الإدارية؛ ولم يفوت قولوغلية تونس تلك الفرصة فبايعوا الحسين بن علي منهم باياً على الإيالة، وذلك لفرض وجودهم، فهم على يقين بأن الجميع يعرف تماماً القدرات التي يتمتع بها الحسين بن علي لتصريف الأمور وكفاءته في كل المهمات، والوظائف التي كلف بها، وكان آخرها آغا سباهية الترك⁽¹⁾، وهكذا شاعت الظروف، وسخرت الأقدار لحسين بن علي بأن يصل إلى أعلى سلطة بالإيالة في صائفة سنة 1705م⁽²⁾ دون عناء، فقد سهلت له العلاقات القوية التي كونها مع عدة أطراف اجتماعية، مكنته من الحصول على الدعم الشعبي الذي ساعده على تأدية دور مهم في هذه الأحداث السياسية بالإيالة، وكذلك تخلي الإنكشارية عن كل مطامحها السياسية في الإيالة بعدما تضاءلت أعدادها وقدراتها وشيئاً فشيئاً أخذ المحليون الذين تعاضم نفوذهم، يعملون على إبعادها إلى أن قاصوا من مهامها التي انحصرت على حماية النظام العام في الإيالة فقط⁽³⁾، ولم يبق أمام الباي حسين بن علي لتثبيت حكمه بعد ذلك إلا التخلص من أشد منافسيه وهما العدوان: الداوي محمد خوجة الأصفر الذي استهان بسلطة الباي وأصبح يظهر أنه صاحب الأمر في الإيالة، إلا أن عجزه عن دفع رواتب الجند سبب في إعلان ثورتهم عليه، وانتهت بقطع رأسه سنة 1706م⁽⁴⁾، كما واجه عدوه الثاني نفس المصير وهو الداوي إبراهيم الشريف، الذي أطلق الجزائريون سراحه في بداية سنة 1706م حيث كان ينوي إعادة استلام حكم الإيالة، ولكن حلمه لم يتحقق فتم القبض عليه وإعدامه في السنة نفسها⁽⁵⁾.

(1) أسعد أفندي، مصدر سابق، ص 378.

(2) التايب، مرجع سابق، ص 19

(3) عامر، المغرب الحديث (الجزائر - تونس) مرجع سابق، ص 181.

(4) مجموعة التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص 385.

(5) التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ت: أدهم، مرجع سابق، ص 331.

وبالتخلص منهما سيطر الباي حسين على الوضع واستتب له الأمر وأعاد هبة الحكومة، وبالتالي عادت السكينة والهدوء إلى صفوف الجميع.

أخلص مما سلف أن إيالة تونس لم تكن في حالة أحسن من الحالة التي كانت عليها إيالتا الجزائر وطرابلس خلال الربع الأخير من القرن السابع عشر، والعقد الأول من القرن الثامن عشر، فشهدت هي الأخرى اضطرابات ناتجة عن المنافسة بين البايات وصراهم على السلطة، وعن ثورات الإنكشارية المتكررة، وزاد من هذه الاضطرابات اندلاع الحرب بين إيالتي الجزائر وتونس، التي انتهت بوقوع إبراهيم الشريف في قبضة الجزائريين، وكان ذلك مكسباً لقلوغلية تونس، وفرصة لا تعوض لاختيار رجل ينحدر من بينهم لملأ الفراغ السياسي في الإيالة، فأجمعوا على حسين بن علي الذي يعد الشخصية الثانية الرسمية في الإيالة، التي حظيت بترحيب وثقة العامة وولائهم، فوقفوا إلى جانبه ودعموه في ثورته التي بدأها بتمرد عنيف على إبراهيم الشريف، استهدف تغيير الواقع المظلم الصعب الذي يعيشونه، وأنقذ البلاد والعباد عندما انفرد بالحكم وأرسى حكم سلالي جديد استمر أكثر من قرنين ونصف من الزمن.

استنتاج الفصل الرابع

إن الإطلاع على الفرمانات السلطانية، تشرح بوضوح واقع الرؤية التي يكنّها سلاطين آل عثمان لأهالي ولاياتهم ، وبخاصة ولاية طرابلس الغرب، وفي الوقت نفسه فإنه هذه الوثائق تفيد أيضاً أن أهالي ولاية طرابلس الغرب من أكثر الولايات طاعة للسلطان وتمسكاً بأوامره وبتعبير آخر أهالي طرابلس ليسوا مشاغبين كأهالي الولاية الأخرى، ومن ناحية أخرى، إذا اطلع القارئ على الممارسات التي مارسها الجند بحق الأهالي وردود الفعل حيال هذا الظلم والانتفاضات والثورات التي كانت المدن الطرابلسية تعلنها كرد على ممارسات العساكر، يدرك أن السلطان العثماني لم يكن أكثر من سلطان حاكم وفرماناته التحذيرية كانت مجرد رسائل ورقية لأن الولاة لم يأخذوا بها أو أنهم غير قادرين على إيقاف تعديت العساكر وهو الاحتمال الأقرب للصحة. ناهيك على أن القبائل ليست قوى بشرية تتحرك كيفياً فليديها زعامات لها صولة وجولة في كل الأمور، فأمرها مطاع وقبائل تموت للذود عن كلمة زعيمها، فكيف إذا طلبت زعامتها مهاجمة العساكر ، وفي الجهة الأخرى ، للعساكر قيادتها وهي الأخرى لا تجرؤ عن التلكؤ في تنفيذ الأمر ولا سيما إذا كانت تلك العساكر راغبة في ضرب القبائل والأهالي على حد سواء.

إذاً ما بين رأي الزعامتين غدت مصالح الأهالي وحياتهم وأملاكهم بين رحي طواحين الزعامة القبلية التي في أحيانٍ كثيرة تراعي حرمة الأهالي وما بين قيادة عسكرية تأمر بطحن القبائل والأهالي على حد سواء حتى لا يقال الوالي المكلف ضعف وغير قادر على ضبط الأمن.

أي أمن هذا الذي تقصد إدارة استانبول؟ أمن العساكر أم أمن الأهالي؟ الله أعلم!، والولاية تنن من الفوضى والتسيب المفتعل، والشبان خارج الصراع لأنهم يريدون تأمين لقمة العيش، فالولاية فقيرة وزراعتها تعتمد على السماء، والتجارة متوقفة بسبب اضطراب حبل

الأمن، ثورات في ترهونة وثورات في غدامس، وفوضى في سرت، والطريق ما بين مركز الولاية وبقية النواحي والأقضية غير آمنة، وديوان الجند سأم من تحذيرات الولاة ويؤلمه أن تظل مقاليد إدارة أمور الولاية بأيديهم، لكن العساكر المكونة للديوان من جنسيات مختلفة وأطماعهم متباينة، فالوالي قاسم باشا 1631م عجز عن ضبط الفوضى، والوالي رمضان الذي عين سنة 1633م عجز هو الآخر، والصدر الأعظم تخوف من أن يصل من هنا أو هناك وشاية للسلطان، فيوجه إليه اللوم، فاضطر للبحث عن والٍ قوي، وبتولي محمد باشا الصاقللي مقدرات الأمور منذ سنة 1633م، فبطش بالعساكر وبالجاليات والإرساليات المسيحية، فاستتب الأمن، واستمر الأمر كذلك حتى سنة 1649م عندما عمد طبيبه اليهودي إلى دس السم له ولابنه، وخلفه عثمان باشا الصاقللي الذي كان هو الآخر حازماً، وانتعشت الولاية في عهده لأنه نشط القرصنة وسمح للشبان وللنساء شراء سفن أو العمل بالسفن لمهاجمة الدول الأوروبية التي تعتدي على شواطئ الولاية، لكن قبائل بني الوليد لنقص مواردها ولأنها اعتادت على الثورة وإعلان العصيان متذرة بارتفاع الضرائب، ضربها عثمان دون رحمة ودون مراعاة لحالها أو تخفيف الضرائب عنها، لكنه بعد إسكاتها وإخضاعها خفف الضرائب عنها.

استمر حال الولاية هادئاً حتى سنة 1671م سنة اصطدام عثمان بالبحارة محاولاً الاستيلاء على كل الغنائم، عارضه البحارة وتحولت المعارضة إلى الاقتتال انتهى بموته سنة 1672م.

لأربعين سنة خلب الولاية من والٍ قوي يضبط الأمور ويوقف النزيف الدموي ما بين العساكر ذاتها (البحارة والإنكشارية) فالبحارة يريدون دايّاً منهم والإنكشارية تعتمد بعد خروج البحارة إلى البحر أن تخلع الداي المعين من قبل البحارة وتعيين داي منها، وحالما تعود البحارة تعتمد إلى خلع الداي وهكذا دواليك، الأهالي في رعب، ثورات لكنها غير منظمة، اضطراب لكنه فاقد لأسباب قيامه ولقيادته. إذاً الفوضى التي شهدت الولاية مزدوجة ما بين

أعضاء الديوان (إنكشارية وقولوغلية) وما بين العساكر والبحارة، لكن الغلبة للضباط الأقوياء الذين حولوا ديوان الجند إلى ألعية بأيديهم استمر حتى وصول القولوغلية إلى السلطة سنة 1711م مثلها أحمد القرماني كنفوذ محلي وليس كقوة عسكرية تابعة لاستانبول.

لم يكن حال الجزائر وتونس بأفضل حال، فالإنكشارية مارست الظلم والقهر على الأهالي وأجعتهم ضرباً، علماً بأن إنكشارية الجزائر تمتلك قوات الإنكشارية وجوهر نظامها، لكنها تأفت كثيراً من وصول القولوغلية للسلطة متمثلة بحسن باشا ابن خير الدين، وقد أوقعت به وعزلته، لكن سمعة والده أعادته ثانية.

لقد كان الأمر موضع تجاذب في السلطة، الإنكشاريون والقولوغليون ورجال البحر يتنافسون على إدارة الجزائر، وبما أن الأغوات فشلوا في إدارة الولاية، فإن الأمر هياً للدايات إدارة البلاد حتى سنة 1830م.

أما ولاية تونس، فالولاية لم تشهد عصر البكري، وانتقلت مباشرة إلى إدارة الباشوات الذين تراخوا أمام ضغط الإنكشارية عليهم، ونتيجة لذلك مارس الضباط الضغط على الجنود مما أدى إلى ثورة العساكر 1590-1591م وتولى إدارة الولاية على إثر الدايات حتى 1631م، غير أن تطلعات الإنكشارية والقولوغلية سارعت في إزالة حكم الدايات وتولى المراديون الإدارة باسم البايات، غير أن ظلم مراد الثالث هياً للإطاحة به من خلال تمرد قاده إبراهيم الشريف الذي تطلع لإعادة مجد الأتراك في تلك المناطق فدخل في حرب مع الجزائر أسفر عنه هزيمته ووصل القولوغلية للسلطة بشخص حسين ابن علي الذي أقام سلالة حاكمة استمرت حتى سنة 1956م.

الخاتمة

لم يخضع المغرب العربي للسيطرة العثمانية إثر تنافس يتعدى توسيع حدود الدولة، وكان لآل بربروس الفضل في وصول العثمانيين إلى تلك الديار البعيدة التي بلغها العثمانيون بعد تعبئة الجزائر من خلال استتجاد الطرابلسيين بهم تخلصاً من مظالم فرسان القديس يوحنا الذين تمركزوا فيها بعدما طردهم سليمان القانوني (1520-1566م) من رودس وتحقق ذلك سنة 1551م، وبذلك تكون طرابلس ثاني ولاية عثمانية في مناطق المغرب العربي.

بما أن العثمانيين بدؤوا بمهاجمة الإسبان في الجزائر من خلال آل بربروس ورجال البحر الذين أداروا الجزائر سنة وفاة آخر رجال البحر قلع علي سنة 1587م، عمد الإسبان إلى تشديد الخناق على التونسيين فاستجدوا بالعثمانيين الذين لبّوا الدعوة وأرسلوا حملة بحرية بقيادة سنان باشا سنة 1574م تمكنت من طرد الإسبان منها وإلحاقها بالدولة العثمانية كولاية ثالثة لهم في تلك المناطق البعيدة عن مركز الدولة.

تكاسل سلاطين النصف الثاني من القرن السادس عشر في تطبيق نظام الإنكشارية التي أقره نظام الدفشرية سنة 1362م وشيئاً فشيئاً بدأت الإنكشارية تفقد نظامها، فأطلقت لحاها وتزوجت في وقت كانت الدولة تشكو من الاضطرابات مع انهيار في النقد، وغدت الرواتب لا تكفي لإعاشة الجند التي اضطرت إلى بيع أسلحتها ومن ثم العمل كمرتزقة، وقد انعكس الأمر على الجند العثماني في مناطق الشمال الأفريقي، فثاروا في تونس سنة 1591م احتجاجاً على ضباطهم الذين كلفوهم بإطعام خيولهم متذرعين بأنهم قدموا إلى المغرب العربي للجهاد ضد الإسبان الذين يحاولون الاستيلاء عليه وسلب خيراته.

تطور احتجاج الجند في تونس إلى ما يشبه الثورة، ووصل بهم إلى تشكيل ديوان سموه ديوان الجند مهمته حمايتهم وإشرافه على إدارة الولاية، وسموا رئيس الديوان (داي) جمع السلطة بيده، وأصبح الوالي المكلف من استانبول أشبه بمراقب فقط.

استمرت الإنكشارية تدير تونس وبموافقة السلطة العثمانية، وفي سنة 1631م قرر الجند إنهاء عهد الدايات وتكليف شخص أطلق عليه الباي أي (البك) واستمر حتى سنة 1705م حيث تمكنت القولوغلية من استلام إدارة البلاد مستغلة ضعف الإنكشارية وقادتها الذين بدؤوا يمارسون التجارة وغيرها من الأعمال الأخرى التي أفقدتهم هيبتهم العسكرية.

أما في الجزائر فقد شهدت تبديلاً في إدارتها، وظلت الإنكشارية تحكم الجزائر حتى سنة 1830م، وقد وصلت شخصيات مهمة من القولوغلية إلى إدارة الولاية أمثال حسن باشا ابن خير الدين بربروس.

إزاء ضعف الإدارة العثمانية وعبث سلاطينها، غدت ولايات الشمال الأفريقي موضع تنافس بين ضباط الإنكشارية والقولوغلية ورجال البحر من مخلفات آل بربروس، غير أن عهد رجال البحر انتهى بموت قلج علي سنة 1587م أصبح الأمر وقفاً على الإنكشارية والقولوغلية التي كانت مكلفة فقط بحراسة القلاع، لكن الإنكشارية بدأت تضعف شيئاً فشيئاً، وتسلمت القولوغلية إلى إدارة الجزائر بعدة أثواب، فبعد عهد البكلركي (أمير الأمراء) 1518-1587م تولت القولوغلية إدارة البلاد باسم الباشوات 1587-1659م لكن الديوان قرر استبداله فعهد إلى شخصيات أطلق عليها اسم الآغا، لكن عهد الآغات هذا لم يكن قادراً على ضبط البلاد حيث لم يستمر (12) سنة، فتولى الدايات إدارة الولاية حتى سنة 1830م.

قد يلحظ القارئ لأحداث المغرب العربي وبخاصة ولاية الجزائر التي شهدت تبديلاً في إدارتها أكثر من غيرها، لم تسمح الإنكشارية للقولوغلية باستلام الإدارة من خلال القولوغلية، وقد أيدت الدولة العثمانية هذا الاتجاه وحاولت الحفاظ على إدارتها لولايات الشمال الأفريقي

من خلال الإنكشارية، لكن تونس خرجت على المألوف وتمكن الحسينيون من الوصول إلى السلطة وإنهاء دور الإنكشارية كقوة فاعلة وصاحبة نفوذ. وقد اتبعت الدولة العثمانية الأمر ذاته في ولاية طرابلس وظلت الإنكشارية تحكمها بتوجيه من الدولة رغم تمكن الديوان الثورة على البكوات الذين أداروا من سنة 1551 حتى سنة 1606م وسموا رئيس الديوان المكلف باسم الداوي، علماً بأنه قد يكون من القولوغلية حسب بعض المصادر، لكن الوثائق العثمانية لا تعترف للقولوغلية بأي دور سلطوي يتعدى ظهورها كقوة فاعلة في ولاية طرابلس الغرب في العقد الأخير من القرن التاسع عشر يوم كانت الدولة قد أعادت إدارة ولاية طرابلس الغرب إلى سلطتها المباشرة سنة 1835م وطرد القولوغلية المتمثلة بالأسرة القرمانيّة، وحالما تزايد نفوذها أمرت واليها حافظ باشا بضربها سنة 1902م وإبادة بصورة تامة.

لقد تعددت الروايات بشأن تأسيس الإنكشارية من قائل إنها فكرة أورخان وتتفيذ السلطان مراد الأول بدءاً من سنة 1326م، وقد أكدت المصادر العثمانية ووثائقها بأن السلطان مراد هو الذي أمر بإحضار أبناء البانجيك أي (أولاد الأسرى) وإن جاندرلي قره خليل أوصى بضرورة تعليمها العثمانية، ومن هنا بدأت خطوة تنظيم الإنكشارية بموجب قانون الدوشيرمه (الدفشرمه).

لقد حدد قانون الدوشيرمه (الدفشرمه) نظاماً خاصاً بالإنكشارية من حيث التدريب والرتب واللباس والمشية والقيافة، وميّز ما بين أوجاقاتها لباساً وقيافة وسلاحاً، ولم يبق صغيرة ولا كبيرة حتى المكافأة والعقاب، ووزع الاقطاعات الأرضية إلى ثلاثة أقسام تيمار وزعامت وملاك خاص، ونص أن التيمار يعطى لضباط السباهية (الخيالة) إذ كان دخلها لا يزيد عن 19.990 وما زاد يسمى زعامت ويعطى أيضاً لضباط السباهية وحتى السواري (الفرسان) أما الخاص فهم للسلطان وأبنائه .

لم تستطع الدولة أن تحدد تواجد القوات في أية ولاية، وغالباً فإن قسماً كبيراً من المتطوعين للدفاع عن مناطق الشمال الأفريقي من المدنيين قد منحوا امتيازات الإنكشارية تماماً، ولكن ظاهرة الزواج من النساء المحليات وبروز جيل القولوغلية قد أفسد الأمر على الإنكشارية في الولايات كافة، لكن الدولة وكامل إدارتها لم تعترف نهائياً بدور القولوغلية، لأنها كانت تخاف من حدوث تحالف ما بين القولوغلية والأهالي ويستغلون بالولاية، لكن لا الإنكشارية عرفت كيف تضبط أوجاق طرابلس الغرب، ولا القولوغلية أحسنت التصرف ليكون لها دور بارز في حماية الشمال الأفريقي من أعدائه الخارجيين.

الملاحق

الملحق رقم (1) ألقاب السلطان العثماني

اللقب في اللغة النبز وهو ذكر عيوب الإنسان

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾. (الحجرات-11) ثم استعمل اللقب للمدح وأصبح العمدة فيه الاستعمال.

فالغاية من اللقب أن يعرف المرء وذلك حتى تتباين درجة الرفيع والوضيع وتتميز مرتبة الصغير من الكبير والخاص من العام.

1. **الباديشاه:** لقب وظيفي يتكون من باد وهو تخت أو عرش وشاه تعني سيد أو صاحب وبادشاه تعني السلطان أو الملك أو الحاكم وقد ورد هذا اللقب بالنصوص التأسيسية العثمانية بمدينة القاهرة فأطلق على السلطان محمد الرابع.

2. **خاقان:** تعني السلطان الأعظم أصلها قان قان أو قان القان أو القانان.

وقيل هي الرسم العربي للقب السلاطين الأتراك إذ كان يحمل هذا اللقب حكام الشعوب العريقة في القدم التي كانت تسمى نفسها تركاً منذ القرن السادس الميلادي وقد أخذوا هذا اللقب عن أسلافهم.

3. **خليفة:** اختلف في اشتقاق لفظ خليفة لغوياً ف قيل أنه فعيل بمعنى مفعول كجريح بمعنى مجروح أي أن المعنى أن يخلفه من بعده وعلى هذا حملت الآية الكريمة " إني جاعل في الأرض خليفة". سورة البقرة آية [30]

على قول من قال إن آدم من عمر الأرض وخلفه فيها بنوه.

ومن جهة أخرى قيل فعيل بمعنى فاعل ويكون المعنى أن يخلف من قبله وعليه حملت الآية عند من قال أنه كان قبل آدم في الأرض الجنة وأنه خلفهم فيها. وعليه خطب أبو بكر بخليفة رسول الله.

أما الهاء في خليفة فقليل لتأنيث الصيغة وقيل للمبالغة وربما حذفت وتجمع خليفة على خلفاء وخلائف وقد كان أبو بكر الصديق أول خليفة لرسول الله (ﷺ).

4. **خنكار:** معناه السعيد استخدمت كلقب بمعنى حاكم أو سلطان وكان سلاطين آل عثمان يعتمدونه وهو بمعنى السلطان الأعظم.

وقد أشار البعض إلى أن سلاطين آل عثمان استخدموا هذا اللقب منذ القرن السادس عشر الميلادي على الأقل كما لقب به كثير من الأعيان في الدين والتصوف بخاصة. وقد ورد هذا اللقب بالنصوص التأسيسية العثمانية بمصر بنص سبيل خسرو باشا أثر "52" 942هـ لقباً للسلطان سليمان القانوني بصيغة الخنكار الأعظم.

5. **السلطان:** أصله في اللغة الحجة قال تعالى: ﴿وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعمن من يؤمن بالآخرة﴾ آية سبأ سورة [21].

يعني الحجة وسمي السلطان بذلك لأنه حجة على الرعية يجب عليهم الانقياد له وهذا المنصب وراثي خاص بالأسرة العثمانية وهو يت رأس الأجهزة التنفيذية والإدارية والعسكرية.

6. **الغازي:** لقب فخري من الغزو.

يقول تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير﴾ سورة آل عمران آية [56].

واستمر استخدامه لسلاطين آل عثمان اعتزازاً منهم وافتخاراً بالانتصارات التي أحرزوها لاسيما على العالم المسيحي وقد عرف هذا اللقب عندهم منذ قيام دولتهم فقد تلقب بلقب الغازي (أورخان) ووصف أبيه الذي تنتسب إليه الدولة بهذا اللقب.

الملحق رقم (2)

المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية

(أ)

أبهتلو : صاحب الأبهة

أرطلية : جنود الفرقة

أرسلان : أسد

أسكي : قديم ، أصيل

الأصناف : أصحاب الحرف

أضباشي : الحاجب ، البواب ، صاحب غرفة الدخول

آغا آغات الوجاق : كبير ضباط الفرقة

آغا السراي : شيخ الحرم في المدينة المنورة الذي تعينه الدولة مدى الحياة

أغوات : ضباط

أقجة : عملة عثمانية فضية تساوي ربع أو ثلث البارة .

ألاي : فرقة

أمير الحج : قائده والمشرف على قافلته .

أمين الصرة : حامل الأموال الخاصة بالحرمين الشريفين

أنباشي : عريف

انكشارية : العسكر الجديد ، الجند المحترفين الذين تعددهم الدولة العثمانية من غلمان
المسيحيين

أوجاق : فرقة من الجند

أوده : فرقة من الجند

أوردي : جيش

أورطة : فرقة من الجند

أورنيك : نموذج

أوطاق : خيمة فخمة

أوغلي : ابن

أولو وزير : الصدر الاعظم

أيچ أوغلان : أسرى الحرب من الغلمان المسيحيين الذين نشؤوا في دور الحكومة
العثمانية

أيلاق : عاطل عن العمل .

(ب)

بادشاه : أحد ألقاب السلطان ، السيد الأعظم

باش : رئيس ، أول .

باش جوقدار : رئيس فتيان القصر

باش كاتب : رئيس الكتاب ، رئيس الديوان

باش معماري : معلم معمار

الباشا : الوزير ، الوالي ، نائب السلطان

باشالق : الولاية

باشقة : آخر ، غير

بكجي : حارس

بلطجي : جلاّد ، سياف

بلطجية : رسل ، مبعوثين

بلوك : فرقة من الجند

بيرق : علم ، لواء ، راية

بيرق الحرب : العلم الامبراطوري

بيرقدار التفكجية : حامل لواء الرماة .

بيكلربكي : أمير أمراء " الرتبة الثانية من رتب الباشوية "

(ت)

تتر : رسل ، مبعوثون

ترسخانة : دار الأسلحة

ترسيم : احتياط ، مراقبة

تفكجية : قناصة ، رماة ، الجنود حملة البنادق

تقرير إبقاء الباشا : فرمان إبقاء الباشا في ولايته

تمسكات : سندات

تنكز : البحر

توقيع : كتاب من الباشا

تيمار : إقطاعة تعطى للجندي مقابل تقديمه عدداً من فرسان الأرض

(ج)

جادر : خيمة

جالق : مضطرب ، متقاعد

جاويش : حاجب ، الدليل في الحرب ، مخبر ، رقيب

جبخانة : ذخيرة ، العدد الحربية

جبه جي : فرقة مصلحي الأسلحة

الجردة : قافلة تحمل المؤن إلى الحجاج وتلقاهم في طريق عودتهم إلى دمشق

جفتلك : مزرعة ، إقطاعة

جفتلي : خادع ، غشاش

جلبي : سيد ، خواجه

جوي : مسمار .

(ح)

حكمدار : حاكم ، قائد الشرطة

حمائلي : حجاب

(خ)

خاتون : سيدة

خاقان : سلطان

خرج : زنار ، صرف

خرم : سعيد ، مسرور

خزنة مصر : الأموال التي ترسلها مصر للخرينة السلطانية

خزندار : أمين الصندوق ، أمين الخرينة

خستخانة : مستشفى

خط شريف : فرمان يحمل اسم السلطان أو خطه

خنكار : من ألقاب السلطان

(د)

الداالية : طائفة من الجند

دالي (من : ديلي): مجنون ، طائش ، متهور

دفتردار : المشرف على الإدارة المالية

الدلال : المنادي

الدوشمان : العدو

دولتلو : صاحب الدولة

دونانمة : أسطول

ديوشيرمة : ضريبة الغلمان

(ر)

رصدخانه : مرصد ، مرقب

رفعتلو : صاحب الرفعة

روزنامجي : محاسب

(ز)

زادة : ابن

زرباوات : أشقياء

زرد خانه : مستودع الأسلحة

زلطة : عملة مغشوشة (30) بارة

(س)

سباهية : فرسان الباب العالي من المرتزقة

سرجي : ناقل البريد

سردار : قائد الجند

سرعسكر : قائد الجيش

سر طبيب : رئيس الأطباء

سرمعمار : المعلم المعمار

سعاد تلو : صاحب السعادة

سلحدار : المشرف على مستودع الأسلحة

سلخور : مبعوث السلطان

سلملك : بهو الاستقبال ، مضافة

السليمانية : من رتب العلماء الأتراك الرفيعة

السمرم : طير يفتك بالجراد

سيران : نزهة

(ش)

شحنة : جوع

شمشمان : سمين

شهشوار : ماهر جريء

شوشرة : اضطراب ، حيرة

شرجية : من أكابر الانكشارية

(ص)

صاحب : العرض : المسالم الذي يحافظ على الشرف

الصدر الأعظم : الوزير الأعظم

الصرة : اموال ترسل من الدولة لأشراف الحجاز

صنق : علم . قسم من الأقسام الإدارية : راية ترفع عند الخطر

صنق الخزنة : قائد الجند الذين يحافظون على الخزنة

صندوق أميني : امين الصندوق

صوباشي : ضابط أمن رئيس فرقة من السباهية

(ض)

ضربخانة : دار سك العملة أو النقد

(ط)

طابور : كتيبة ، فرقة

طبنجة : غدارة

طوب : مدفع

طوبال : أعرج

طوبجي : مدفعي

طغراء : العلامة السلطانية " الختم السلطاني "

(ع)

عراضه : موكب

عربي كاتبي : الكاتب بالغة العربية

عرض أوردو : معسكر ، مركز

علوفة : مرتب شهري

(ف)

فرمان : مرسوم قرار

(ق)

قانون نامة : التشريع الذي وضعه سليمان القانوني محاولاً وضع حد للمساوى السابقة

قردهجي : صانع الأسلحة

القفا دار : الموظف الذي يسير خلف قافلة الحج

قشلة : ثكنة عسكرية

قبحي التقرير : حامل فرمان السلطان بتقرير الولاية .

قلّق : مخفر

قنّاق : مضافة ، فندق المسافرين

(ك)

كتاب : حامل بريد الحجاج إلى أقربائهم

كتبخانة : دار الكتب

كرخنجي : صاحب معمل او مصنع

كور : أعور

كول : مملوك

(ل)

لاوند : طائفة من الجند

لغمجية : واضعوا الألغام

لومان : سجن ، حبس

لعل : ياقوت أحمر

(م)

معمار باشي : معلم معمار

منلا : عالم ، سيد . (أصلها العربي مولى)

مهردار : حامل الأختام

ميرزا : ابن الأمير

(ن)

نائب حلب : وكيل الحاكم فيها

نشانجي : صاحب التوقيع ، القيم على خاتم السلطان

نعلبند : البيطار

نوبجي : موسيقي ، حرس

(و)

وجاق : فرقة

وينوق : الفرقة التي تحمل الأرزاق والمؤن للجيش

ويركو : ضريبة ، خراج

(ي)

يازجي : كاتب

ياور : مرافق ، معاون

يايا باشي : رئيس الجند المشاة

يسق : ممنوع

يطقان : ساطور ، سيف

يغما : غش ، مكر ، خداع ، فوضى

يغنيش : خطأ

يمكخانه : مطعم

الملحق رقم (3)

التعريف بالطغراء مع صورة لها

هناك عدة مسميات للشخص المسؤول عن رسم طغراء السلطان على الوثيقة ففي العصور الأولى عُرف باسم نيشانجي (نسبة لكلمة نيشان الفارسية) أو توقيعي (العربية الأصل)، وفي القرن الثامن عشر الميلادي تغير الاسم إلى "طغرا كش" tuğrakeş²³ أو "طغرا نويس" tuğranüvis²⁴، ثم جاء لقب "الخطاط" ليحتل مكانة الألقاب الأخرى. ويضع النيشانجي الطغراء في وسط الوثيقة من أعلى بشكل يتناسب مع حجم وطول الوثيقة. ويقوم بعدها رئيس الكتاب بمراجعة الكتاب للتأكد من صحته، ثم تعرض على الصدر أعظم ليقوم مرة أخرى بمراجعة النص المكتوب، ويضع عبارة "صح" بخط يده على الوثيقة، ويعيدها مرة أخرى إلى النيشانجي، الذي يراجع الكتاب وينظر إلى الملاحظات إن وجدت، ثم يرسم الطغراء في الوسط²⁵.

متن الطغراء

إن أقدم طغراء تم العثور عليه في وقفنامه (وقفية)، والطغراء يحمل اسم السلطان الغازي أورخان بن عثمان، ويرجع تاريخها لعام ٧٢٤هـ/١٣٢٤م²⁶، ولم يُعثر حتى الآن على طغراء السلطان عثمان الأول مؤسس الدولة العثمانية، ويُقرأ الطغراء من أسفل إلى أعلى، وهو يحمل اسم السلطان واسم أبيه، وهما أهم شيء في متن الطغراء، وهذه قائمة بمتن طغراء كل سلطان من سلاطين الدولة العثمانية:

- ١- عثمان بن أرطغرل (٦٩٩هـ/١٢٩٩م):
- ٢- أورخان (٧٢٤هـ/١٣٢٤م): أورخان بن عثمان.
- ٣- مراد الأول (٧٦١هـ/١٣٦٠م): مراد بن أورخان.
- ٤- بايزيد الأول (٧٩١هـ/١٣٨٩م): بايزيد بن مراد خان.
- ٥- محمد الأول (٨١٦هـ/١٤١٣م): محمد بن بايزيد خان.

23. شمس الدين سامي، قاموس تركي (استانبول، ١٣١٧) ص ٨٨٤.

24. ظهر هذا المصطلح في الدواوين العثمانية في عام ١٢٦٣هـ/١٨٣٦م، وذلك لرسم الطغراء على المراسيم السلطانية.

Mehmet Zeki Pakalin, Osmanli Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü, cilt 3, s 530.

نويس: تعني كاتب أو خطاط، ووقعه نويس: تعني كاتب الوقائع أو المؤرخ الرسمي (البلاط). انظر:

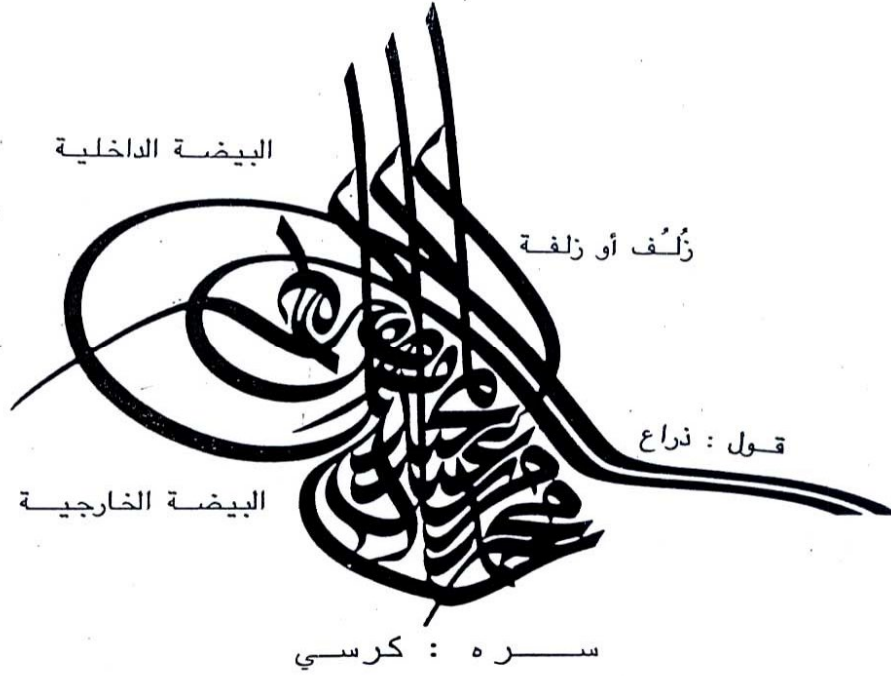
شمس الدين سامي، قاموس تركي، ص ١٤٧٦.

25. Suha Umur, Osmanli Padişah Tuğralari, s 22.

26. Ismail Hakkı Uzunçarşılı, "Tuğra ve Penceler", s 107 & Mehmet Zeki Pakalin, Osmanli Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü, cilt 3, s 526.

- ٦- مراد الثاني (٨٢٤هـ/١٤٢١م) : مراد بن محمد خان مظفر .
- ٧- محمد الثاني (٨٥٥هـ/١٤٥١م) : محمد بن مراد خان مظفر دايم .
- ٨- بايزيد الثاني (٨٨٦هـ/١٤٨١م) : بايزيد بن محمد خان مظفر دايم .
- ٩- سليم الأول (٩١٨هـ/١٥١٢م) : سليم شاه بن بايزيد خان المظفر دايم .
- ١٠- سليمان الأول (٩٢٦هـ/١٥٢٠م) : سليمان شاه بن سليم شاه خان المظفر دايم .
- ١١- سليم الثاني (٩٧٤هـ/١٥٦٦م) : سليم شاه بن سليمان شاه خان المظفر دايم .
- ١٢- مراد الثالث (٩٨٢هـ/١٥٧٤م) : شاه مراد بن سليم شاه خان المظفر دايم .
- ١٣- محمد الثالث (١٠٠٣هـ/١٥٩٥م) : محمد بن مراد خان المظفر دايم .
- ١٤- أحمد الأول (١٠١٢هـ/١٦٠٣م) : شاه أحمد بن محمد خان المظفر دايم .
- ١٥- مصطفى الأول (١٠٢٦هـ/١٠٣١هـ/١٦١٧م) : شاه مصطفى بن أحمد خان المظفر دايم .
- ١٦- عثمان الثاني (١٠٢٧هـ/١٦١٨م) : شاه عثمان بن أحمد خان المظفر دايم .
- ١٧- مراد الرابع (١٠٣٢هـ/١٦٢٣م) : شاه مراد بن أحمد خان المظفر دايم .
- ١٨- إبراهيم (١٠٤٩هـ/١٦٤٠م) : شاه إبراهيم بن أحمد خان المظفر دايم .
- ١٩- محمد الرابع (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م) : شاه محمد بن إبراهيم خان المظفر دايم .

فلاما : أعمدة أو رايات



أقسام الطغراء

الفرماننا في السلطنة
حماة سرماننا سر

الفرمان رقم (1)

إلى بكلربكي جزائر الغرب المحروسة .

يطلب إليكم الحضور إلى سدتنا العلية لأمر سنقره فيما بعد ، عليكم بتعيين وكيل عنكم ذو دراية وخبرة، وعليه أن يكون يقظاً لمراقبة الأسباب الذين يريدون بملكنا المحروسة السوء ، كما عليه أن يجعل عساكرنا في حالة تأهب دائماً وإن شاء الله لن ينال الأسباب مراده ، وكلفة بتحسين القلاع وتزويدها بالمدافع اللازمة مع جنودها الشجعان أسرعوا في أخذ احتياطاتكم وتحرموا سراً لكي لا تكونوا مصيدة للأعداء الذين تحركاتكم ، اعلموا عن موعد وصولكم إلى عتبتنا الهمايونية .

ذي القعدة 940هـ

الموافق 8 مايس 1533م

الفرمان رقم (2)

دفتري مهمات الديوان الهمايوني 58 ص 18

ورد في فرمان السلطاني الموجه إلى داي إيالة الجزائر يأمره بإزالة الخلاف مع إيالة تونس وعدم مهاجمة السفن الفرنسية التي أقامت علاقات حميمة مع الدولة العثمانية

وبعد اختصار عبارات التفخيم جاء فيه

إلى أعيان الجزائر وأشرافها .حكم. علمنا من كتابكم الذي أرسلتموه في عهد الداوي السابق ومقروناً بكتاب قاضي الجزائر أن بعض شيوخ الغرب يقيمون علاقات مع الأعداء الأسبان ، لذا كافنا الداوي حسن باشا بمراقبة هؤلاء وأن بعضهم يشير الفتنة بأن الدولة العلية أصبحت تتعامل مع فرنسا ،عليكم إعلامكم بأن فرنسا دولة صديقة لدولتنا العلية ،وبحذر كل من يتركب خطأ ضدنا ، أو يعمد إلى إقامة الفتنة ما بين عساكر المحروسة والسفن الفرنسية ، وعلى الداوي المذكور إعلامنا عن أحوال الولاية

23 رجب 1117

14 شباط 1705



صورة فرمان العالي

المؤقت بتوجيه ولاية بيروت الجلية

على حضرة عطوفتو نصوحى بك

انتمى الى الانتم

التقار الاعالي ولاءكم بخار الاكابر
والافانم مستجمع جميع المعالي والمكارم
المخلص يزيد عناية الملك الدائم من اعانكم
رجال دولتي العلية نصوحى بك والى
ولاية طه المحولة لعمدة استنباله الان
ولاية بيروت الحازر والحامل وسامي
البريدي الاول والمثاني العالي الثاني من
الطبعة الثانية دام ملوك بوسول تروني
الترفع انما يوتي ليكن معلوما كالا يحتاج
الى بيان ان استحصل راحة كل صنف من
صنوف الاعالي ومن تبعة دولتي العلية
الساكين والمتوطنين في ملكي المروسة
السلطانية واستكمال وسائل رفاهيتهم
وامتيتهم ورواية معالهم الواقعة ونسويتها
بصورة عادلة على الحق هو مطلوب وملزم
لدى ملكايتي ملجا لاطلالة الكبرى على
الدوام ولما كنت ايها الامير المشار اليه
من رجال سلطنتي السنية الحاذقين ومنصفا
بالاوصاف المطلوبة وقادرا على حسن
اجراء القوانين والنظامات العادلة وواقفا
على اصول الادارة والمصالح العمومية قد
احيلت ووجهت ولاية بيروت الثالثة
الذكر الى عمدة يانك في ايوم السادس
عشر من شهر صفر اخير السنة الثانية عشرة
والثلاثمائة بعد الالف بوجوب امرى

المركاني المتقرون بالعملة السادر من لندن
عواظي العلية السلطانية وعواظي الجلية
المركانية وقد اسدر امرى هذا الجليل
القدر من ديواني المراكبي فانتم مأموريت
فيجب عليك اذا ان تجول وتطوف احوال
المحولة لعمدة ليانتك بحسب مأموريت
وتشمر عن ساعد الجد والاجتهاد لحماية
وصيانة جميع صنوف الاعالي وتبعة دولتي
العية المستظلمين بطل ظليل معدلي السنية
المركانية وقايتهم من الظلم والتمدي حسبا
جئت عليه من الدابة والقسطة وكن
تمسكا ومتوسلا بالشريعة المطهرة النبوية
في كل حال مع تطبيق الحركات على المجرمين
والنظامات باسطا جناح الرأفة والعدالة على
الجميع صارقا نصارى الهمة لاستجلاب
الدعوات الطيرية من كل فرد لجنابي المراكبي
المستجمع المجد والشرف العالي مطهرا
مقدرتك لادارة الامور الملكية والمالية
وسائر المواد في الالوية المحقة بعرفة مأموريتها
على الوجه المطلوب لترايد وتندوم توجهااتي
المركانية الطاهرة والنايته بحفك وبادر
لمرض الخصوصيات لدار سعادتني تدريجا
تحريرا في اليوم الثالث من شهر ربيع الاول
سنة اثني عشرة وثلاثمائة والف

الفرمان رقم (6)

احمد شاه بن محمد المظفر دايم

دستور مكرم مشير مفخم نظام العالم ، مدبر امور الجمهور بالفكر الثاقب ، متمم مهام الانام بالرأي الصائب / مهدي بنیان الدولة والاقبال ، مشيد اركان السعادة والاجلال ، المحفوف بصنوف عواطف / الملك الاعلى حالا اوچنجی وزيرم اولان محمد پاشا ادام الله تعالى اجلاله ، توقيع رفيع همايون / واصل اوليجاق معلوم اولاكه سن حرم محترمه صداقت واستقامت ايله خدمت اتمش / امكدار وديندار اولوب عدالت وامانتكه وحسن فراست وكياستكه اعتقاد همايونم اولاغ / حقكده مزيد عنايت عليه شاهانه ، ومزيد عاطفت سنیه پادشاهانم ظهوره كتوروب / اشبو سنه ثلث عشرة والف جمادي الاولى شهرک يكرمي يدنجي گوننده مصر ايالتن / گرو وزارت ثالثه ايله سكا توجيه وعنايت ايدوب اعلاميچون تعيين اولنمشدر بيوروم كه فرمان جليل القدر موجبجه ايالت مزبور به وزارت ثالثه ايله / متصرف اولوب ، ضبط وربط رعيت وحفظ وحراست مملكت ودفع ورفع اشقيا واهل فساد / وتدارك خزينه وارساليه معتادده سعي واهتمام اوزره اولاسن شويله بلاسن ، علامت شريفه اعتماد قلاسن ، تحريراً في اواخر / شهر جمادي الاولى سنه ثلث عشرة والف . بمقام قسطنطينيه المحروسه

* انظر إلى صورة الوثيقة الأصلية ص ٥٧

[الترجمة]

[الحكم الموجه] لوزيرنا الثالث محمد پاشا ، ادام الله تعالى إجلاله :-

ليكن معلوما عند وصول توقيعنا الرفيع الهمايوني بأنك قد خدمت بصدق واستقامة ، وبسبب اعتقادنا بعدالتك وأمانتك وفراستك الحسنة وكياستك ، فقد رأينا بأن يظهر لك مزيداً من عنايتنا العلية الشاهانية ، وعاطفتنا السنية السلطانية ، ففي اليوم السابع والعشرين من شهر جمادي الأولى في سنة ثلاثة عشرة وألف فقد تقرر إرجاع إيالت [ولاية] مصر إليك مع تعيينك وزيراً ثالثاً .

وقد أمرنا بأنه ، وفقاً للفرمان الجليل القدير ، إعطاءك الولاية المذكورة مع الوزارة الثالثة ، وعليك بأن تسعى وتهتم بضبط الرعايا ، وحفظ وحراسة المملكة ، ودفع ومحاربة الأشقياء وأهل الفساد ، وأن تتدارك الخزينة والإرسالية المعتادة ، وأن تعتمد العلامة الشريفة في ذلك . تحريراً في أواخر شهر جمادي الأولى من سنة ثلاث عشرة وألف .

بمقام القسطنطينية المحروسة

الفرمان رقم (7)

[illegible]

الفرمان رقم (8)

علم مبراة المشروط في كتاب وقف حاج عرسيد اذربايجان في رضان

الاصفهاني المحدث في الطبيا بن معنوي في الامام في جامع الدينيه لمؤن الفطري في الامام الاول والعلما في الامام الاول في الفقه لمؤن جامع مكتوب في حيدر الاكبر في الامام في جامع الكبر لمؤن ملكه الصاهر في لمؤن الميرزا المذكور في لادم المذكور حفيظ الميرزا المذكور في كرسيا العنق واخوته في ثلاثين مائة لمؤن في الوقف في الاحصائي في الوقف في الوقف في الوقف الاكبر في الوقف في الوقف في الوقف في الوقف في الوقف في الوقف في الوقف في الوقف في الوقف في الوقف	٠٣٤ ٠٢٦ ٠١٤ ٠١٨ ١٢٩ ١٣٥ ٠٨٠ ٠٢٠ ٤٥٣
---	---

علم سان قلم كراشكا والمربيه على امان في الوقف المذكور

حكومتان بشي في حكومتي اضلاع في حكومتان في بلاد كراشكا حكومتان في الوقف في الوقف في الوقف في الوقف في الوقف حكومتان في الوقف في الوقف في الوقف في الوقف في الوقف	٠١٦ ٠٢٢ ٠٢٢ ٠٢٢ ٠٢٢ ٠٢٢ ٠٢٢ ٠٢٢ ٠٢٢
---	---

فرمان في تحصيلها هو في ذمة عبد القادر اغا السخوور ملتزم ميزان الحرير
 دستور مكرم في نظام كعالم حيدر اورد اكرم بوربا الفخر لكاتب متمم
 مهام الامام بالكراني اصاب مهندسيان كدولة في اقبال دنيا را ككعادة
 ولا جلال كحرف بصنوف عواطف ملك الا على حاله صيدا
 والبسي وزير في الحاج سليمان يابا ادم الله تعالى اطلاله وقدر
 كقضاة والحكام معدن كفضل والكلام مولانا لا ذقية كحرف قاضي
 زيد فضل ترميز في اربع هاديون واصل او كحي معلوم اوله في حاله ارجان
 كمر كاييني السخوور خاص من قدوة الامام في اعيان ولي الدين
 زيد في ذلك تقديم ايلديكي تفريفي وهو قد ترسانه عامه م
 طر من دن صط واداره اولنان ميزان حيدر سوي قضا طمه
 فتحا تندن طر البسيس شام ولا ذقية كحرف وتو ابي ميزان
 حيدر سوي قضا طمه في بيك اليوز بكري في سكر في كرمي
 طو قز سن لزيه كحرف السخوور خاص من قدوة عبد القادر زيد حيدر
 بر وجه معطو في احوال البسيس اسسده بكر في اسر سنه بده
 الزامندن غيرا في سكر الطي بيك اوچه يوز طو قز درت
 عز وكي ويكر في طو قز سنه في بدل الزا في اولان اون الطي بيك
 عز وكي في كرمي الي بيك اوچه يوز طو قز درت عز وكي
 في اولوب تاديه دين املك كرم في الكرم في الان برا في كرم
 حاصلات قضا طمه في ديون كرم في كرم في كرم في كرم في كرم

تحقيق اولئك ناني اولوب قضا طم ترميز اصدا وارسال
 اولسن اسسده الامان في حويلي طر البسيس في بيان

[illegible]

١٧١٠٧
HAT.H
أرشیف رئاسة الوزراء بإستانبول.

شكوى أعيان وأصحاب المزارع في قضية سلوري من تعديات الإنكشارية على المزارع والأهالي .

9.

١٢٧٢ HAT.H أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول.

247

وثيقة (٤)

١٦٦٧٣ HAT.H أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول.
قيام الإنكشارية بتمرد وفتنة عظيمة في محافظة خربروت .

وشیقة (۵)

فقد ان باناقه قديمه بانق شقه سید

عطوفتکارا رقتدارا جلی الہا سلطانم حضرتک
آردوی ہما یوزہ اولیٰ بجری عکری باب آصفیہ واروب یوزر خوش بخشش استعاسی دولیتر بنہ عزیمتربنہ اذن علی
اصدارای جانب آصفانہ دن صوب ثناوری بہ کلون تحریراتین مکتور دکل ایسہ دخی بو خصوصی مصدردہ اولون آدم قوزلی
طرفزن سوی خالصانہ مزہ تحریر و افہام اولش اولوب بود فہمہ رشیدون عودت و دونیمایہ وصولدہ لودیکش ازال
نزد خالصانہ مزہ کلوب مصدردن معیت آصفیدن بلہ بشیوز قدریادہ عکرا پریش دیباطہ کاملہ اوزرہ ایمش سزکہ
خبریز وار سیدر بن بونلرکہ اعادہ لریجون برزقین تعیین ایلم دیباطہ اوکملہ ورسون بو عکرا کیدلہ کیدہ جلیہ اولقارنرہ
اعادہ ایلسون اگر دکلزلایسہ اورسون باطرسون سزدخی برنکہ کوزرین دیبکملہ طرفزون دخی اول مائدہ دن
خبریم واردر کن غالباً عکراکے براز ایسہ براعازینہ اذن و بر بیکدر دیوجوب و برلشیدی تاریخ دقیمہ ثناکاریرت
ایک کون مقیم دیباطہ محافظی اعیانہ ابدان و دیباطہ کرکجی مشق افرین و دیباطہ بیشکاہنہ تعیین ایلم قزقین قوزلخ
اسمیں قوزلزن کلون مکتوبلرہ و بر قطعہ عربی العباده اعلیٰ اوردی ہر یون طرفزن بلہ بشیوز نفر مقداری بجری
عکری و براز بوزاق و ہوالسی نفرانی دیباطہ کلوب و لیتر بنہ کاملہ اوزرہ قایقلر استیکلرن بزرین اذن تذکرہ ای
اولیٰ بر قاری دخی صبارلش اولیٰ یقین سوختا ہر یول ویریکہ جبارت ایرہ بیچ جبار فوقیف ایسہ لردہ شہری خراب
ایرہ جکری نمایان اوی یقین بوغاز قایدرا اویہ دلہ بونلری اویہ قلعہ سنہ جنب و بشی اود کون تعیین اعطای
تعزیرت ایرہ دلہ کیفیتی جانب آصفانہ بہ تحریر و استبدان ابرکوزن طرف صدارت تہا ہیک دخی مرقوملر و لیتر بنہ کاملہ اوزرہ
اذن و رخصت ویرلشی حاوی فرما جلیلہ افشان و رودینہ مینی سالف الذکر عکری و لیتر بنہ امرار ایملہ اوزرہ
اولقارنری تحریر وانہا ایدکری محاط علم عالیاری بوردلوق اولباب فرما من لہ الوردکر (۱) (۲)



۶۶۳۳ HAT·H أرشیف رئاسة الوزراء بإستانبول.

شکوی للسلطان من محافظ دمیاط بخصوص مطالبه الإنکشاریة المستمرة
للمال وغبتهم في السفر دون إذن .

250

[illegible]

مرعنه سده پانزده بریلو کلوی دولت سله سی به حکزه نهر خالکدینده جمله مره سده
 یکمزدنه اومورله اوسیر وارانی کینا رفع و ازاله ایدوب بوندن بله بارش هزاران دودنلک رضاسخ خارج کرنے بوناقضه
 دودنلک لهریر اومور واراده نه اطاعت و انقیاد تنکله بالونقنات عید و منان ایدوب بوندن پیرانه ترتیز و جهل قول قول بیضوب
 ناسبتن عملدوره اولوب نشانلی شکست و بولیز ارانی افند و رفت ایله اغاقینه کندیز، و بونقهره نچا بید هیچ برنده
 بیزه هجاستا بیجوب نوبله ناریب اولور ایله اولسوندلر و بوسوید کوزخ اغای مومالیبه قولوی دهی کوز ناکه نوبه برچونه بداینه
 بونلک اوزیزنه نایقتم و ناریب ایضا هه هه هه بکده متد اولقظه بیه بریزیش ویشی و نلر دهی براد کوزورخ بوسیدول اوزیزنه
 ایان غلوظ ابرارله بعدیزه سوکمانی افترار و دیانایان و غانلک رضاسنه خارج برهکنی تجوز ایتمه حکمرانی رضای
 یار شاهیری تحیل ایچیزه حابه و باشلی نفا و غای مومالی ایدوب افکوز دهی کوزلک اجزای فرقه صدف و سقا نه لغنا
 ایدیه حکمرانی افاده و صحره ایسی اولور خورنده حکمه طبعه معاهده ری اودوده و حال ادج ریت قول اولورده مجموع ضابطه یعنی نظر
 ایتسه لر وارده باشد و باشی خوره قولقید و ساز خوره قولقچ طاقی و دیو طریا یکدیز به بر قوطه بر وارده اغاری دهی رفقت به
 صفه اخیل نظری کلدرده ناسبتن بره اصلین نشان نیت لری نوباروب حال ایدوب بولوب اغاقینه نوبه سکه مالکیت
 اخیل نظری کلدرده ناسبتن بره اصلین نشان نیت لری نوباروب حال ایدوب بولوب اغاقینه نوبه سکه مالکیت

و شایسته

7.

در فضی و در اندیشه فی رفته بیرون او طهر لول سهر برود در
 ارسلان به انراض رطال مخوفاً جزایری تزیب ایندیش اولشنی و لول به وجه قول قول کزین دیو بر طوطی در
 انبش و فیهرة انظار بولول بوجه رفته انتباه کلیدان سی فی کند در بولول صله غفار ایطوی بر مجرب برنت
 نکرده نموده بر مکره خطاب میدب ماهر سر نیز میویر او نیز لول بلوس ویا بر زده سلهی به مکره بر فالمدی
 ویکوی احاطان اکلانه اویشی زکمر عقلی باشکره طایفه دیویران لول اوله افاده لرزه بویکی سویه کزنی و لول
 کنزوری بوجه تازیانه را ز قیام عظیم تاثیر ایران سینه اوله ارسلان صله کیمی طاقی اوله در شلوسنا نگی اکبه بر لول
 صفاروب و طوی و کیم جی نکرند اکبه بوسیدنی برنجی و رسانا و صیه جی نکرند فی هیندری رستد برین جلله
 حاره رنه کیمیران هینله در و در و رستاده عده جارت اکرده اولدند برین بعدا به هر صنف کند و خا خندله کزنی بر رده طایفه
 نینه ایندیشی لول اندله مکره اول فایضه لول اوله اوله انقلنه باقی فی لایس یازکی مکره به نفع اوله افاده لول
 انکاره اقمه اولدند برین انای مکره لول فی عیاره اولدند و سار طایفه نکرند عده سندی و صحرای صحرای

وثيقة (٦)

ارسته در ...
 اولفله در حال خالکای کیمای شاهانه زینده ...
 بوللو اولدوغونجه بعدینه هر رصف کنه قیاقده کندی و رتبه هینله بولنوب الیزیریه ...
 دخی طرفه خاکدینه میناچی بانی افا و صی بانی و صی بانی ...
 و ناکله اینه نهی محاط علم عالی بیری بر ارف ...
 و ناکله ...



وثيقة (٧)

دوگاه عالی کجی باری قشورلرین کی اوله ر قشورلرینک الواحد اولرک الی عدد قوریلرک مرمون اولوق اوزده مجددا انشاسته اوده علم
ستعلق واطباره فرمان عالی باری صادر اولر یغنه بنا ذکر اظان الی عدد قورلر مرمون انشا واقضایرک نقوش و تزیینی تنظیم و طوایل الحاقه
ختامه رسیده اولر یعنی حاوی شق ثالث وقرایوی عزیز افری قورلرینک تقدیم ایدر کی تقریر طرف منجمه اشرف اصفانه لرینک وکای همایه
عصر اولدوق شویجی قشورلر الیه بوسنه کجیل اولوق ایجنه عمله مقصود اونی بشود دیو خط کایرک شوقمقرون شرقا فیه مصدوق
موبینجه بقیه الشعیر اولرک قشورلر بوسنه مبارکه ده انشا وکجیل مقوله اسباب متوقف ومنطق ایسه شمیرک شروع واستحقاق امرینه
مبادی رله مصدوق نظامی افاده یه سادعت اولوق بابن بالوی تقریر صادر اولرک فرمان عالی بینه امتثال مقصود منقول مصدوق
حسن نظامی لری المطالع موی الیه عزیز افری قورلرینک مامور تقریر وکجیری اولر یق قشورلر ختامی وقت شتاده اولوق باقی
تقریر اولنه جوق فرق برعد ویکجی قشورلرینک وقت شتاده تقریر کی عید اولر یغنه ایام صیفده تقریر اولغنه اوده علیه تعلیق ایدر
قشورلر اصل کشفلری اولرک ویتوزلر کیسه اقه نلک بر حال اعطایله ختامی مقصود اوده علیه دن اولوق ودریسه سیله
هیر نجاتلرک وکان کرکی امینی منش افری قورلر رتبه بقایا اولغنه موی الیه حسابی دویست رله فرودایره ملک بکری منش باری
و یا خود بکری سکرینک غرضی مقیاری اقم مصادق مذکوره بر حال اعطایله ختامی مقصود اوده علیه دن اولوق ودریسه سیله
زاده لردن حاجی بولود اغا مختصاتیه تحفیه قنوج بینه تعالی خلقات مذکوره نظامینبر اولر قشورلر اولر قشورلر
اغنه مذکوره نلک بوسنه مبارکه ده ختامی تحفیه اعتنا اولوق و عزیز افرینک مصالح افری اولغنه معتدین لرینک بر قورلرینک
بنا امینی نصبیلده مقصود منقول ووجه محر داو زده تنظیمی موافق اراده سایدی ایسه شمیرک مختصاته قیدایله افری موی الیه طرفه
علم وعبایعظم لوزم کله جکی معلوم دونلری بولر قشورلر ایدر وقران ووصطو سعادت واولسطم حضرت لیکدر

٣٦٦٤ HAT.H أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول.

254

وثيقة (٨)

بادشاہم

[illegible]

نوگوان گرانلو مهابلو قرتلو وخی نعم اضم
محکم سورت فرار کیر اولدیغی اوزده اودوی هاپوز سوزی عسکر اچون ادره بوشاخی بیتم و فیض عام
بنا ناک بر د واد و لافن اولون قضا ان اکریم او املین باز لری لکی استانه عید و دخی مقضای خطی
اوزده بر فاج بیک کیمچی عسکر افران افران جنلی مدار اود دخی قاج کوندر جاکیم خبر بند کانه نور بولون مهابلو
رسانا جان بلی اغا قرتلی قوت کلبی محمود بیک قرتلی دخی کونور دیوانی بقیضی در میان و اطرافیه مذکور
اولفته هرا دره سی بشربوز نفردن جمعا اودن عدد ادره ایله بی بیک نفیر کیمچی بیک مجددا یریش افران بیک
واون بی نهایت کیمچی کونور دخی کیم و افران بیک اولدیغی و ترتیب دیجه بی بیک عسکر تاجم دخی بیک اولور دخی
بلا فدن افران و کله ادره م واصل اولور مقلدی و سبوا و ادره به قاعده اوزده نیکم لوازم اچون بر کیر افران و مواصله
بر کیر افران و عید اوزدنده نصبا و دیجه ادره و اعلی ایلی کیر افران و اوان نفیر مادی و بی نفیر یازمچی به بند ادره
دخی بیک کیر افران جمعا تکی ایلی بیک کیر افران و نفیر اکیب قرتلا علوز لری بیک بیتم و بر دیوانی ادره م افران بیک
هر نفیر ادره و سورتن بی بیک نفیر ایلی و علا علی لری دخی موز کیر افران موصیف الجموع سورتی ایلی بیک کیر افران
نفیر ادره مذکور ناک افران ایلی موی ادره و دخی افران بیک بیک بیک بیک بیک بیک بیک بیک بیک بیک بیک بیک
اچون بیک ایلی بیک
موانی رای سامی بیک
مقدیری اضم ایلی معلوم سامی سورتن هر نفیر ادره و افران بیک بیک بیک بیک بیک بیک بیک بیک بیک بیک
کرانلو مهابلو قرتلو وخی نعم اضم

خط همايوني H.H ارشيف رئاسة الوزراء باستانبول. ۸۲۶۵

أمر بجمع الجنود وإرسالهم إلى أدرنة للإنخراط في سلك الإنكشارية ، وليس
بإنتزاع الأبناء المسيحيين من أسرهم .

وثيقة (٩)

شوکلو کواتلو مہاتلو قدرلو ولونتم افتم
 صدر سابق یوسف پاشا قدرلو موفق اولہ مدفنون وکالت مطلقہ ری خدمت جیلہ سی ودرجہ پنج
 عسکرہ حسن پاشا برلنہ امالہ یورلقدن ناشی جاوشباشی کج عثمان اغا چاکری مہرہایون
 اخذ و حسن پاشا برلنہ تسلیم واردوی ہایونہ کورنی و بعد مملوکاری دخی صدر اعظمی مشارالہ
 چاکرناک وصولہ دکن قائمقام نصب اولدنی مشر بیاض اوزرنہ شرفیاقہ صدور اولون ایکی قطعہ
 خط ہایون کرامت شہزادی تبدیل حکمی امین خاکی قدرلہ اشہد ماہ رمضانک اون اوینی بازار کونی
 واصل و درحال جاوشباشی اغا مقتضای ماموریتی اوزرہ مہر شریفی یوسف پاشادن الوب بو قدرلہ
 قائمقامی خلعتی لباس ایدیکون صبح یوم مذکورہ ودرجہ طرفہ نزل ایہ غریب و صدر اعظمی مشارالہ
 استجابہ مساعت ایدیکی و صدر سابق مشارالہ یوسف پاشا ارادہ شاہانہ ری بیجہ با اعلیٰ رشتوی
 ایماث اولغله صدر اعظمی و دروزن نہ محلہ ماموریتی تنظیم ایدر لایہ رابطہ سی ویرہ ہکاری و قدرلو
 قائمقامی اورلہ اشتغال ایدیکہ بناؤ یکجوی اودوسنک خط و ربطی قزل کوزسی ابرائیل اولغله زنجبیلی
 قدرلہ تبیہ و تائید اولدنی محاط علم عالیہ یورلقرہ اوروفیان شوکلو کواتلو مہاتلو قدرلو ولونتم
 افتم پاشا ہم حق قدرلہ

HAT. H ٧٩١٧ ارشيف رئاسة الوزراء بإستانبول.

تدريب جند الإنكشارية في عهد السلطان عثمان الثاني على يد كتحدا
 الإنكشارية إبرائيل والذي يدل غسمه على أنه يهودي.

وثيقة (۱۰)

۱۹۰۴

شوقلو کرامتو مهابانو قدونو ولی نعمتم اقدم
بمنه تعالى توبه بمان هابونلر ابقا ونوبه اولنه بق مناصب دیوانه ناک معروض حضوره شاهانه لری قنات
دفتری مبارک قلم غایت رقم ملوکانه لریه تصحیح یورلدی و جله تبیین و بر مقدار بالوسی خط هابون مکارم قرون
بادشاهانه لریه توشیح یورلق ایچون تقدیم قلمغله دفتر مذکورک باتوی معینجه ابقا ونوبه لریه اذن هابونلر
دیو خط شریف شوکر دیف داورانه لریه تریب یورلق بایز امر و فرمان شوقلو کرامتو مهابانو قدونو ولی نعمتم
اقدم بادشاهم حضرت کند

اولقدن
دفتر مصفحه مذکورک یورکی کتابی اوزدیه جوقون منصب اولامش مسخضه و لری بایز خط هابون شاهانه لری شرف صدور
مستوظم اولدوق اولو محمد افندی و حال اولار لایسی یوسف آگاه افندی و اربابینی بابو مس افندی قولدی خاطر کلوب لک کتاب
مذکوره بکده مقدورک تعیننه مدار اولور قیلدن اولدیغنه بشقه ییجی قلموسی هفتنه وایکی کون کاتب قوناغنه کلوب قلم
اولوسی ترتیب ایلدی بر مقدار قلم جاری اولدیغنه بنا ییجی کاتبی اولدر صاحب دانه و سنا اولور دوزمه و وایروکی معانی
اولون هانلردن و موسی الیهدن یوسف آگاه افندی بن لری صاحب دانه اولدیغی و اضحایدن اولغله بومورده کتاب مرقوم
کرک موسی الیهدن و کرک سارون قلمی قولدیه توبه لریه اولدیه سینه لری سنا اولور ایس دفتر معروض مذکوره اقی بر ایلان
کتاب مذکوره اولوچم طولدیه اقضا ایلدی قریه علم عالی لری یورلدوق امر و فرمان حضرت مده الورد کند

۴۲۳۸ HAT.H أرشیف رئاسة الوزراء بإستانبول.

تعيين أحد جنود الإنكشارية في منصب كاتب الإنكشارية .

وثيقة (۱۱)

۵

یادشهم

بنم و دریم
هر یو نفرین و دیوید فخر و عزم و کمال
همه دنیا جمله سینه فوئیه الهی عابد

سوکتو کرانتو عطا بنو قدرتاو و نعمت اضم
یکجری انعام فوری بکونه الباسی فلیتله بر مقدار اغا قیسه و اردنی متعاقبا سله اولجه دانه اغواخی بر قطعه یهد سید باب عابدیه
ارسال انج اولدینده اذنا ایدیه منفردی الباسی و اجز اولنج و یهد مذکور نظر معالجوور شاهانه لری جولعه ایدیه عرض
و تقسیم فتمت ایدیه و اغای مورایه بنج لری سلفک کلبو و کفر طاعنه فقیسه ارسالی تقریری باشی بازیم و طاعنه استغفار
انج اولدینده بنا کلبو ایدیه و درده تقریری سیارشی اولدینده تقریری کلبو یک اذنا ایدیه امرشرفی اصدار و اعطا اولدینده رهبه
علم عالمشول شهر یاریدری جور لری امر و طاعنه سوکتو کرانتو عطا بنو قدرتاو و نعمت اضم
یادشهم حضرت بکر

۱۷۲۳۷ HAT.H أرشیف رئاسة الوزراء بإستانبول.

قرار سلطانی بتعیین آغا الإنکشاریه .

وشیقة (۱۲)

۵

بارتھم

نیم دیریم

مقتضای اراده شاهان از او زده اجرا و قضا علیه و توقیف علیه سرده و در طلبه اید امین بنده فایده و حر
جریه تشریفات و جریه یکه نزد و یکه توقیف قضا در بر بجهت یکه قریه و توقیف یکه لاسمه قطیقا اجرا اوله

توکنو کرانو ملائو قدرنو و نغمتم فتم
نقضای اراده سیه شاهان لری او زده بکیری غالی قویری بوکوبه باب عابدیه دعوت برله اختیار قطع و قضا فایده و
عوض عینه ملوکانه زنده کدوسه و تبه والوی وزارت توجیه او زده سراسره و دهنه سحر کوراک و معمار اولن
هبت وزارت و طاهر اید اغا قوسه اسر قلمتی ابدی محاط عم عالمول سهر بابیری جور لوقه امر و فرمانه توکنو
کرانو ملائو قدرنو و نغمتم فتم بارتھم حضرت یکه

سازده اغا یاشا قولر نیک بونده بویه سلامه و باب عالی و معایر و در یانه ها بنیاد باب و دهان بن صورت حرکت و نغمه
اجرای رسوم ایچ هکتی سیه قریه وقوع و جریه قطیقا جریه تشریفات و بر قطعه یکه ایضاً اید یکه مشمول لحاظ
معلی فاضله شاهان لری جور لوقه عی و نغمه بنیاد قلمتی یکه عم عابدی جور لوقه امر و فرمانه حضرت یکه

۱۶۴۰۴ أرشیف رئاسة الوزراء بإستانبول.

منح أغا الإنكشارية رتبة الوزارة .

وثيقة (۱۳)

درخو عنايتو عاطفتو رافلو مروانو ولى النعم كريم شيخ افندي سلطان محمد زكي
 وافرندندبرو دولت عليه ابد مدت و صحنه ديه ميه و شريفه خبات و كفايه نعمت و ايجود نشود
 و تغلب و خبات قصيده نذير خبريه به مخالف و هربار رفع لوى محوس تفاوت ابدن طامعه
 باغيه كثره المفسك محمد الله على تاثير نظره كبر نظير حضرت خليفه ايه قلع پنج مفدت
 و اى نام و تاه عتو و تحو ندرى معلم و معلم عاكر موده محمديه نام خيرات سايه نقرت بوز
 نزيل يورلر بنى ميه بوزده اقم شرفيس و رود اولونه نيزنامه سايلدى مفضاچه ارض و دره
 باعده حضرت خدا بالوعد والوعيد محض سايه جلود نوابه جناح برانديز ميه هم علمه لر ابرو
 قبول و امثال ايندريابوب و بيلو نه علوم و محضرى تقديم و امرنامه وى النعميليك در حال رجوع
 اقم و وصاى لازمه تحريه جلد و فارص و ناه ولى و محافطى حضرتى بنى لر نه نيز بنى
 خاكيلى عاليه نيز بنى قلوب بعدو فارصه عطفانو صالح بات احفندريك تحريه قاصد
 امثال حاوى و ارد اولونه معلم و محضرى دى متعاقبا ارسال الوتمى و جلد و البسى عايرتو
 بنى لر و اقم نيزه اخيم و محكمه بصد نزع نكودنمى و دفع الوتمى اولدى مسموع جاكرى اولو
 بونك اوز نيزه مصلح خبير خبريك دى ابر شمنه شايد بصد قبل وقال اولونه ملاحظه
 و متار اليك دى استفايه بنى راس سرد اولونه ارض و موهنه خيمه اغا نيزه اطرافى
 بر كاغد ياز دريابوب مشارالو كوروش ايرى بودفه و انه مى فظى بنى لر يك طرف عاجزانه
 بونك اوز نيزه مصلح خبير خبريك دى ابر شمنه شايد بصد خيمه اغا نيزه اطرافى
 و متار اليك دى استفايه بنى راس سرد اولونه ارض و موهنه خيمه اغا نيزه اطرافى
 بر كاغد ياز دريابوب مشارالو كوروش ايرى بودفه و انه مى فظى بنى لر يك طرف عاجزانه
 مكنيله و انه سر حريك سايه كچرى او جاقا و سنده انقيادى مضموم بر قطعه و سرحد مذكور
 ميه و بار او جاقا وى و سارنرد و بكر بر قطعه محض و ارد و تقيا و الى مشاراليك تحريه
 ميه و بار او جاقا وى و سارنرد و بكر بر قطعه محض و ارد و تقيا و الى مشاراليك تحريه

HAT. H ۱۷۳۵۴ أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول.

القضاء على الإنكشارية وإحلال العساكر المنصورة المحمدية مكانها.

وثيقة (۱۳)

ب

۱۰. التمسح اولدوقنده انلرده دخی بولسانه جیاستلروردونج جمله سی دقیرلر دسعاده ارسال اولدوقنی وارمزدونج بولندوبه غیردی اورطه مالی و سارنسه بولنوبوب بکوی صبطی و تقاری و اوجاقلک مجموع متفرعاتی کیم فروع اولدوبه ممکنده قول کرمه و اضافی اولدوبه امور طرف جا کزله ندره تقاضا بانی و سارنما مورلر بیلیمه روت اولمقدله اولوب فقط دعاوی صمنده اهل اسلامک اخذ و حبسی ماده سی اکثر مالکک اولنده دیزو ادجافنده خارج اعیانه و و بودله معرف و وساطتله اولدوقنده بونصوص طرف بکازنده مامور اولدوقنده شعیبک ارضوم اعیانه و سارنملرک دخی منظم و بودله ندره احوال اولدوقنی و قوی بانی مویکله مامور اولدوقنی دیکر ادا و امر حیلله اولدوقنی اخیری و بعدله قاص و وانه وارمعه اولدوبه و صایای مقضیه ایله بعدله اعراف قلغقله بوزله صکره دخی ترتیب عکره داز و سارنکونه ادا و امر سینه ظهور ایدریس انه شالله العیبه سابه راقوبله عالیده انقازیمه سارعت قله هنی بانی و سبله ابراز اخذ صم اولمقدله انه شالله العالی لدی اشرف الوصول و دیاج و هر حال امر و قیانه قضاو غنائو عاقلقو راقو مرونو و التمسح کیریم شیم قضا طامع حقیر نکر



دودلو غنائو عاقلقو راقو مرونو و التمسح کیریم شیم اقامه سلطانیه و قیانه دروین قلمه ده و دوزار قیانه قلمه نقراتک خانه ری اولوب طرف دیکرینه وضع اوقانه تفراقه شمدی صیفه لازم دکل ایسه ده شتاده او طرر یا برلوه قضا ایتیم و ذکر اوقانه خانه لوده نسوان ... ارم اولدوقنده بالادرضا خانه مذکور کرج جمله سی اشترا و دوزار اقامه اولمقدله ایدوقنی قاص

وثيقة (۱۳)

ج

خبر آنکه دخی اطمینان است که ...
 قندنی و سالفایبانه امرنامه و غیره از آنکه در آن روز و آن روز در آن روز
 اخذی و طرف جاگیره نقران و صفه در پیشه یکجای او جاعنه مخصوصی از آنکه در آن روز
 و تبدیل و دکان در آن روز دفع و او جاع مزبوره متعلقه عرف بلده دخی دفع اولوب اشعار غایت
 بویرونه امرعاجه نرف اولنقره با و در او بویون قویجی باشی محمد غایب بلده بوم عرفه شرف
 اولنقره باشی عبد شریف جملله بر کوه صکره ثانی عبد نرب دیوانه و پای و کلا اجتماعیه جملله و او
 قران و اعلوه و مجموعنه خطابا و بایم و وندی قدر بصد کلمات مؤثره با ندره پیشه مقدمه
 بصد سائل طرفه عا کر مینه به محمدی نای نسیم بویون بزم مضامین محمدیه و او بویون جنس آخری
 ایرک دیو بصد زهان ساعده رس بزی اولوب اولنقره بنا مجلس مذکور عفا بودی در میان
 سید برنی ایندم عا کر مینه به معلم عا کر مینه محمدیه نامک نسیم حقیقه سید صلی الله تعالی
 علیه و سلم اقدومه نسبت و استاد ابله خیر و عینی منج اولوبه و زره انچه نقالو و ترکا واقع او مشد
 بوفه اولیکه محمدی دکل ابدی دیکر دکلدر جملله من الله محمد اول و اهرام محمد و ز دیو بوکا دار
 اقوال مفره بیان قلمغله و جوه بلده اشخاص و کندی بلی سوزیدر نسیم و عد دیو اعتبار و طرف
 جاگیره دخی نوبیران اشعار بر حلی تکرار مسع اطاعت و تسلیم جملسی بکربانه اولدومه اغای بود
 موافقه سند کوبانه اولد قری و بر نطوفه قریانه عا بشانه او جاع مزبوره متعلقه قرغانه و سارا شیا
 و او رطه مالی عری اولد قری زمانه عینقده و ز دار قلم بیز بولوب سلفه خلفه و در اولد کلوز
 چند عدد قرغانه و تنانی اخراج و از و دم قلمی جبه خانه سنه وضع اولوب بر قلم معنی و قری
 تقدیم قندنی و از و مده بولنانه چند نفر و رطه و رده اولوب حصار دلیخ او بویون جیر استار ابله
 بصد خالده بولنانه جیر استار دخی النوب حفظ و از و دم اباننک حاوی اولدنی فضا را
 جملله سنه دخی ام جلیل الشانه صور سینه سبله مؤکد بویون بلر متقع و در انکار مبشر لرم قولدر ندر

وثيقة (۱۳)

د

وصیایه دخی بولنده اقامتاری اویا
وسا زری جمله خارج قلمبر نقل وایا برله نفقات مرقمه خانه مدکورده
و معلم عاقره صوره محیدیه تحریک یجوده ارض و مدنه نفقات و سکر دکانه نهیه سند بستم اصح
و وارث دخی مناسب سکر دهله حاضرینج وقارض طرفی بود دغه قیبه به منوکل ارض و مدنه
ایده مطوفت و صالح یا شاضیله دخی مذاکره اولونج اولوب ایتم بولا وار اراده سینه ظهور نموده
ترقب قلمقه اولغله برآه اقم صورت ترتیبک اشعاریه اصاندی بایض امر و فایده حضرت دخی اوردی



أما بالنسبة لعناصر الجيش العثماني (قوات برية وبحرية) فقط ميزة عن بعضها البعض بلباسها وعلمها (بيرقها) وهي بمجملها تخضع لآغا الإنكشارية ومقره استانبول ، فقد تعددت الروايات بشأن تأسيس الإنكشارية ، غير أن بعض الوثائق تؤكد أن الغازي أورخان هو من فكر بتأسيس جيش من أبناء المسحيين استناداً إلى ما قام به جندرلي قره خليل الذي اقترح على أورخان تعليم أبناء الأسرى المسحيين اللغة العثمانية من خلال إرسالهم إلى العائلات التركية وقد أسفر عن هذا الاقتراح إن امتلكت الدولة العثمانية الناشئة جيشاً يساعدها في الحرب وفي أوقات السلم يرسلون إلى العائلات التركية لممارسة الأعمال الزراعية ، وقد كان الجيش العثماني مؤلف من نوعين من الجند (قوات اليايا- المشاة -وقوات مسلم) إي العناصر التي أسلمت.

لم يتثن الغازي أورخان تطبيق فكرته بسبب وفاته سنة 1324 وخلفه ابنه مراد الأول (1359-1389) الذي قام بتأسيس الإنكشارية سنة 1362 وقد مكنت هذه القوات من تحويل الإمارة إلى دولة ثم إلى إمبراطورية وبفضلها أيضاً توسعت أملاك الدولة العثمانية لدرجة أنها فرضت نفوذها على ثلاث قارات (آسيا- إفريقيا -أوروبا) وهذه الصور توضح التقسيمات العسكرية العثمانية ، وعلى الرغم ومن وجود القولوغليلة (أولاد العبيد) منذ العقد

الأخير للقرن السادس عشر ، لكن الدولة العثمانية لم تعترف بتلك القوات وظلت الفرمانات السلطانية توجه إلى القولوغليلة الإنكشارية، علماً بأن الإنكشارية قضيه عليها سنة 1826 من قبل السلطان محمود الثاني فضلاً عن ذلك فإن التقسيمات العسكرية التي فرضت على الإنكشارية فرضت على القولوغليلة التي ازداد نفوذها في مناطق الشمال الإفريقي ، ولهذا يقدم البحث نماذج من التشكيلات العسكرية العثمانية، وقد اعتمد البحث على مصادر ومراجع لتقديمها كدلائل لعساكر الشمال الإفريقي .

نمودج رقم (1)



نمودج رقم (2)



یکی چری اغاسی

اندرون همایون باش چاوشی

نموذج رقم (3)



نموذج رقم (4)



مؤذن الباب العالي



قاضي عسكر

نمودج رقم (5)



اردو صفا باشیسی



کیچرلی

نموذج رقم (6)



آغا السلاح



قيودان باشا (قائد الأسطول)

نموذج رقم (7)



نمودج رقم (8)



قول كتخداسی



سلخدار

نموذج رقم (9)



رئيس أفندي



باشا الهدايا

نمودج رقم (10)



آغا غلمان القصر



دلسیزی



جوجه اق آغا

نموذج رقم (11)



نموذج رقم (12)



خزينة دار آغا

أفندي الكيسه

نمودج رقم (13)



بيوك صولاق



قالیونجی

نمودج رقم (14)



اوسټه



بوستانجی براتا جیسی

نموذج رقم (15)



أوجاق الإنكشارية

نموذج رقم (16)



عناصر السواري (الخيالة)

نموذج رقم (17)



عناصر المدفعية (الطوبجية)

نموذج رقم (18)



عنصر من الإنكشارية

نموذج رقم (19)



عنصر الجبخانه

نموذج رقم (20)



عناصر السباهيه

نمودج رقم (21)



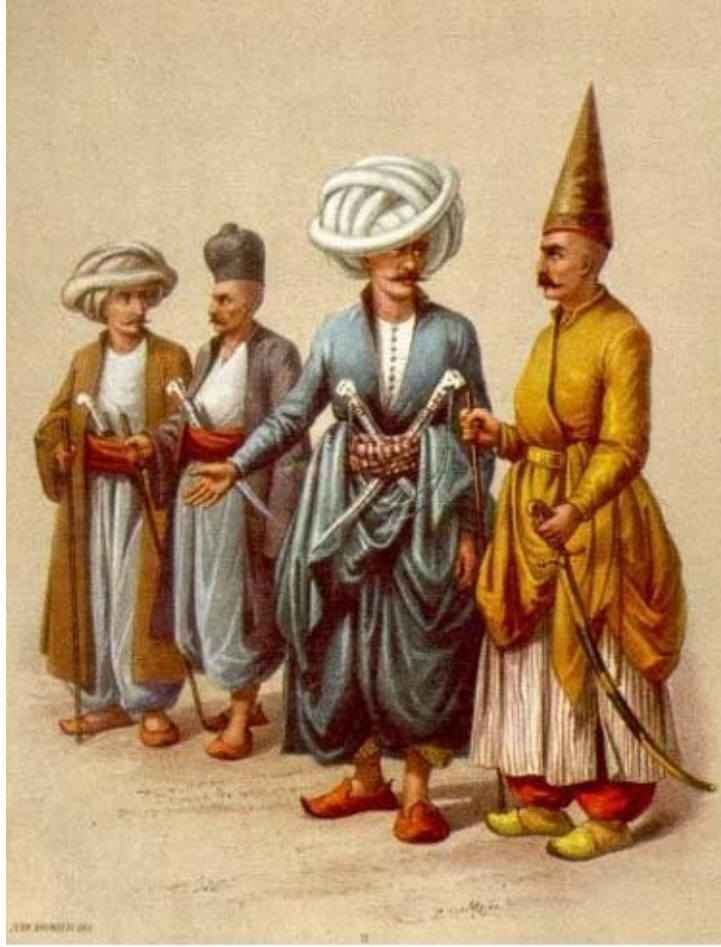
بلوك آغاسى

نمودج رقم (22)



اوضه باشي (رئيس الاوضه)

نموذج رقم (23)



نماذج من الجند

نموذج رقم (24)



عنصر القابي قول

نموذج رقم (25)



عنصر البحرية (كالين)

المصادر والمراجع

1- المخطوطات:

- أسعد أفندي، كاتب الوثائق لسنة 1137-1240، مخطوط نور عثمانية رقم 2678.

2- الوثائق غير المنشورة⁽¹⁾:

- 1- أرشيف رئاسة الوزراء ، استانبول، مجلس دالاي رقم 87.
- 2- أرشيف رئاسة الوزراء فرمان رقم (2) ورقم 87.
- 3- أرشيف رئاسة الوزراء، استانبول، علم وخبر دفتری رقم 378 و 457.
- 4- أرشيف رئاسة الوزراء، استانبول، كدان كلان دفتری (دفتر الصادر والوارد قم 17 و 217 و 314).
- 5- أرشيف رئاسة الوزراء، استانبول، مهمة دفتری رقم 1107 ورقم 18 و 8 و 109 و 57 ورقم 14.
- 6- أرشيف رئاسة الوزراء، استانبول، وثيقة رقم 214 و 1735 وثيقة رقم 117349.
- 7- أرشيف رئاسة الوزراء، تصنيف عسكري وثيقة رقم 4875.
- 8- أرشيف رئاسة الوزراء، جودت تصنيفي، رقم 5432.
- 9- سجلات الديوان الهمايوني، مالية دفتری، ومدور دفتری رقم 57 و 79.

3- المصادر العربية:

- 1- ابن أبي دینار: المؤنس في أخبار أفريقية، دار المسيرة لبنان 1993.
- 2- ابن غلبون: التذكار فيمن ملك طرابلس الغرب من الأخيار، طرابلس 2002م.

(1) نعتذر عن ذكر الوثائق التي اعتمد عليها البحث بكاملها لكثرتها. وإنما قدمت نماذج ، وقد اضطر البحث إلى اعتماد مرة أرشيف ومرات سجلات، وهي ذات معنى واحد، وإنما ترد في التصنيف هكذا. (الباحث)

3- أبي الضياف، أحمد: إتحاف الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، منشورات الشؤون الثقافية، تونس 1963م.

4- الأنصاري، أحمد بك النائب: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، استانبول 1963م.

5- الجربي، محمد أبو رأس: مؤنس الأحبة في أخبار جربة، حققه علي المرزوقي، وقدم له حسن عبد الوهاب، تونس 1960م.

6- الجزائري، حمدان بن خوجه: المرأة (لمحة تاريخية وإحصائية عن إيالة الجزائر) بيروت 1972م.

7- الزباني، ابن الوزان: وصف أفريقيا، ت عبد الرحمن حميدة، الهيئة المصرية العامة لكتاب، 2005م .

8- ناجي، محمود: تاريخ طرابلس الغرب، ت عبد السلام أدهم ومحمود الأسطى، بيروت (د.ت).

9- يوسف، الشيخ الصغير: المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تربي، تحقيق أحمد الطويلي، طرابلس (د. ت).

4- المصادر العثمانية:

1- أفندي، أسعد: خلاصة أحوال تونس، استانبول 1375.

2- أوغست، كور: منشآت السلاطين، استانبول 1954م.

3- باش، زاده سليم: انهيار الإنكشارية وفسادها، استانبول 1974م.

4- بجوى: تاريخ بجوى، استانبول 1321.

5- تشارشلي، إسماعيل حقي: التاريخ العثماني، أنقرة 1987م.

- — مؤسسة الإنكشارية، أنقرة 1984م.

- — أوجاق الغرب، أنقرة 1967م.

- 6- جلبي، (اشلبي) أوليا: مرآة التواريخ، استانبول 1372.
- — وقعة نونيس، استانبول 1321.
- 7- جودت، أحمد باشا: تاريخ جودت، استانبول 1309.
- — تمرّدات الإنكشارية، استانبول 1375.
- 8- خير الله، أفندي: تاريخ خير الله، استانبول 1875م.
- 9- صولاق، باشا: تاريخ صولاق، استانبول 1311.
- 10- طوبال، زاده وسليم: إيالة تونس خزينة يه كلان، أنقرة 1987م.
- 11- عاشق باشا، زاده: تاريخ عاشق باشا، نشره علي بك، استانبول 1332.
- 12- نور، رضا: عثمانلي تاريخي، اسطنبول 1924م.
- 13- هامر، جوزيف فون: التاريخ العثماني الكبير، ج1، اسطنبول 1989م.

5- المصادر الثانوية:

- 1- تقرير صالح الرئيس إلى الباب العالي بتاريخ 1672.
- 2- تقرير نظارة الأوقاف عن التعليم في تونس من القرن الثامن عشر، مكتبة نور عثمانية.
- 3- مذكرات الدفتردار سامي بك لسنة 1675 استانبول 1934م.
- 4- مقدمة فهرس الأوراق الإبرلندية لسنة 1652 باريس المكتبة الرسمية.

6- المراجع العربية وغير العربية:

- 1- أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1516-1830م، دار المغرب الإسلامي 2005م.
- 2- الإنكشاري، الهادي بن يونس: الدولة العثمانية ودور الإنكشارية، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس 2009م.
- 3- البربار، عقيل محمد: دراسات في تاريخ ليبيا الحديث، مالطة 1966م.

- 4- البشروش، توفيق: جمهوريات الدايات في تونس 1591-1675م، تونس 1992م.
- 5- البناء، سونيا محمد سعيد: فرقة الإنكشارية ونشأتها ودورها في الدولة العثمانية من خلال المصادر التركية، القاهرة 2006م.
- 6- التميمي، عبد الجليل: دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن السادس عشر، تونس 2009م.
- 7- التميمي، عبد المالك: الخليج العربي والمغرب العربي، دراسات في التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي، قبرص 1986م.
- 8- الجزائري، يوسف فهمي: الجزائر أرض البطولات، الإسكندرية (د.ت).
- 9- الجمل، شوقي: المغرب العربي الكبير من الفتح الإسلامي إلى الوقت الحاضر، الجزائر، تونس، ليبيا، المغرب الأقصى (مراكش)، القاهرة 2007م.
- 10- الدارجي، سعيد إبراهيم: زليتن، دراسة في العمارة الإسلامية، زليتن، ليبيا 2003م.
- 11- الدسوقي، محمد كمال: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة، 1976م .
- 12- الدويبي، خليفة محمد: الأوضاع العسكرية في طرابلس الغرب قبيل الاحتلال الإيطالي 1881-1911م، ليبيا، طرابلس 1999م.
- 13- الزاوي، الطاهر: ولاية طرابلس الغرب منذ الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي، بيروت 1970م.
- - أعلام ليبيا، دار إحياء الكتب العربية، مصر 1961م.
- 14- الشريف، محمد الهاد: تاريخ تونس، تونس 1990م.
- 15- العقاد، صلاح: المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر (الجزائر، تونس، المغرب الأقصى) القاهرة 1993م.

- 16- الغازي، أماني بنت جعفر بنت صالح: دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية، القاهرة 2007م.
- 17- الغزوي مخلف أمحمد، الإصلاحات العثمانية وأثرها في ولاية طرابلس 1839-1911م، مركز الجهاد الليبي، طرابلس 2001م.
- 18- الغيلاني، عبد العزيز: مدينة قسنطينة، دراسة التطور التاريخي والبيئة الجغرافية، الجزائر، قسنطينة 1984م.
- 19- القابسي، نجاح: المعاهدات والمؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي، بغداد 1981م.
- 20- المدني، أحمد توفيق: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1972م، دار البصائر، الجزائر 2007م.
- 21- النمر، علي حسين: ابن غلبون وكتابة التذكار، دراسة مقارنة في تاريخ ليبيا الحديث، 1551-1731م، منشورات مركز جهاد الليبيون للدراسات التاريخية، 2008م.
- 22- الوبية، كامل علي مسعود: الإدارة العثمانية في طرابلس الغرب 1911-1942م.
- 23- أوغلو، ساحلي خليل: خزينة عامرة واردة، اسطنبول، 1984م.
- 24- بازامة، محمد مصطفى: تاريخ برقة في العهد العثماني الأول، قبرص 1994م.
- 25- باشي، قوجه: التدخل الأجنبي في الثورات، اسطنبول، 1918م.
- 26- باكير، حسين سالم أبو شويشة: الحالة الاجتماعية لمدينة طرابلس في العهد العثماني الثاني 1835-1911م، طرابلس، ليبيا، 2009م.
- 27- بن موسى، تيسير: المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، الدار العربية للكتاب، 1988م.

- 28- بنبليغيث، الشيباني: الجيش التونسي في عهد الباي محمد الصادق 1859-1882م، مؤسسة التميمي، تونس، زغوان، 1995م.
- أعضاء على التاريخ العسكري في تونس 1837-1917م، صفاقس 2003م.
- 29- بنت سليمان، فاطمة: الأرض والهوية (نشوء الدولة الترابية في تونس 1574-1881م) جامعة تونس 2009⁽¹⁾.
- 30- بيتروسيان إيرنيا: الإنكشاريون في الإمبراطورية العثمانية، دبي 2009م.
- 31- بيهم، محمد جميل: فلسفة التاريخ العثماني، الكتاب الثاني، بيروت 1954م.
- 32- توللي، ريتشارد: عشر سنوات في بلاد طرابلس، مكتبة الفرجاني طرابلس (د. ت.).
- 33- خوجه، حسين: ذيل البشائر في أهل فتوحات آل عثمان، تحقيق وتقديم الطاهر العموري، تونس 1975م.
- 34- دلنده، الأرقش وآخرون: المغرب العربي الحديث من خلال المصادر التركية، تونس 203م.
- 35- رافق، عبد الكريم: العرب والعثمانيون، دمشق 1974م.
- 36- زاده، صباح ناجي: الامتيازات الغربية في الدولة وولاياتها، أنقرة 1984م.
- 37- زيادة نقولا، أفريقيات (دراسة في تاريخ المغرب والسودان)، الرياض 1991م.
- 38- شرف الدين، إنعام محمد: مدخل إلى تاريخ طرابلس الاجتماعي والاقتصادي، مركز الجهاد الليبي، طرابلس 1998م.
- 39- شوستفورد: الدولة العثمانية وتركيا الحديثة، استانبول 1982م.
- 40- صابان، جلال قره، ليبيا، أنقرة 1956م.

(1) أجمع علماء التاريخ ورواد المنهجية على أن (ابن وابنة وال التعريف) لا تؤخذ بعين الاعتبار لدى ترتيب المصادر والمراجع. (الباحث)

- 41- صابان، سهيل: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، الرياض، 2000م.
- 42- صرما، إحسان ثريا: مساوئ التنظيمات، د. ط. م ، 1989م.
- 43- صلال، جميل: دراسة في الواقع الليبي، مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا 1967م.
- 44- عامر محمود، فارس محمد خير: تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى - ليبيا) دمشق 2007م.
- 45- عامر، محمود علي: تاريخ المغرب الحديث (الجزائر - تونس) دمشق 1995م.
- — تاريخ الإمبراطورية العثمانية، دمشق 2004م.
- — تاريخ المغرب المعاصر، 2005-2006م.
- — الدولة العثمانية، تاريخ ووثائق، دمشق 2001م.
- 46- عباد صالح، الجزائر: خلال الحكم التركي 1514-1830م، دار هومة للطباعة، الجزائر 2007م.
- 47- عبد اللطيف، محمد صادق: (مدينة تروي قصة التاريخ) تونس 1999م.
- 48- غول، أرجمند: النظام الضريبي في الدولة العثمانية وولاياتها، أنقرة، 1984م.
- 49- قدارة، فاتح رجب: الزاوية الغربية خلال العهد العثماني الثاني، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2006 م.
- 50- قوجسي، رشاد أكرم: الإنكشارية، اسطنبول 1994م.
- 51- كحالة، عمر: مباحث اجتماعية عالمي العربي والإسلامي، دمشق 1974م.
- 52- مجموعة من المؤلفين، الجيش التونسي عبر العصور، نشر وزارة الدفاع الوطني، تونس 1996م.

53- منصور، علي مفتاح إبراهيم: الرحالة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا السياسي والاقتصادي في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ليبيا، طرابلس 2005م.

54- نخبة من الأساتذة الجامعيين، تونس عبر التاريخ، ج2، منشورات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 2007م.

55- نمير، عقيل لطف الله: تاريخ الجزائر الحديث، جامعة دمشق 2007-2008م.

56- هلايلي، حنفي: بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، الجزائر 2007م.

7 - المراجع الأجنبية المترجمة إلى العربية:

1- برنيا، كوستانزو: طرابلس الغرب من 1510 إلى 1850م تعريب خليفة محمد التليسي، ليبيا 1969م.

2- بروشين، نيكولاي إيليتش: تاريخ ليبيا منذ منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين، ترجمة عماد الدين حاتم، طرابلس ليبيا 2011م.

3- حبيب، هنري: ليبيا بين الماضي والحاضر، ترجمة شاكر إبراهيم، طرابلس، ليبيا، 1982م.

4- روسو، البارون الفونسو: الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، جامعة قاريونس 1992م.

5- روسي، إثوري: ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م ترجمة خليفة محمد التليسي، توزيع دار العربية للكتاب، طرابلس - ليبيا 1991م.

6- روفيري، الأب فراشيسكو: عرض الوقائع التاريخية البرقاوية 1551-1911م ترجمة إبراهيم المهدي، مركز الجهاد الليبي، طرابلس 2003م.

7- ريمون، أندريه، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ت لطفي فرج، القاهرة 1991م.

8- شوفالييه، كورين: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541م ترجمة جمال حمارنة، الجزائر 2007م.

9- فيرو، شارل: الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، جامعة قاريونس، بنغازي 1994م.

8- المراجع التركية المترجمة إلى العربية:

1- التر، عزيز سامح: الأتراك العثمانيون في أفريقية الشمالية، ترجمة عبد السلام أدهم (طرابلس - تونس) بيروت 1969م.

- الأعمال البحرية في أوجاق الغرب، ترجمة صالح السعداوي، بغداد 1984م.
- الأتراك العثمانيون في أفريقية الشمالية، ترجمة محمود عامر (الجزائر - المغرب) بيروت 1988م.

2- شوكت، محمود: التشكيلات والأزياء العسكرية العثمانية منذ بداية تشكيل الجيش العثماني حتى سنة 1820، ت يوسف نعيصة ومحمود عامر، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1988م.

9 - المراجع التركية الحديثة:

- 1- Babi Âli, küzey Afriqya Meselesi, Istanbul 1910.
- 2- Babi Âli, küzey Hariciya Nezarat, Istanbul 1334.
- 3- Celâl Kara sapan, Cezayir durumn, Istanbul 1981.
- 4- Halil paşa, Cezayir Osmanli devletinde Ahvalî, Ankara 1980.
- 5- Mahir Aydin, Sultan Mahmud Dönemi, Istanbul 1990.
- 6- Mahmut Celâleddin, Miratü Hakikat, Istanbul 1910.
- 7- Midhat Sert Oğlu, Resimli Osmanlı Tarihi, Istanbul 1958.
- 8- Reşad Ekrem Koçu, Yeniçeriler, Ankara, 1982.
- 9- Yilmaz Öztüna, Büyük Türkiye Tarih, Ankara 1976.

10 - الدرويات والمجلات :

- 1- إبراهيم، عبد الله علي: ضريبة العشر في ليبيا أثناء الحكم العثماني، المجلة الثقافية، العدد الرابع، السنة الثانية عشرة، 1985م.
- 2- السعداوي، إبراهيم محمد: التحولات العمرانية والبشرية بمدينة باجة في العهد العثماني، المجلة التاريخية للدراسات العثمانية، تونس، العدد 33، سنة 2007م.
- _ الشمال العربي ذاكرة جبهة (ندوة تاريخية) صفاقس 2009م.
- 3- الطوير، محمد أحمد: الحركات التحررية ضد بعض الولاة العثمانيين، ليبيا 1551-1911م، المجلة التاريخية المغربية، العدد 53-54 لسنة 1989م.
- 4- المجلة الإسبانية، لسنة 1878م.
- 5- أمين، محمد: ملاحظات حول سياسة التهميش ووضع المهميشين بولاية الجزائر العثمانية، المجلة التاريخية للدراسات العثمانية، منشورات مؤسسة التميمي، تونس، العدد 15 لسنة 2002م.
- 6- جاغو: (القنصل البريطاني في طرابلس) تقرير عن أحوال الزراعة والبستنة والمواد الطبيعية لولاية ليبيا، ت نادية كاجيجي، مجلة والشهيد، العدد السابع والثامن لسنة 1989م.
- 7- سويس، محمد بشير: أوضاع التعليم في ليبيا 1835-1950م، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، مركز الجهاد الليبي، 1999م.
- 8- عامر، محمود علي: النظم الإدارية العثمانية في اليمن، مجلة الأكليل، العدد الثاني 1989م.
- 9- غطاس، عائشة: مظاهر من الحياة اليومية للجيش الإنكشاري في الجزائر في أواخر العهد العثماني، مؤسسة التميمي، تونس، زغوان، العدد 35 لسنة 2007م.

- 10- نورس، علاء موسى كاظم: مدى مسؤولية الإنكشارية في تدهور الدولة العثمانية،
المجلة التاريخية المغربية، العدد 45-46 السنة التاسعة 1982م.
- 11- ياسمين، حكمة: الغزو الإسباني للجزائر في القرن السادس عشر، مجلة الأصالة،
الجزائر، العدد 14-15 السنة الثانية 1943م.

11 - الرسائل الجامعية :

- 1- إبراهيم، علي محمد: النظم الإدارية في الدولة العثمانية 1520-1687 رسالة ماجستير
غير منشورة، دمشق 2007م.
- 2- التايب، منصف: بلاط باردو في عهد حسين بن علي (1705 - 1735) رسالة
ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس 1990م .
- 3- السلطاني، نبيهة: القوة العسكرية بتونس وتكاليفها المالية 1756-1814م، رسالة
دكتوراه غير منشورة، تونس 2000م.
- 4- العربي، الغالي: الانتفاضات الشعبية في الجزائر منذ منتصف القرن الثامن عشر حتى
الاحتلال الفرنسي، رسالة ماجستير غير منشورة، دمشق 1985م.
- 5- الوبر، جمال أحمد عبد الله: المدارس الدينية بمدينة طرابلس في العصر العثماني
1551 - 1911، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المرقب، 2007م.
- 6- خروف، عمار: علاقات الجزائر مع تونس في عهد الدايات 1671-1830.
- 7- سالم، إسماعيل سالم علي: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بإيالة طرابلس الغرب في
عهد أحمد باشا القرمانلي 1711-1745م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة
المرقب، 2003-2004م.
- 8- سرداح، ميرفت: الجهاد العثماني لإنقاذ المغرب العربي من الهجمة الصليبية الإسبانية
1518-1578م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس 2000م.

- 9- عبدو، عمر مبروكة: الشرطة في ولاية طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الثاني 1835-1911م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة السابغ من إبريل 2006-2007م.
- 10- مامي، محمد الباجي: مدارس مدنية من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني، رسالة ماجستير غير منشورة، تونس 1981م.
- 11- مخلوف، صايل: العساكر العثمانية في ولاية حلب 1623-1798م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق 2006م.
- 12- معاشي، جميلة: الإنكشارية ببايكية قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة ماجستير غير منشورة، قسنطينة، الجزائر 2007م.